أبو الطيب المتنبي الكوفي

حياته وخلقه وشعره وأسلوبه

بقلم

محمد كمال حلمي بك

سكرتير ديوان كبير الامناء

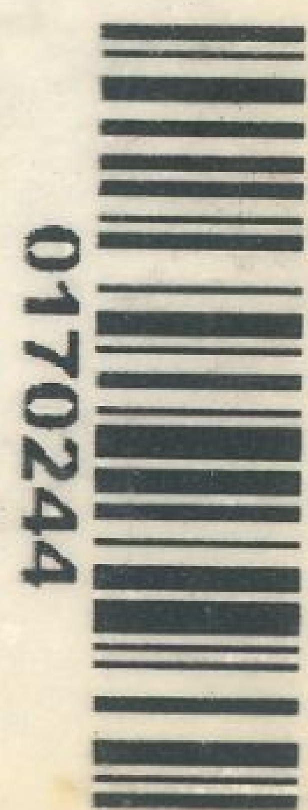
ليسانسييه في الحقوق

ديبلوميه في العلوم الجنائية

سنة ١٣٣٩ هـ - ١٩٢١م

إدارة مكتبة ومطبعة الشباب

(بشارع عبد العزيز خلف جامع العظام)





اهداءات ٢٩٩٩

مكتبة

أ.د عبد الحميد بدوى

القاضي بمحكمة العدل الدولية

أبو الطيب المتنبي الكوفي

حياته وخلقه وشعره وأسلوبه

بقلم

محمد كمال حلمي بك

سكرتير ديوان كبير الامناء
ليسانسييه في الحقوق
ديبلوميه في العلوم الجنائية

سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢١م

إدارة مكتبة ومطبعة الشباب
(بشارع عبد العزيز خلف جامع العظام)


مكتبة
لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
مع تحيات أ. علاء الدين شوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي والمصطفى وسيلتي

مقدمة

قال (ابن رشيق) شيخ النقدة في كتابه (العمدة) :

« ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس »

هذا نص من نصوص فن النقد لا يليق بالمنتسب الي الأدب ان يمر به دون ان يقف حياله وقفة المتدبر كما يفعل الفقيه الورع حيال نصوص الفقه واحكامه – ان حجة النقاد الذي انتهت اليه الزعامة في تقدير الشعر لا يصدر مثل هذا الحكم المقتضب فيعطي هذه المكانة للمتنبي الا بعد امعان في النظر . فلنتفهم هذا النص على مقتضى ما بأيدينا من الأسانيد والأخبار واقوال الثقات لنتعرف كيف ان المتنبي ملأ الدنيا وشغل الناس

قال ابن خلكان في ترجمة ابي الطيب : « واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ، وقال لي احد المشايخ الذين أخذت عنهم : وقفت له على أكثر من اربعين شرحا ما بين مطولات ومختصرات »



وفي الصبح المنبي : « فمن شروحه كتاب ابن جني وهو أول من شرحه . وكتاب اللامع العزيزي وكتاب معجز احمد لأبي العلاء (المعري) . وكتاب ابي الحسن علي بن احمد الواحدي . وكتاب الموضح لأبي زكريا التبريزي . وكتاب عبد القاهر الجرجاني . وكتاب ابي منصور محمد بن عبد الجبار السمعاني . وكتاب ابي القاسم ابراهيم بن محمد الافليلي . وكتاب ابن الحاج يوسف بن سليم الأعلم . وكتاب عبد الرحمن بن محمد الأنباري . وكتاب في سرقات المتنبي للحسن بن محمد بن وكيع ، وسماه بالمنصف . وكتاب ابي البقاء عبد الله العكبري . وكتاب ابي اليمن زيد بن الحسين الكندي . وكتاب عبد الواحد بن محمد بن علي بن زكريا . وكتاب محمد بن علي بن ابراهيم الهراسي الكافي . وكتاب ابي الحسن محمد بن عبد الله الدلفي ، عشر مجلدات . وكتاب كمال الدين بن القاسم الواسطي . وكتاب الوساطة ، للقاضي ابن عبد العزيز الجرجاني . وكتاب ابي بكر محمد بن العباس الخوارزمي . وكتاب عبد الرحمن ابن دورست . وكتاب ابي الفضل احمد بن محمد العروضي . وكتاب التجني على ابن جني ، (وكتاب الفتح على ابي الفتح) لابن فورجة . وكتاب معاني ابياته ، لابن جني . وكتاب التنبيه لأبي الحسن علي بن عيسى الربعي ، وقد رد فيه على ابن جني . وكتاب ابي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني . وكتاب الحسين بن محمد بن طاهر الشاعر . وكتاب ابي عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيرواني . وكتاب علي بن جعفر بن القطاع . وكتاب الصاحب ابي القاسم اسماعيل بن عباد . وكتاب ابي الحسن عبد الرحمن الصقلي . وكتاب قصائد الصبا للأعلم . وكتاب نزهة الأديب ، في سرقات المتنبي من حبيب ، لابن حسون المصري . وكتاب الانتصار ، لأبي الحسن احمد المغربي . وكتاب التنبيه على رذائل المتنبي . لأحمد المغربي ايضا : وكتاب بقية الانتصار ، المكمل من الاختصار ، لأحمد المغربي ايضا . وكتاب الرسالة الحاتمية ، لأبي الحسن محمد بن مظفر الحاتمي . وكتاب جبهة الأدب للحاتمي ايضا . وكتاب الاستدراك على ابن الدهان ، للوزير ضياء الدين بن الاثير الجزري . وكتاب الابانة للصاحب العميدي ، سوى الشروح التي لم نسمع بذكرها » (ص ٤٢٣ وما بعدها ج ا)

وقد خلط المؤلف بين الشروح وغيرها من كتب النقد .

وستري في غضون هذا الكتاب صورة الانقسام والاختلاف بين أهل الأدب فى قيمة شعر المتنبي . لقد توارى المؤرخ الكبير ابن خلدون فى مقدمته المشهورة خلف مشايخه ونقل عنهم حكمهم بنفى شعر أبى الطيب من ديوان الأدب مع أن هذا المؤلف قد اثبت ، في نفس المقدمة ، شيئاً كثيراً من شعر البربر وغيرهم من العامة ـ وتعصب ابن الأثير الجزري لصاحبنا فكاد يجعله أشعر شعراء العربية

هذا ما كان من امر المؤلفات والضجة التى أحدثها شعر المتنبي بين المتأدبين

أضف الي ذلك أنه أقام حول شخصه ضجة أخري لا تقل أهمية عن الاولي: ادعاء نبوة ، وقرآن جديد ، وخصومات مع نظراء أقوياء ، وهجرة وان شئت فقل فرار من دولة الي اخري حتى طاف غالب بلاد الاسلام ، وكبرٌ على امراء ووزراء كانت عداوتهم بمثابة اعلان له فزادوا من شأنه رفعة ـ ولا نقول انهم رفعوا شأنه بعد ضعة او أذاعوا ذكره بعد خمول ـ لأنه ان لم يكن من أول الأمر ذا مكانة وفضل لكانت عداوة الوزير المهلبي ، مثلا ، أو عداوة الصاحب ابن عباد ، أطفأت اسم المتنبي ، وذلك لما كان لهما من الفضل والأدب والجاه والسلطان .

لقد أثبتنا فى احدي حواشى هذا الكتاب (ص ٦٧) صورة الوزير المهلبي في ساعات لهوه مع ندمائه من العلماء والقضاة وهم ينقعون لحاهم البيضاء في كؤوس الخمر ثم يرش بعضهم البعض بما بقي منها ـ والانصاف يقضى علينا أن نثبت هنا صورة اخري تمثل الرجل في أدبه وقوة تصرفه وحضور ذهنه ـ يقول الثعالبي صاحب (يتيمة الدهر) في ترجمة هذا الوزير : « كانت حالته قبل الاتصال بالسلطان حال ضعف وقلة وكان يقاسى منها قذى عينه وشجى صدره فبينما هو ذات يوم فى بعض اسفاره مع رفيق له من أصحاب الحراب والمحراب الا أنه من أهل الأدب اذ لقي من سفره نصبا واشتهي اللحم فلم يقدر على ثمنه

فقال ارتجالا

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش مالا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتى يخلصنى من العيش الكريه
اذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو اننى مما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه

فاشترى له بدرهم واحد لحما فأسكن به قرمه وتحفظ الأبيات وتفارقا ـ وضرب الدهر ضرباته حتى ترقت حالة المهلبي الى أعظم درجة من الوزارة . . ووقع الرفيق تحت كلكل من كلاكل الدهر . . فقصد حضرته وتوصل الى ايصال رقعة تتضمن أبياتاً :

ألا قل للوزير فدته نفسى مقال مذكر ما قد نسيه
أتذكر اذ تقول لضنك عيش ألا موت يباع فاشتريه ؟

فلما نظر فيها تذكره وهزته أريحية الكرم للحنين اليه ورعاية حق الصحبة فيه . وأمر له في عاجل الحال بسبعمائة درهم ووقع على رقعته « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » . ـ ثم دعا به وخلع عليه وقلده عملا . »

أما الصاحب ابن عباد ، ذلك الوزير ، الكاتب ، الشاعر ، المقصود الجناب، فلا أزيدك في وصفه على أن أنقل اليك ما قاله ابن خلكان عن وفاته : « لما توفي أغلقت له مدينة الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته . وحضر مخدومه فخر الدولة أولا وسائر القواد وقد غيروا ملابسهم فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض ومشى فخر الدولة امام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياما »

هذان خصمان من خصوم المتنبي العديدين ـ فرجل لا حول له ولا قوة تهب عليه هذه العواصف ولا تلقيه صريعاً بل تتلاشى من أمامه ويبقى هو كالصرح الممرد ،ما احري به وبخصومه أن يصوروا بتلك الصورة البليغة :

« أما الزبد فيذهب جفاءاً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض »

فبعد هذا البيان لااخالك تتهم (ابن رشيق) بأنه يكيل التقريظ بغير حساب

***

قال أحد زعماء الصوفية الشيخ محيي الدين بن العربي :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه دان
وقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعي لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

هكذا كان شأننا فيما مضى في دراسة الأدب وتاريخه ، وهكذا أصبح شأننا ، وقد رمينا بأبصارنا الي غير ما بأيدينا – كنا نقنع بطرائقنا القديمة من شرح واعراب . وكنا نعجب بما قال شعراؤنا من مديح وهجاء . فاذا بنا اليوم نطمع أن نكشف عن كنوز دفينة لا بد لنا من وسائل جديدة لاستخراجها واذا بنا نريد أن نتعرف تلك الوجوه ونتفهم تلك النفوس و نتغلغل الى صميم تلك الضمائر ؛ نريد أن نقف على حقيقة الشاعر او الناثر طفلا ويافعاً ، محصلا متعلما ؛ وكهلا مرتزقا ، معلما ومرشدا – يعز علينا ، ونحن في عصر « اشتراكية فكرية » – ان صحت هذه التسمية – أن نرى أمثال « دانتي » و « شكسبير » و « هوجو » و « جوت » تعزى اليهم القواعد الهدائية والمذاهب الاجتماعية والمرامي الفلسفية والاكتشافات النفسية ولا نعرف عن نظرائهم في لغتنا الا أنهم مداحون هجاؤون

لكثير من المتأدبين عندنا اليوم نظرة ازدراء الى شعر المديح ويبالغ بعضهم فيسميه « شعر المتسولين » اغراقا في الحط من شأنه – الا أننا لا نسلم لهم بكل ما يدعون . فليغربلوا هذه الأشعار وليخرجوا منها ما قاله الشاعر طلبا للرزق ثم ليستجلوا نفس الشاعر من شعره وليتبينوا منازعه من خلال أقواله وليحللوا تلك الاشارات التي تنم عن مراميه وخفيات ضميره – فان هذا القليل ربما أوصلهم الى كثير يرفع من قدر شعرائنا في نظرنا وفي نظر غيرنا

على مقتضى هذه القواعد الأولية سرنا في وضع هذا الكتاب . ولا ندعي أننا جئنا بالبراهين القاطعة والأدلة الساطعة والحجج البالغة والبينات الدامغة ! ولكنا نزعم أننا وفقنا الى تعرف الرجل قبل ان نتعرف شعره فاستعنا بواضح أمره على تلمس خفي سره ، وعنينا باستجلاء طرائقه وأساليبه أكثر مما قصدنا الى تفسير غريب الفاظه ومغلق تراكيبه ـ ولعل تلك القرائن التى هدانا اليها الاستقراء تصبح يوماً ما في عداد الحقائق

الا ان بعض المشتغلين بالآداب عندنا لا يرضون بهذه النتائج القليلة وانما يريدون ان يصلوا طفرة الى الكمال المطلق في مباحثهم، فسكتوا وسكت غيرهم خوفا من ظهور النقص في اعمالهم ونسوا ان الكمال لله وحده ـ فخوف النقص أبقى الآداب في النقص ، وما أشبه هذه الحال بقول احد حكماء الاسلام « الناس من خوف الفقر فى الفقر ومن خوف الذل فى الذل » ـ ولا بد من فتنة يثيرها تنازع البقاء بين القديم والحديث ـ فبقليل من الاقدام من جانب البعض ويسير من التسامح من جانب البعض الآخر تهدأ العاصفه ! ! ! ذلك هو الدواء الذى اقترحه على اساة الادب ولعل فيه الشفاء ان شاء الله

* * *

بقاء شعر المتنبي . ـ أحق أن مدائح المتنبي في الامراء ورؤساء الزمان هي التي رفعت من شأنه وخلدت ذكراه ؟ ام كانت نعمة تزاحمهم على استضافته هي التى أغرت به حساده ونظرآءه فاجهدوا قرائحهم في تلمس عوراته وسقطاته ؟ ـ مسألة فيها نظر

انه اكتسب انصارا وعشاقا لشعره من بين العامة والجماهير لا من بين الامراء والرؤساء ولا من بين الادباء والشعراء ـ الا القليل ـ . كانت طريقته في التأليف احبولة يتصيد بها المطلع على شعره فيكتسبه لنفسه، يورد عليه ما يعرف وما يحب وما يطلب، فمثله في ذلك كمثل التاجر الكيس يجتهد في أن يبيع الناس ما يريدون فتحبب اليهم من هذا الباب اذ أعطاهم ما يشتهون . ـ لأنه في شعره ربما

كان يعمل لنفسه ليرضيها فأرضى نفوسهم تبعا — يقول في احدى ساعات كآبته وقد ضل سعيه في الحياة «ما كل مايتمنى المرء يدركه» فمن ذا الذى لايشاطره رأيه وعاطفته ؟ ثم يزيد دليلا جديدا بتشبيه ظريف فيزف السلوى الى القلوب : « تأتي الرياح بما لاتشتهي السفن » — بهـذا التقرب الى الناس يزيد في العروة توثيقا وفى الصلة توكيدا — أجل انه شاركهم في آمالهم وآلامهم وصور علل أخلاقهم وامراض قلوبهم ووصف لهم علاج ادوائهم — وكأنما أخذ على نفسه أن يترجم عما في نفوسهم في كل ظروف الحياة . من اجل ذلك أقبل الناس على شعره واكثروا من الاستشهاد به — وهذه مزية لم ينلها كثير من الشعراء ان لم يكن هو الذى استأثر بها دون غيره

والحق ان اهل اللسان العربى قد وجدوا في شعر المتنبى من الاحكام والقواعد الهدائية اكثر مما وجد فيه الممدوحون من النفاق المأجور

ان الشعر الذى يقال للمناسبات الطارئه يقضى عليه بانقضاء الظروف التى قيل فيها ، بخلاف الشعر الذى توحيه النفس حين تتجلى لها الحقائق الخالدة ، وحين تبث الي الضمائر ماتكنه نظائرها من الميول والعواطف والخواطر والأوهام والخيالات التى فطر عليها الناس كلهم جميعا ، ولاسيما اذا كان للعقل المفكر نصيب الى جانب الوجدان المتأثر . لأنه من الصعوبة بمكان أن يصل الشاعر في صناعته الى حيث يستطيع ان يمسك الحكمة بيمينه والشعر بيساره ويعقد بينهما عقدة التآخي والمصافاة . فان فعل فقد أنبت في روض الأدب ثمرات يانعات

ان عنوان القصائد في ديوان المتنبي — وفى ديوان غيره من الشعراء — تسيء كثيرا الى أشعارهم . اذا رأى القاريء عبارة « قال يمدح » أو « قال يهجو » ربما أهمل القصيدة ترفعا عن سماع التمليق والرياء ، أو ضنا بكرامة نفسه عن محضر الشتائم والسباب . ولعمرك اى لذة او فائدة يحصل عليها المطالع اذا تصور رجلا يتزلف الى ممدوح ويوسعه كذبا وبهتانا ، او ينهال على خصم بكل فاحش من القول ، دون ان يكون لذلك المطالع نصيب من جهده يرضى به نفسه ذلك

الارضاء المقصود من قراءة الشعر ، من طمأنينة للروح أو فكاهة أو تسلية أو موعظة حسنة ؟

والظاهر أن شعر الرجل لم يبق الا لأن مدائحه واهاجيه ليست في الحقيقة الا جزءا يسيرا بالنسبة الي مجموع شعره ـ انك تجده على الدوام يخاطبك . فهو يلقى كلمة التزلف الى اميره أو يرشق خصمه بالتهمة المؤلمة ثم يلتفت اليك فيعطيك قسطك من العبرة أو الحكمة ؛ من أجل ذلك لا تشعر بالوحشة مهما اشتغل عنك بمديح أو هجاء

فلا تنظر الى عنوان قصائده لأنها لا تعرف من عنوانها على رغم المثل القائل « يعرف الكتاب من عنوانه »

***

ويحسن بنا قبل أن نسوق اليك تفاصيل هذا الكتاب ان نعرض عليك منه صورة مجملة ، تكون بمثابة خلاصة للمبحث أو مفكرة ربما تعود اليها اذا انتهيت من قرآءته :

ابو الطيب المتنبي ـ او «المتنبه» كما يسميه المغاربة ـ كوفي المولد (سنة ٣٠٣ هـ) وضيع المنبت ، عربي الأصل ، يتعصب للعربية ويطعن في الأعاجم قبل اتصاله بهم . نشأ نشأة بدوية وحافظ على بداوته رغم تحضره . وفي البادية أخذ اللغة . وفي بادية السماوة وهو في العشرين من عمره قام بالدعوة المختلف في شأنها اكانت نبوة ام طلبا للفتح . وهل ادعاها هو او ادعاها عليه قوم آخرون . ولعلها كانت مرضاً عارضاً . والارجح انها كانت طمعا في دنيا يصيبها ـ ويظهر انه قد حضته على خروجه ظروف تدعو الي الفتنة كانقسام الامة على نفسها بتخاصم العناصر والأجناس وضعف الدولة واضطراب امورها وظهور اصحاب البدع والمذاهب من كل نوع وشيوع التعاليم الغريبة عن روح الاسلام وضياع مهابة الخلافة بذهاب سيادتها الفعلية وانفراج مسافة الخلف بين الراعى والرعية وحيف القابضين على ازمة الامور من امراء وقواد ووزراء ناهيك بأوقات الحرج التى هيمن فيها الخدم

والنساء على شؤون الاسلام

تحكى كتب الأدب عن نبوة شاعرنا سيرا مختلفه وتروى له معجزات كان يخرق بها على اهل البادية فقد كان مذ اءاًقويا يسير من محلة الي محلة ويروي اخبار الاولي عند اهل الثانية ويوهم ان الأرض تطوى له ، ويحبس المطر بضرب من السحر - وينسب له قرآن في مائة عبرة واربعة عشرة عبرة لم يبق منها الا بضع سجعات

وقد سجن من جراء هذه الدعوة ثم اطلقه والى حمص بعد ان استتابه

ولا يعلم عن سجنه والمدة التي قضاها فيه والمعاملة التي عومل بها الا شيء قليل. وله شعر قاله في حبسه يستخف في بعضه بالحبس، وهو اول ماقال فيه على مايظهر ، وبعضه استعطاف واسترحام ارسله الي الوالى ليخلى سبيله

وبعد خروجه من سجنه قنع بالشعر وجعله مورد رزقه وتردد على الامراء في جهات الشام وقصد كثيرا من اعيان البلاد كالتنوخيين وابن طغج وبدر بن عمار (س ٣٢٨) حتي انتهى الى أبى العشائر الحمدانى، والى انطاكية ؛ ومنه اتصل بسيف الدولة الحمدانى صاحب حلب . فأقام في ذراه وسجل ذكرى حروبه مع الروم في شعر غزير المادة حافل بالفرائد النادرة - ثم قام بين ابى فراس الشاعر احد أقرباء الامير وبين المتنبي نزاع شديد هدد مركز الشاعر عند اميره ؛ تبعه خصام مع ابن خالويه النحوى خرج منه ابو الطيب مشجوج الوجه يسيل دمه على ثيابه . فانصرف من حاشية سيف الدولة بعد ان قضى بها حوالى العشر سنوات (٣٣٧ - ٣٤٦) ثم اتصل بعد ذلك بكافور الاخشيدى مدبر امور مصر - وطمع المتنبي في ولاية اومنصب كبير عند كافور - ولما فشل مسعاه بعد أن طال انتظاره - وكان بينه وبين الوزير ابن الفرات، من قبل، شيء في النفس - غادر مصر هاربا ليلة العيد الاكبر بعد ان مكث بها من سنة ٣٥٦ الي سنة ٣٤٠ وقصد الكوفة موطنه الأصلى .وكان يتردد بينها وبين بغداد (٣٥٠ - ٣٥٣) واغضب كبراء بغداد باغضائه عنهم والترفع عن مدحهم فأهاجوا عليه الشعراء والادباء فنالوا منه حتي اضطر الي مغادرة العراق الي بلاد فارس وبقي بها

من سـنة ٣٥٣ الى سنة ٣٥٤ ـ فقصد الوزير ابن العميد ثم عضد الدولة بن بويه : الملك العظيم ، ونال منه العطاء الجم . و بعدأن انصرف من عنده قاصدا الـكوفة قتل في الطريق هو وابنه وخادمه قبل اذ يصلوا الى بغداد (س ٣٥٤) وكان سبب قتله على الأشهر قصيدة هجاء في ضبة بن يزيد أثارت عليه قرابة المهجو فانتقموا منه

* * *

اما خلقه في الجمـلة فـلا يتناسب مع مكانته العليا في تاريخ الأدب : خلق مضطرب ، كل يوم بلون « لا يستقر على حال من القلق » وهو اشبه بخلق السوقة والرعاع ـ كثير التقلب في مبادئه ، لا يعرف العفو حتي ولا في اقل درجاته . يذكر الاساءة على الدوام وينسى الجميل اذا غضب وينصح لأهل العفو والحلم بالاحتراس من عواقبهما . ويدعو الي استعمال الشدة والعنف ـ وهو هجاء شتام ، يفحش في شعره ويجيء بالمقـذع من السب ، يقذف النساء ويتعرض للأعراض ولا يستحيي من السوآت ويعير بالعاهات ـ وهو شديد الالحاف في الاستجداء كثير التذلف في الاقتضاء ـ وقد عرف عنه البخل والحرص على الدنيا واشتهرت عن شحه حكايات عديدة مما يرجح انه كان جبانا ، لتعذر التوفيق بين الشجاعة والبخل ـ ويظهر ان شجاعته لم تكن الا اندفاعا رتيبا يدعوه اليه الغرور والـكبرياء والاستخفاف بالناس والامراء والملوك ، وقد كان لا يعرف المداراة حتي عرض نفسه لنقمة الـكبراء واغرى بنفسه الشعراء والادباء فكثر خصومه حتى زعزعوا مكانتـه

الا انه لم يعرف بسوء السيرة في حيـاته الخاصة فلم يكن خليعا ولا ماجنـا ولا مـستهتراً ولم يشرب الخمر الا مرات معدودة وروي عنه انه كان لا يؤدى فرائض الدين والعبادات . ـ ولا غرابة فمسألة عقيدته محل للنظر

وخلق ابى الطيب في جملته نتيجة ضرورية لحالة منشئه الوضيع والوسط الذى تربى فيه ومجموع الظروف التى احاطت به

* * *

أما شعره فمجال سباق تتبارى فيه الأفهام وميدان حرب عوان بين انصاره وخصومه ولم يعرف في تاريخ العربية شاعر قام بشأنه النزاع بمثل هذه الشدة : قوم ينفونه من ديوان الشعراء وقوم يزيدون في التعصب له حتى جعلوه المفرد العلم فكثر التأليف عنه وعدت شروحه بالعشرات.

اذا قسمنا شعره، بحسب مناطق القوى المدركة في الانسان، الى شعر وجداني توحيه النفس المتأثرة، والى شعر مادي تمليه الحواس ، والى شعر حكمي يكون نتيجة التفكير العقلي — اذا سرنا في التقسيم على هذه القاعدة وصلنا الى الاحكام الآتيه :

مظان وجود الشعر الوجداني في دواوين الشعراء بابا الغزل والرثاء. ولكن هذين البابين من شعر ابي الطيب لا يصحو فيهما وجدانه. فترى غزله خطرات مفكرين : يشرح العشق علميا ويرسم تعاريفه ويضع قواعده ويصف العشاق ويصور احوالهم ويصف جمال المرأة بنوع خاص . مواقفه الغزلية مع النساء في الغالب مواقف فراق وتوديع لا تصادف الا ساعات الرحيل الذي لا يكون الا على العيس والهوادج كأنهن ينوين سفرا بعيدا الى ماوراء البيد والقفار ـ ثم ان هواه مع البدويات العربيات يفضلهن على نساء الحضر. ـ وفصل الغزل وحده يستدل منه على ان أبا الطيب بقي على تعصبه للعربية على الرغم من اتصاله بالأعاجم. ويلاحظ على غزله في مجموعه روح الحزن والكآبة وذكرى السقم والنحول. وهو في ذلك اشبه بمن ذهب الهيام بلبهم كالمجنون العامري وامثاله، ومن جهة اخرى يرى في غزله شيء من الجفاء والعنف مع معشوقاته والتلميح بأنه هو الذي تسعى اليه النساء كما يفعل عمر بن ابى ربيعة

وكذلك رثاؤه لا يعد من الشعر الوجداني الا القليل منه ـ فهو يحوى : أولا ـ شعرا وصفيا يصور فيه الشاعر مكانة المرثى وابهة ملكه وهيبة جنازته مما يدعو الي الاجلال والاعظام ولكنه لا يثير الحزن في النفس ولا الدمع في العين ، وثانيا شعرا حكميا ملؤه الخطرات السديدة والنظرات الصادقة والافكار المتفرقة عن

الحياة وما فيها مما يدخل في «فلسفة الموت» وثالثا ـ شعراً وجدانيا في غير الحزن يكثر فيه الوعيد والتهديد والغيظ على الأيام والاعتراض على الأقدار ، ورابعاً ـ شعرا وجدانياً في الحزن حقيقة تنفعل فيه نفسه انفعالا صادقا ويظهر من خلال قوله انه صادق في وده قد نزلت به نازلة حقا وانه غير مأجور على شعره ولا مخادع فى بكائه .

هذا وابو الطيب راقى الخيال دقيق التصوير بعيد المرمى فيه وهو قليل الفكاهة يخرج فيها الي الهجاء ولو كان سار على عكس ذلك فاتبع التهكم الظريف في الهجاء لكان خيرا له واسلم

ويستنتج من مجموع باب الشعر الوجدانى أن ابا الطيب كان مصورا مفكرا قد رزق استعداداً شعريا فكان التصوير والتفكير يغالبان فيه الوجدان حتى رأى كثير من النقاد أن شعره قاصر على الوصف والحكمة

اما شعره الوصفى فأهم مافيه وصف الطبيعة والحروب، ويشمل وصف الطبيعة القفار والصحارى وما في نواحيها من بالى الطلول والرسوم مما يدخل فيما يسميه العصريون « الطبيعة الميتة » ثم يرى له وصف الطبيعة البهيجة كبحيرة طبرية وشعب بوان ثم وصف الحيوان كالظباء وكلاب الصيد والأسد .

ويتناول وصف الحروب وقائع القتال والكر والفر وصفة الجيوش وادوات الضرب من رماح وسيوف وغيرها . ويدخل فى ذلك وصف الجيوش والخيول .

ومن مزايا الوصف في شعر المتنبي حب الألوان والأضواء والتفنن في تأليفها ومقابلتها . وهو يعطى الجماد والحيوان نوعا من العقل والتفكير ويجيد فى تصوير الحركات، وغالب حيواناته تراها مصورة في حالة الحركة، وقد وصف بحيرة طبرية وهى مزيدة مضطربة مما يستفاد منه أن الشاعر يحب المظاهر الحية لأن الحركة مظهر الحياة .

ففى هذا الشعر الوصفى لايحتاج الشاعر لاجهاد وجدانه ولا تفكيره العقلى مادام قد رزق الاستعداد لادراك المبصرات واداء ماتحصل منها في نفسه، فهو

مصور بطبعه يشتغل بالتصوير في قالب شعري كما أن هناك شعراء يشتغلون بالشعر في قالب تصويري .

اما شعره الحكمي فليس له مكان خاص في ديوانه بل انه يتسرب فيه من أوله الي آخره . ولذلك يجب على الناقد أن يؤلف من هـذه المتفرقات المشتتة مجموعة مرتبطة الأجزاء جديرة بأن تمنح الشاعر لقب الحكيم . اما حكمته فعملية مجالها الاخلاق وتصوير حالات النفس . ومنزعها سامي (نسبة الي السلالة السامية) لكثرة الأمثال والعبر . وليس فيها من الرومية أو الهندية أو الفارسية الا بعض أسماء واشارات مقتضبة . وتتلخص آراؤه جملة في الشكوي من النـاس والأيام والأقدار ، وخطته في الحياة خطة عنف وشدة لسوء ظنه بالناس واتهامهم بالغدر والخبث . وقـد اتجهت عواطفه لحب نفسه وتحصيل الخير لها منصرفا عن حب الغير . وفكرة الوطن عنده معدومة . وهو شاعر الجمهور وحكيمه وآراءه في جملتها هي آراء الجمهور في كافة الأقطار والعصور .

* * *

اسلوب ابى الطيب هو الذى ابقي شعره لأن غالب معانيه انما هى معانى الجمهور المتداولة يشرحها ويعلق عليها على طريقة التوليد التي عرفت عن ابن الرومى واسلوبه فى ذلك تعليمى وفيه لهجة الاستاذية يدل على ذلك حبه للوعظ والارشاد وضرب الأمثال ، ونعرته العربية تجعـل اسلوبه خطابيا اشبه بخطب الجاهليين ومعلقاتهم ، وكثرة انفعالاته من تعجب وانـكار واستفهـام وغـير ذلك تميـل به كثيراً الى الاسلوب التمثيلى

اما مميزات صناعته فهى تلك الموسيقية الفطرية في طبعه ، وعلى مقتضاها يسلسل الكلمات المتساوية وزنا وقياسا . او يقطع الأبيات الي أجزاء متساوية اوغير متساوية ، ثلاثية أو رباعية يكون لها نغمات يلذها السمع وان كان نصيب الفكر او الواجدان منها ضئيلا ، وتكرير اللفظ المعروف بالترديد وكثرة العطف وشبهه ، ويسمي بسياق العدد . ـ وقد أبقت البداوة من آثارها في نفسه حب

الغريب من الألفاظ وأكثر مايظهر ذلك في اراجيزه، واستعمال اللغات الشاذة .ـ وقد أداه الذوق البدوى الجاف الى بعض المعانى والتشابيه التى تأباها رقة الحضارة . وله ولع بالجمع بين الأضداد فيجيء باللفظ وضده او المعنى وعكسه فأكثر من المقابلة والطباق ـ وكذلك كان يجمع بين الفنون المختلفة والمعانى المتنافرة ، وباب الافتنان في البديع هو أقرب مايحيط بهذا الضرب من التأليف وقد اعرض عن التورية والجناس التام الا أن له قليلا من الجناس المقلوب او الناقص ـ ومال الي الاشتقاق والتجنيس فاجاد في ذكر الشيء وما يناسبه ومراعاة النظير

***

ولعلك لاتقنع بهذا المختصر الوجيز . فان أردت المزيد فاليك البيان



الباب الاول

حياة أبي الطيب

جزئيات الموضوع :

اسمه ونسبه ونشأته — عربي يتعصب للعربية — العربية والشعوبية — نقص كتب التراجم فيما يتعلق بالحياة الخاصة — تقصير المترجمين أنفسهم — أثر هذا النقص في النقد الأدبي ودراسة الأخلاق — ادعاء النبوة — رأي محتمل — مرض العقل — هذيانه في شعره — جنون المتطيرين — جنون العظمة والكبرياء — النبوغ صراط بين العقل والجنون — الرأى المرجح في نبوة أبي الطيب — صورة العصر العباسي — انقسام الدولة وضعفها — الفتن في قصور الخلفاء — تداخل الخدم والنساء — سيادة القواد والوزراء — نبوة أبي الطيب في كتب الأدب — قرآن أبي الطيب — سجنه — أبو الطيب عند أمراء الشام — صفة حاله وبؤسه — أبو الطيب عند سيف الدولة — مكانته وحساده — عند كافور — آماله الضائعة — بين الكوفة وبغداد — في بلاد فارس — ابن العميد — عضد الدولة — مقتل أبي الطيب

اسمه ونسبه ونشأته

تحمل المسكَ عن غدائرها الريـ ح وتفترُّ عن شنيب برود
جمعت بين جسم (احمد) والسقـ م وبين الجفون والتسهيد

(احمد) هذا الذي سجل اسم نفسه فى أحدى قصائده الغزلية التي قالها أيام صباه هو موضوع البحث في هذه الرسالة . واني لأرجو بعد ان بذلت ما استطعت من الجهد في درسه ان اكون قد عرفته معرفة صحيحة وصورته صورة صادقة .

احمد هذا ، هو ثالث الثلاثة الكبار بعد الطائيين (١) حبيب والوليد ، اولئك الثلاثة الخالدي الذكر الذين انتهت اليهم الزعامة في الشعر قبيل ان تخمد الروح العربية المليمة وهو الذي تخير من طيبات شعره ابو العلاء المعرى طائفة صالحة سماها

---

(١) أبي تمام والبحتري

« معجز احمد » وكان اذا أراد ان يسميه قال « الشاعر » دون ان يذكر لى لقباً ولا كنية (١)

يسرد اصحاب التراجم لهذا الشاعر سلسة نسب هو فيها كما يقول شاعر عصرى فى رثاء عظيم من أهل مصر « معرفة فى انفس نكرات » (٢) او كما يقول احمد نفسه فى احد ممدوحيه :

أسامياً لم تزده معرفة ... وانما لذة ذكرناها

***

يقولون هو ابو الطيب احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ويقولون أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار .

ولعمر الله انهم مازادوا فى تعريفه شيئاً فان هذه الاسماء مجهوله لا يعرف لها فضل ولا تعلم عنها ذكرى .

على انه قد عرف بأبيه فاشتهر بابن الحسين وهذه التسمية قد رزقت حظ الرواج على ذكرى الحادثة الآتية :

« يروى ان المعتمد بن عباد اللخمى صاحب اشبيلية وقرطبة أُنشد فى مجلسه بيت المتنبي :

اذا ظفرت منك العيون بنظرة ... اثاب بها معيي المطىّ ورازمه

فاستحسنه وجعل يردده وكان فى المجلس ابو محمد عبد الجليل بن وهبون فانشد ارتجالاً :

لئن جاد شعر « ابن الحسين » فانما ... تجيد العطايا واللُّهى تفتح اللَّها

تنبأ عجباً بالقريض ولو درى ... بأنك تروى شعره لتألها (٣)

---

(١) راجع « الصبح المنبي عن حيثية المتنبي » للبديعى على هامش التبيان للعكبرى — طبعة سنة ١٣٠٨ هجريه (المطبعة الشرفية) ص ٤٨ ج ١

(٢) مرثية حافظ ابراهيم فى الشيخ محمد عبده

لقد كنت فيهم كوكباً فى غياهب ... ومعرفة فى انفس نكرات

(٣) مقدمة التبيان نقلا عن ابن خلكان

***

ويقولون أنه جُعفي القبيلة نسبة الى جُعفيّ بن سعد العشيرة احدى قبائل اليمانية ولد بالكوفة واليها ينسب نسبة مولد في محلة يقال لها كندة، فهو كندي من اسم هذه المحلة لا كندي القبيلة كامرىء القيس كما يتبادر الى الذهن من أول الأمر وكندة هذه هي التي ذكرها شاعرنا في قوله

أمنسيني السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

ولما جرت المخاصمة بينه وبين ابي فراس الحمداني في مجلس سيف الدولة عيّره ابو فراس بقوله « يادعيّ كندة »(١)

وكان مولده في مفتتح القرن الرابع الهجري (سنة ٣٠٣) في خلافة المقتدر بن المعتضد .

والظاهر أن هذا التاريخ تقريبي ولا نطمع في ان نتعرف مولد شاعرنا بالدقة فنقول ولد في شهر كذا في يوم كذا في الساعة الفلانية ليلاً أو نهاراً فان هذا مما لاسبيل اليه لاسيما عند العامة من الناس — وابو الطيب واحد منهم — فقلّ أن يلتفت الى هذا الأمر . انما العناية باثبات وقت المولد تصادف عند أهل البيوت الكبيرة كالامراء والملوك ومع هذا فكثيراً ما يقع الشك والخطأ في مولدهم

فابو الطيب عربي الأصل وقد عرّف عن نفسه في احدى قصائده بقوله « الفتي العربي »(٢) . وهو من المتعصبين للعربية ويفخر بهذه النسبة شأن امثاله الذين أرادوا أن يظهروا في ذلك الوقت الذي ساد فيه الاعاجم وتولوا مناصب الدولة وصبغوها بالصبغة الفارسية حتي لكأن دولة الفرس التي اتسع بها ملك الاسلام لم تخرج من يد ابنائها وكل ماجدّ فيها انما هو تغيّر مظهر من مظاهر مدنيتها ولون من ألوان الحضارة فيها واعنى بذلك الدين فبعد ان كانت دولة مجوسية أصبحت

---

(١) يقولون بدىء الشعر بكندة يعنون امرأ القيس وختم بكندة يعنون ابا الطيب (العمدة لابن رشيق) ص ٥٦ ج ١

(٢) قصيدته النونية في عضد الدولة (راجع الديوان والشراح)

دولة اسلامية وما عدا ذلك فقد بقي على أصله . وتنافس الفرس فى كافة أعمال الدولة وزاحموا العرب الفاتحين فى كل شيء حتى فى لغتهم وآدابهم فنظموا ونثروا وصنفوا بالعربية وكان لهم الفضل الأكبر فى التدوين . ولعل كراهة العرب الخلص لشعر المولدين والمحدثين منشؤها الكراهة العنصرية اذ التباغض والتحاسد ومافى حكمهما نتائج ضرورية للتنافس فى الفضل والتزاحم على الرزق

ولقد استحكمت العداوة والبغضاء بين العجم والعرب حتى أن هؤلاء لقبوا أولئك بالموالى والعلوج وغير ذلك من القاب التحقير والازدراء وقام جماعة يتعصبون للأعاجم وينتصرون لهم وعرفوا بالشعوبية (١) كما أنبرى للعرب من يدافع عنهم ويرد عنهم حملات خصومهم — ومن هؤلاء أبو الطيب على مايظهر من قوله

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عُرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم

---

(١) وأنى أشير هنا الى واحد من الشعوبية يعد فى طليعتهم لتقدم عهده وهو اسماعيل بن يسار النسائي المتوفى فى أوائل القرن الثانى للهجرة فقد قال فى تفضيل العجم على العرب :

وانما سمى الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الانساب
فاتركى الفخر يا أمام علينا واتركي الجور وانطقى بالصواب
واسألى ان جهلت عنا وعنكم كيف كنا فى سالف الاحقاب
اذ نربى بناتنا وتدسون سفاهاً بناتكم فى التراب

وفى هذه الابيات بيان لطريق الشعوبية فى تمجيد العجم والاستخفاف بالعرب

واخص بالذكر ممن تطوع لنصرة العربية على الشعوبية عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ وقد استغرق دفاعه قسماً كبيراً من كتابه « البيان والتبيين » على انى أراه فى هذا الجهاد قد لزم خطة الدفاع فقط ولم يجرأ على الهجوم مما يستدل منه على ان الشعوبية كانت اثبت منه مكاناً واكثر انصاراً — تلك كانت حالة الحرب الشعواء فى ايام الجاحظ الذي توفى فى منتصف القرن الثالث الهجرى وفى العرب يومئذ بقية من العصبية والسيادة . . .

في كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنهم غنم
يستخشن الخز حين يلبسه وكان يبري بظفره القلم

في موضع آخر :

أفعال من تلد الكرام كريمة وفعال من تلد الأعاجم أعجم

***

ليس ابو الطيب ممن كبروا بأنسابهم وأموالهم وأهليهم بل إنه عصاميّ صميم وكان ابوه سقاء بالكوفة يدعى عبدان . ولذلك عيره أعداؤه وخصومه من الشعراء والادباء بمنبته الوضيع وا كثروا من تذكيره بوصمته : وقد أسرفوا في هذا الباب بما لا يسمح به الأدب الذي ينتسبون اليه . فمن ذلك قول الحسين بن لنكك : « نعالهم في قفا السقاء تزدحم » وقوله أيضا : « متنبيكم أبن سقاء كوفاني و يوحى من الكنيف اليه » وآخر البيت اقذر من أن يذكر — وأنظف وأظرف ما قيل على هذه الذكرى المؤلمة وتناقله أهل الأدب قول أحد شعراء ذلك العصر :

أي فضل لشاعر يطلب الفضـ ـل في الناس بكرة وعشيا
عاش حينا يبيع بالكوفة المـ ـاء وحينا يبيع ماء المحيا (١)

وكأني بأبي الطيب يعترف بذلك العيب ويقر خصومه على دعواهم ولا يرى انها مما يغض من القدر ويحط من الكرامة وذلك حين يقول في أرجوزته التي قالها عند عضد الدولة .

فخر الفتى بالنفس والأفعال من قبله بالعم والأخوال

وحين يقول في رثاء جدته :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي اما

وحين يقول في قصيدته عن الحمى التي اصابته وهو بمصر .

ولست بقانع من كل فضل بأن أعزى الي جد همـام

---

(١) ابن خلكان كما نقله العكبري في مقدمة شرحه — ولعل القائل من شعراء بغداد الذين أغراهم الوزير المهلبي بالمتنبي

وحين يقول في صباه :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي و بنفسي فخرت لا بجدودي

وحين يقول وقد أحس بأن قوماً يجدون في البحث عن أصله ونسبه :

انا ابن من بعضه يفوق ابا البا حث والنّجل بعض من نجلهْ

وانما يذكر الجدود لهم من نفروه وانفدوا حيلهْ

فكأنه يقول : الولد سر ابيه ، وانما بفضلي الذي عرف لدى الجميع أنم عن فضل ابي لأني بعضه . وانما يفتخر بالجدود من نفره الناس حتى نفدت حيله في استمالتهم اليه .

***

الاحظ هنا اننا لانجد في كتب الأدب على كثرتها شيئاً يذكر عن نشأة ابي الطيب وايام طفولته بل ولا ايام شبابه الاولى

وليس هذا النقص خاصاً بترجمة ابي الطيب وحده — فربما كان الرجل اوفر حظا من غيره في هذا الباب — وانما يتناول هذا النقص كافة المترجمين بلا تمييز ولا استثناء

والظاهر ان المتقدمين لم يكونوا ليحفلوا بهذا الجزء من تاريخ المترجمين لأنهم لم يكونوا يرون له من الفائدة ما يدعو الى عناء البحث والتنقيب . وعلي فرض انهم أجهدوا انفسهم في ذلك فانهم ما كانوا ليهتدوا الى شيء كبير لأنهم انما ينشدون مفقوداً هالكا وعلى رأى ابي الطيب في احدى مراثيه .

عدمته وكأني سرت اطلبه فما تزيدني الدنيا على العدم ؟

هذا وأني الاحظ ان أكبر الذنب واقع علي المترجمين انفسهم لأنهم لم يتركوا لخلفهم صورة حقيقية تمثلهم في أيامهم الأولى وتصور خصائص أحوالهم ومعيشتهم وافكارهم وعواطفهم وآمالهم الى غير ذلك مما نراه مستفيضاً عند غيرنا ولا نكاد نجد له اثرا عندنا — اقصد بذلك مايسمى بالمذكرات او اليوميات وفيها يقيد المفكر او الأديب او الشاعر او المصلح او السياسي او غيره تاريخ حياته

بخط يده يوماً بيوم . وهذه الكتب لايحررها اصحابها لتنشر بين الناس فى حياتهم وانما يكتبونها فى الأصل لانفسهم ويودعونها اسرارهم ويسجلون فيهـا ماضيهم وتبقى بعدهم فى بيوتهم يحتفظ بها اهلوهم كأنها تذكار قيم او اثر نفيس .

ولعل بعض الناس يظنون ان هذا العمل ضرب من اللغو والهزل والعبث . لهم ان يظنوا وعليّ ان اجيب .

كم من لغو وهزل وعبث ادى الى خير ونفع وجد ؟ وكم ينفق الواحد من وقته ولا يحاسب نفسه علي زمنه الثمين دون ان يعمل مافيـه فائدة لنفسه او لغيره ! فهلا اقتضب من ساعاته الطويلة لحظات قصيرة يلغو فيها ويعبث ويهزل يسطر فيها أثراً يخلده على مدى الأيام ويذكره به اقوام بعد اقوام ؟

أليس من الضياع ان يلغو ابو الطيب فى مئات بل فى الوف من ابياته ويربأ بنفسه عن مثل هذا اللغو فى بضع صحائف يترك لنا فيها وصف ماضيـه وحياته الخاصة التى لا يعرفها الا هو وصورته الصادقة مرسومة بيده يذكرها له الناس الى ماشاء الله ؟

***

إننا لا نعرف على مَن مِن العلماء أو الادباء حضر ابو الطيب ، ولا كيف حصَّل الملـكة الشعرية ، ولا الكتب التى كان يأخذ عنها وينمى بها فى نفسه الروح الفنية هذا مايهم النقد الأدبى وتاريخه .

ينقصنا أيضاً ما نبني عليه دراسة أخلاقه فلا ندرى كيف كان يعيش فى بيته . ومع من كان يعيش ، وممن كان يقتبس خلقه وينمى غرائزه . وكذلك نجهل الحوادث التى نستدل منها على مقـدار قوته الخلقية ومعاملته لأمثاله ولمن هم أكبر منه أو اصغر وآدابه فى المعاشرة الى غير ذلك من « اللغو » الذى لا يدلنا عليه الا الشاعر نفسه . أما وقد سكت عنه فلا سبيل الى الحصول عليه الا بالتأويل وفرض الفروض واستنتاج النتائج التى كثيراً ما تخطىء وقليلا ما تصيب .

فات عظماء الرجال عندنا أن يدونوا تاريخ حياتهم الخاص فتركوا مواضـعهم

ناقصة فى تاريخ الانسانية العام اللهم الا ما بقي مكذوبا ممسوخا وهو مالا يشفى غليل الباحث المستقصى ولا يكشف الحجب عن تلك الوجوه النضرة فى التاريخ. وما ذلك التاريخ الاسلسلة هم حلقاتها . واذ كان أعيان الأمم ومفكروها مظهراً من مظاهر مجدها فلا جرم كان ذلك الفراغ المظلم من الفحش التقصير فى تاريخها

***

وخلاصة ما عرف عن أيام أبى الطيب الأولى بعد أن شب وترعرع انه صحب الاعراب فى البادية وعاد الى الكوفة بعد سنتين بدوياً قحاً وكان تعلم القراءة والكتابة فلزم أهل العلم والأدب وأكثر من ملازمة الوراقين فكان علمه من دفاترهم (١)

وعلى ذكر الوراقين — وهم تجار الكتب — أقول أن الجلوس فى الاسواق مما استنكره الظرفاء الا ما استثنى من الاحوال التي جمعها أحد الشعراء أو بالاحرى أحد النظامين فى قوله

مجالس السوق مذمومة ومنها مجالس قد تستحب
فلا تقربنْ غير سوق السلاح وسوق الجياد وسوق الكتب
فتلك تجارة أهل الوغى وهذى تجارة أهل الأدب(٢)

ولو كان ابو الطيب من اهل اليسار لأكثر من التردد على اسواق الجياد واسواق السلاح لأن غرامه بها كان عظيما - ان كان صادقاً فى دعواه حين يقول :-

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقدم ابو الطيب الشام مع والده وجال فى اقطارها . وكان يكتم نسبه فاذا

---

(١) راجع الصبح المنبي نفس الطبعة ص ٦ ج ١
(٢) لعل الناظم أراد أن يفسر الحديث القائل خير البقاع المساجد وشرها الاسواق؟

سئل عن ذلك قال « انى انزل دائما على قبائل العرب واحب ان لا يعرفوني مخافة ان يكون لهم ثأر على قومى » (١)

وروى شعر ابن الرومى . وهذا ما أستدل به على قوة حفظه أكثر مما حكاه صاحب كتاب الصبح المنبي (٢) اذ روى انه حفظ رسالة فى اوراق عدة فى لحظة قصيرة تكاد تكفي لتصفح الرسالة ، وفى الحكاية مبالغة على ما يظهر .

ولقد كان لشعر ابن الرومى أثر كبير فى تكوين الملكة الشعرية فى نفس المتنبي وسترى ذلك فى موضعه .

هذا كل ما تعثر عليه فى كتب الادب والتراجم عن تاريخ ابى الطيب أيام صباه . وكتاب الصبح المنبي هو أوفى مارأيت في ترجمة شاعرنا وقد أحلت عليه واخذت عنه فى مواضع كثيرة — ثم يأتى بعد ذلك ذكر نبوته التي ادعاها هو أو ادعاها عليه آخرون

***

وقد ذكر المتنبي فى شعره بعضاً من أهل بيته فاشار الى والدته فى موضعين :

امنسيى السكون وحضر موتا ووالدتى وكندة والسبيعا

وفي التشفع لدى الوالى بقوله

او لأمٍ اذا ذكرتني لها دم قلب فى دمع عين يذوب

نعرف بعض تفاصيل قليلة الأهمية عن حياة المتنبي من شرح بعض ابياته . نعرف مثلاً انه كان له خادم يدعى ابا بكر الشعرانى يروى عنه ابو الفضل العروضى فى بعض مواضع — يقول « العكبرى » صاحب « التبيان » (٣) عندشرح « رواق الدز حولك مُسْتَبَطِرُ » من مرثية امسيف الدولة : قال ابوالفضل العروضى سمعت ابا بكر الشعرانى خادم المتنبي يقول قدم علينا المتنبي وقرأنا عليه شعره فأنكر هذه اللفظة وقال مستطيل

---

(١) الصبح المنبي ص ٦ ج ١

(٢) » » « ٦ — ٧ ج ١

(٣) التبيان » ٢٣ — ٢٤ ج ٢

قال العروضي وانما غيّره « الصاحب » وعابه عليه ـ ويتضح من هذه الحكاية ان الشعراني لم يخدم المتنبي الا بعد ان ألّف الصاحب بن عباد كتاب « المساوى » اي عندما قصد شاعرنا بلاد فارس وكان وقتئذ قد أثرى واستطاع ان يتخذ لنفسه خادماً أديبا ـ او سكرتيراً خاصاً كما يقول اهل هـذا العصر — يدافع عنه او يشرح بعض أفكاره — وجاء في شرح العكبرى (١) ايضا عنـد تفسير « روح تردد فى مثل الخلال » قال الواحدى . . . واقرأنى الشعرانى خادم المتنبى « الخيال » قال ولم اسمع الخلال الا بارى

***

ادعاء النبوة

كثيراً ما علمنا من التاريخ أن أفراداً من النـاس خرجوا لطلب الملك من طريق الدين . ولا أحسب أبا الطيب الا واحداً من هؤلاء . ويرجح هذا الظن عندى مطامع شاعرنا وسعيه المتواصل طول حياته للحصول على مركز كبير يظهر فيه سيادته وسلطانه . فتراه فى شعره يتحرق غضباً ويتميز غيظاً لانه لم يصل الى تحقيق أمنيته المحبوبة .

اما اتخاذه طريق الدين بادعاء النبوة — أن صح أنه ادعى نبوة — فما كان الا لأن ذلك هو السبيل الوحيد لأمثاله الذين لاجاه لهم ولا عصبية ولا مال لجمع الناس حولهم

***

رأى محتمل فى نبوة أبى الطيب

دعانى الى التفكير فى الرأى الذى سأعرضه هنا ما لاحظته فى الحكاية الآتية :
« اشترط المتنبي على سيف الدولة اول اتصاله به أنه اذا أنشده مديحه لاينشده

---

(١) التبيان ص ٤٠١ و ٤٠٢ ج ٢

الا وهو قاعد وأنه لايكاف تهيل الارض بين يديه فنسب الى الجنون »(١)

نسبة الجنون الى ابى الطيب قول قديم لم يؤيده أصحابه بحجة ولم يقيموا عليه دليلا . وأنى لا اتطوع لنصرته وانما أطبق عليه ماالدينا من المعلومات عن أبى الطيب حتى نتبين صحته من فساده

وموضع العجب فى الحكاية المتقدمة — أن كان لها نصيب من الصحة — أن بعض النـاس استغربوا شذوذ ابى الطيب عن مألوف الشعراء وعاداتهـم واستكبروا اباءه وتعاليه على ممـدوحه حتى نسبوا ذلك الى الجنون مع ان أبا الطيب حين ادعى النبوة لم ينسبه احد الى الجنون حتى لكأن خروج ذلك الشاعر عن المتعارف فى آداب شعراء الملوك كان أكبر فى نظر هؤلاء الناس وأعتقادهم من ادعاء النبوة ! فيا للعجب !.

قد يجوز ان يكون ادعاء النبوة نتيجة مرض عصبي أو عيب عقلي عند أبى الطيب اذ من المقرر عند اطباء الامراض العقلية ان الكذب والادعاء والتصنع والتقليد واحوال يسمونها بالتحلى اعراض لعلل عصبية تختلف خطورتها

ولو كانت لدينا تفاصيل حياة أبى الطيب الاولى أو سيرة آبائه أو مشاهدات دقيقة عن معيشته أو مذكرات كتبها بخطه أو صفة حالاته النفسية لاستطعنا أن نستنتج منها جواز صحة هذا الرأى بما يشبه الجزم والتأكيد .

ولعل ادعاء النبوة والحركة التي قام بها ابو الطيب كانت جولة من جولات المصروعين (٢) ولعل أقواله التى يسىء فيها الظن بالناس أجمعين أو بفريق منهم

(١) الصبح المنبي ص ٤٦ — ٤٧ ج ١

(٢) روى لنا أستاذ الامراض العقليه بقسم العلوم الجنائية بالجامعة المصرية عند كلامه على جولات المصابين بالصرع أنه قد ظهر فى أحدى مدن أمريكا الكبيرة متنبيء كان كاتبا فى احد المحال فقام من مركز عمله ذات يوم وخرج الى ميدان من الميادين العامة ودعا الناس حوله ليخطب فيهم . اقول ـ والشيء بالشيء يذكر ـ ان هذه الدعوة ليست مما يستنكر فى بلاد المدنية الحديثة لان

خاصة كانت من قبيل هذيان الاضطهاد المعروف عندمرضى العقول(١) أو من قبيل

حرية الكلام وحرية الاجتماع من أقدس الحقوق فيها .

« فكان ذلك المتنبيء يقول للناس انه يستطيع ان يشفي المرضى بمصافحته اياهم .

« وما زال على هذه الحال عدة ايام حتى كثر عليه طلاب الشفاء وازدحمت بهم الطرقات . فاشار عليه رجال الحفظ ان يجعل اجتماعه في مكان أخر من الخلاء حتى لا تتعطل المواصلات . فاطاع الامر ونقل « عيادته » الى احد اطراف المدينة . ونظرا لكثرة قصاده وازدحامهم عليه كان يعالجهم بالاشارة اليهم .

« وبعد أيام رجع الرجل الى عمله وهو لا يدرى بشيء مما كان من امره وبعد بضع سنين مات بعلته في احد المستشفيات »

(١) يقول علماء الطب العقلي ان هناك نوعا من الاعراض تسمى بهذيان الاضطهاد délire de persécution فيزعم المريض بالعلة التي من اعراضها هذا الهذيان ان الناس يضمرون له الشر ويتآمرون عليه ليوقعوا به السوء والاذى . ففى أول الامر لا يستطيع المريض ان يميز هؤلاء الناس بعضهم من بعض ولا ان يبين نوع الاذى الذى يريدون ان يلحقوه به . فكلما تقدم فى العلة او بعبارة اخرى كلما تقدمت العلة فيه وضح امامه الامر . فبعد الغموض التام و لابهام المطلق يبتدىء عند المريض نوع من الوضوح فيقول أهل بيتي مثلا . او ذوى قرابتي او زملائي في صناعتي او جيراني ثم يصل اخيرا الى تعيين فرد بذاته فيقول ان زيدا هو الذي يدبر المكيدة اوهو الذي ينوى ايقاع الضرر بي . وبعد ان كان هذا الضرر غير معين يتضح شيئا فشيئا فمن اذى مبهم الى نهب مال مثلا الى سرقة ما فى المنزل ثم يعين المريض نوع المسروق فيقول النقود المحفوظة فى الخزانة ولا يتحول بعدئذ عن الاعتقاد بان زيدا هذا يريد سرقة نقوده المودعة فى الخزانة . هذا مثال من الهذيان الذى طالما انتهى امر صاحبه الى ارتكاب الجرائم الكبرى .

وانى لاحظ ان مثل هذا الهذيان كثير الوقوع فى شعر ابي الطيب . ولكنى لا استطيع ان اجزم بأن الشعر يترجم فى جميع الاحوال عما يدور بنفس قائله

لان الشاعر كثيرا ما يظهر غير ما يضمر ويضمر غير ما يظهر لاسباب شتى وانما تكرر هذا النوع من الشكوى والاتهام وذكر حقوق مغصوبة واعداء موهومين وانتظار الايقاع بهم. كل ذلك «ضرب من الهذيان» كما يقول هو في احدى قصائده .

(١) ابو الطيب من المتطيرين مذهباً Pessimiste كما يتضح ذلك من شعره وكآبة الروح والنظر الى كل شيء بسوء الظن وتوقع الشرور من كل شيء قرينة سيئة على صحة العقل كما يقول اهل العلم المختصون بهذه المباحث . واني ادع الكلام لكاتب كبير من كتاب الغرب هو «ماكس نوردو» درس هذا المذهب ووفاه حقه من البيان فلنصغ لحظة صغيرة الى ما يلقيه علينا خصوصا وانه تناول الشعراء في بحثه . قال : (عن مجلة البيان السنة الرابعة — العددين ٢و٣ ٣٠ ابريل سنة ١٩١٥)

« من كان يحسب اهرام مصر وحدائق سيمراميس وحدائق بابل وتمثال رودس من عجائب الدنيا فان ثمت ماهو اعجب واغرب من هذا اعني بذلك مذهب التشاؤم مذهب الساخطين على الكون والانسانية والحياة عامة سخط المهموم الكاسف البال .....

« أقول مثل هذا النوع من التشاؤم لا يقبل المناقشة والرد وانما كل ما ما يستطاع ازاءه هو ان يتناوله الانسان بالتحليل والتشريح للوقوف على أصله وعلته فباجراء ذلك يعلم ان هذا التشاؤم هو احد اعراض مرض العقل في بدايته أو عند بلوغ أقصى شدته . وقد شاهد الاطباء وعلماء النفس ان الجنون كثيرا ما يظهر في ابتداء أمره بحالة الميلانخوليا (الاكتئاب المجهول السبب) فترى المصاب يلازم الحزن والاطراق ويعتزل الناس ويرى كل ما في الكون بعين البغضاء والمقت . والسر في ذلك ان في عضو التفكير (العقل) خاصة مرعبة مخيفة .... فلا غرو ان كانت الدنيا تتراآى لمثل هذا العقل المصاب مثل ما تتراآى للعين الرمدة أعني عالما مملوءا تشوشاً واختلاطاً وظلمة

« التبرم والتشاؤم قد كانوا ولا شك مرضى العقول — فالشاعر

كانت نوبة من جنون العظمة والكبرياء (١) أو لعله كان من أهل العبقرية النابغين وهؤلاء على رأي مذهب طبائع الانسان فى منزلة آخذة بطرفي العقل

(مينو) مات مجنوناً . والشاعر (ليوباردى) كان يشتكى علة فى عضو التناسل قد عرفها الاطباء من امراض العقل . والشاعر (هاين) بدت فى نظمه آيات السخف والخلط لما اخذت علة فقاره تؤثر فى دماغه . والشاعر (بايرون) كان فيه ذلك الشذوذ الذى تسميه العامة نبوغاً ويسميه علماء النفس مرض الذهن »

(١) كنا لا نصدق من يقول بداء الكبر حتي جاءنا العلم الحديث بايضاح أوفى وبيان اشفى وعرفنا أن هناك داء اعضل هو جنون العظمة والكبرياء mégalomanie

اذكر اننا حضرنا درساً علمياً مشفوعاً بالمشاهدات مؤيدا بالامثلة الحية كما يقولون — فى مستشفى الامراض العقلية بالعباسية بمصر تفضل بالقائه مدير ذلك المستشفى على طلبة قسم العلوم الجنائية بالجامعة المصرية بحضور استاذ الامراض العقلية الذى استشهدت بروايته قبل . فاحضر امامنا صنوفاً مختلفة من المرضى كان بينهم واحد لا يرى على ظاهره اثر للضعف العقلى يفهم ما يقال له ويناقش فيه ولا يجهل شيئاً مما يدور حوله بحسب ما تطيقه مدارك مثله من أهل الريف وعمال الحقول . ولكن اذا جاء ذكر الملك بدا موضع الضعف منه فيستعطف مدير ذلك المستشفى ويبسط له رجاءه كيما يفرج عنه ليذهب الى بلده ويتولى شؤون المملكة لانه هو الخليفة ويخطب له على المنابر ! هذا مثال حى كما يقولون رأيناه وسمعناه وسألنا الله له ولاخوانه العافية .

أما كبرياء أبي الطيب وعظمته وغروره فما اجمع عليه اهل الادب كافة فنهم من استشهد بالحوادث التى وقعت له ومنهم من استند على اشعاره وهى تفيض ادعاء اكثر مما يزعم ذلك المريض الذى رويت قصته .

وانى لارجو ان لا تكون اقوال أبى الطيب وادعاؤه النبوة صورة حقيقية لما فى نفسه وانني لو انها تكون خطرات شاعر يحلم وهو مستيقظ ويغيب عن الناس وهو معهم بتأثير الفن وحكم الصناعة . وذلك حتى لا يخرج شاعر كبير من شعرائنا من دائرة العقلاء الحكماء الى مصاف المجانين والمعتوهين .

والجنون (١)

لا أراني فى هذا الكلام الا قد اتبعت خطة المحامين في أيامنا هذه يجعلون أول دفاعهم عن المتهم ادعاء المرض العقلى وطلب البحث عن الحالة الصحية حتى يبرؤوا عملاءهم فاذا لم يوفقوا الي النجاح فى دعواهم عادوا الى الخوض فى موضوع الاتهام. وانى أعود كذلك الى الكلام عن ادعاء النبوة لانى أرى كما قدمت ان الملاحظات التى لدينا لا تكفي للبت فى تلك الفكرة سلباً ولا ايجابا الا أنها مع ذلك تثير فى النفس شيئاً من الشك والارتياب

***

الرأى المرجح فى نبوة ابي طالب

الا أن المرجح أن ابا الطيب سعى وراء الملك أو بعبارة أصح وراء الظهور من طريق ما أدعاه كما فعل غيره من أصحاب المطامع وتاريخ الدولة العباسية على الأخص حافل بأمثاله .

صورة العصر العباسى

والظاهر أن الذى ساعد ابا الطيب وأمثاله على الخروج وأغراهم به وأطمعهم فى سهولة تحقيق امانيهم انما كان ضعف الدولة وكثرة الخارجين عليها من أبنائها

اما الاستشهاد على تكبر ابي الطيب وتعاظمه فانى ارجئه الى باب اخلاقه وصفاته .

(٢) النبوغ . العبقرية génie على رأى أصحاب المذهب انما هو منطقة ضيقة جداً بين العقل والجنون وهو اشبه شيء بوصف الجمهور للصراط حتى ان النابغة فى تعبير أهل هذا الرأي يكون كابرة الميزان الدقيق يميلها أقل ثقل الى اليمين تارة والى الشمال تارة أخرى لا تستقر على حال أو كرقاص الساعة لا يدرى اين مكانه الحقيق .

وضياع مهابة الخلافة وسقوط مكانة الخليفة من القلوب (١) وتسرب الشكوك الى عقيدة

---

(١) ما أصدق الخليفة المعتمد حين يقول

اليس من العجائب أن مثلى * يرى ما هان ممتنعا لديه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا * وما من ذاك شيء فى يديه .

وأصدق منه قول المطيع حين قال «ليس لى غير الخطبة » كان ذلك شأن الخلفاء العباسيين بعد ان تداخل الاعاجم من فرس وترك وديلم وتتار وغيرهم فى كافة الشؤون من قيادة الجند وتولى المناصب العالية والوزارة والامارة الى حقر الاعمال فى البيوت . ولقد احتمى بهم الخلفاء امام منازعيهم من العرب ولو كان على بن الجهم الشاعر بعيد النظر فى العواقب لما قال

ورافضة تقول بشعب رضوى * امام ! خاب ذاك من امام!
امام من له عشرون الفا * من الأتراك مشرعة السهام

فقد دافع هؤلاء عن الخلفاء اولاً ثم دفعوهم اخراً عن كل عمل له مساس بادارة الملك وجعلوهم اشبه شيء بالاعلام والرايات والشارات التى يدافع عنها ولا تدفع عن نفسها وقد أجاد ابو الطيب فى قول يصح ان يستشهد به فى هذا المكان

ومن يجعل الضرغام فى الصيد بازه * تصيّده الضرغام فيما تصيّدا

وبالجملة فقد انتهى الامر بالخلفاء ان صاروا ” نقباء اشراف “ على حسب اصطلاح أهل هذا العصر .

قبل ان ينطوى القرن الثالث للهجرة (وابو الطيب قد ولد فى السنة الثالثة من القرن الرابع) مات الخليفة المكتفى سنة ٢٩٥ بعد ان عهد بالخلافة الى ابن اخيه المعتضد ولقبه بالمقتدر بالله ولم يكن يبلغ من العمر الا ثلاث عشرة سنة فكانت حداثة سنة داعية الى تداخل النساء والخدم فى أمور الدولة مما لم يسبق له مثيل فى الاسلام . فاجتمع القواد والقضاة مع الوزير العباس بن الحسن للمفاوضة فى خلع المقتدر ومبايعة عبد الله بن المعتز . فلم يوافقهم الوزير على ذلك لأن صغر المقتدر كان اصلح له وانفع . والقيم الطامع يمنى انلا يبلغ

- الجمهور بانتشار المبادىء الغريبة عن روح الاسلام والسلالة السامية — وقد

الصغير رشده ابداً . وانتهى الامر بقتل الوزير وخلع المقتدر سنة ٢٩٦ ومبايعة ابن المعتز الشاعر المشهور «« وانما أدركته حرفة الادب »» كما قال على ابن بسام فى رثائه . فقد خذله أنصاره الذين دعوه الى الملك رغم ارادته — أوعلى الاقل بدون سعى منه — وقتله حزب المقتدر بعد ان تولى الخلافة يوما وليلة ورجعت الخلافة بعدئذ الى المقتدر .

وفى سنة ٣١٧ ثار الناس والجند بسبب استنزاف الوزراء لاموال المملكة وهيمنة النساء والخدم على شؤون الملك وطلبوا أن يكون لهم حق الاشتراك فى تدبير المصالح العامة . ولا ادرى هل كان فى استطاعة الدولة الاسلامية اذ ذاك أن تستفيد من هذا الدرس الكبير فتضع شيئا من النظامات النيابية وتشرك الامة نوعا ما مع الحكومة فى تدبير المسائل الحيوية . ولكن المقتدر لم يحفل بهذا النداء فكانت النتيجة أن نقله الثوار الى دار مؤنس الخادم وبايعوا محمداً بن المعتضد ولقبوه بالقاهر بالله . فلما لم يجبهم الخليفة الجديد الى مطالبهم هجموا على دار الخلافة وقتلوا خلقا كثيرين واختفى الخليفة فى البستان ثم سار الثوار الى المقتدر وحملوه على اعناقهم وبايعوه ثانية . وكانت خلافة القاهر يومين ولم يقتله المقتدر بل حبسه عند والدته .

ثم وقع النفور بين المقتدر ومؤنس وانتهى الامر بهذا الاخير ان زحف على بغداد وقاتل المقتدر . ودارت الدائرة على الخليفة اذ قتله جماعة من المغاربة ودفنوه فى موضعه سنة ٣٢٠ . ولما حمل رأسه الى مؤنس الخادم بكى ولطم وجهه وحمى دار الخلافة من النهب . ورأى مؤنس ان يولى ابن المقتدر لانه كان اذ ذاك صبيا فلم يحسن الامر فى عين اسحق النوبختي وقال « لا نرضى الا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا » فاقتنع مؤنس بذلك وبويع القاهر بالخلافة مرة ثانية .

وانتقم القاهر شر انتقام من حاشية المقتدر وحزبه واصحابه وصادر اموالهم وبحث عن اولاد المقتدر واستحضر أمه وحاسبها على النفائس والجواهر وامر ببيع املاك الخليفة السابق وحل ما كان موقوفا منها .

ووقع بين القاهر ورجاله من الوحشة والخلاف مثل ما وقع بين المقتدر ومؤنس ولكن رجال القاهر كانوا اكثر عددا فكانت عصبتهم مؤلفة من اربعة : مؤنس الخادم وبليق الحاجب وعلى بن بليق وابن مقلة الوزير مجوّد الخط المشهور . فاوجسوا منه شرا واقاموا بدار الخلافة ابن زيرك لملاحظة كل داخل وخارج وشددوا المراقبة حتى فتشوا النساء . ويحكى انه حمل الى القاهر لبن فادخل ابن زيرك يده فيه مخافة ان تكون فيه رسالة .

لجأ القاهر الى الخداع والدهاء وتمكن بمعونة «الساجية» وهم فرقة من الجيش من مقاومة خصومه الذين كانوا عقدوا النية على عزله . ولكنه استطاع بفضل تيقظه وبث عيونه ان يتدرك الامر قبل استفحاله فقبض على بليق وابنه ومؤنس فأمر بذبح ابن بليق فذبح ووضع رأسه فى طست ثم مشى القاهر والطست محمول أمامه حتى دخل على بليق فوضع الطست بين يديه وفيه راس ابنه فلما رآه بكى ثم أمر الخليفة بذبح بليق فذبح ووضع رأسه فى الطست وحمل أمام القاهر ومشى حتى دخل على مؤنس فأمر بوضع الرأسين امامه فلما رآهما تشهّد ثم أمر الخليفة بذبحه فذبح وامر بالرؤوس فطيف بها فى جانبي بغداد ونودى عليها ”هذا جزاء من يخون الامام ويسعي فى فساد دولته“ اما ابن مقلة فانه اختفى ليعمل على خلع الخليفة فتوصل الى غايته باغراء بعض الجند الذين هاجموا دار الخلافة وقبضوا على الخليفة وسملوا عينيه (فقؤوهما بحديدة محماة فى النار) ويروى أن القاهر كان يمد يده للسؤال في أخر ايامه بعد أن تولى الخلافة سنة واحدة وسبعة اشهر . وفى ايام القاهر هذا ابتدأ

فى بادىء الامر الا التسلح بسلاح غير المسلمين فى الجدل والمناظرة حتى يكون الحجاج بين الخصمين على منهاج واحد (١) — واطلاق انواع من الحرية لم تكن تعهدها الامة من قبل

سلطان بنى بويه الثلاثة وهم على المشهور ابناء رجل من الديلم يعرف بأبى شجاع بويه .

وبعد خلع القاهر اخرج ابن المقتدر من محبسه بويع بالخلافة سنة ٣٢٢ ولقب بالراضى بالله فاستوزر ابن مقلة . وكان اكثر الولاة قد امتنعوا عن ارسال المال الى مقر الخلافة لضعف هيبتها فى نظرهم . وعجز الوزراء عن تدبير الأمور بدون اموال فاضطر الخليفة الى تولية ابن رائق الوزارة وامارة الجيش على شريطة ان يقوم بالنفقات . فكأن ابن رائق قد اخذ المملكة « مقاولة » كما نقول اليوم . وكان ابن رائق هذا والياً على واسط من قبل وكان يسعى للوزارة سعياً مستمراً . ولقبه الخليفة بامير الامراء وفوض اليه امر الخراج فى جميع البلاد وامر بان يخطب له على المنابر .

ولما تولى ابن رائق امارة الامراء استبد بالخليفة وضيق عليه وترجح عند ابن رائق ان ابن مقلة يكاتب الخليفة يغريه بخلع امير الامراء فقطع ابن رائق يد ابن مقلة فلما برئت عاد الى المكاتبة وكان يشد القلم على يده المبتورة فقطع ابن رائق لسانه وحبسه فى محبس ضيق الى ان مات سنة ٣٢٨ .

(راجع أيضا ما قيل عن القهرمانة فى كتب التاريخ)

(١) أن نقل العلوم الأجنبية من يونانية وفارسية وهندية وغيرها الى اللسان العربى قد شغل الامة الاسلامية وأثر فى طريقة تفكيرها حتى كاد يقطع الصلة بينها وبين طريقتها الاصلية المتبعة فى علم القرآن والحديث واللغة وغير ذلك من العلوم العربية الاسلامية بابها منهاجه وعلى تقادم الايام صارت طريقة البحث فى هذه العلوم الاصلية هى نفس طريقة البحث فى العلوم الجديدة الدخيلة فى الاسلام حتى ان أثبات وجود الله وصفات رسله وغير ذلك من مباحث التوحيد وهى المسائل الاسلامية البحتة صارت لاتدرس ولا يفصل فيها الا على مقتضى مناهج ارسطو واساليبه . ولقد صدق الحطيئة فى قوله « لكل جديد لذة . . . » كما صدق شاعرنا ابو الطيب فى قوله « .... وفى

وانشقاق العناصر المختلفة وتخاصم العرب والفرس — كل هذه الظروف ساعدت بعض

الاذة الحنف » فقد تسابق الناس الى اقتناء ما نقل من الكتب الاجنبية وانكبوا على دراستها والتفكير فيها والتعليق عليها . وكانت نتيجة ذلك ان انتشرت التعاليم الوثنية التي هجمت على ملك الاسلام من جميع جهاته . ولم يكن نقلها وحده الى اللسان العربي هو الذي ساعد على انتشارها ورواجها ولكن انتقال أهلها الى الاسلام هو الذي غرس أصولها في الوسط الاسلامي فاينعت واثمرت : اذ ذاك عرف الاسلام فرقا شتى ومذاهب مختلفة عضدها أنصار أقوياء من أهل العلم والجاه وفاضت فيها المناقشات في حلقات الدروس واندية الامراء ولا أظن الا انها تنزلت الى العامة والسوقة فعرف الناس الحلول والثنوية واسرار الباطنية وتأثير الافلاك وفعل النفس الكلية وتمدد المدبرين للكون الى غير ذلك من المبادىء الخطيرة . ولا ينبغي في هذا المقام ان اغفل مسألة خلق القرآن التي كان لها اسوأ وقع في قلوب المسلمين لما أصاب أئمتهم من جرائها من الاذى والامتهان . وأني مع اعترافي بقصوري وعجزي عن مجاراة اصحاب الكلام لا أرى في المسألة اكثر من ان احد المسلمين اراد ان يفهم القدم والحدوث حسب أقوال اليونان ويستدل على رأيه بمثال في الاسلام فلم يجد غير القرآن . ولو كان هذا الكتاب الكريم جاء الى المسلمين من بلاد الروم محررا على أسلوب تلك الامة وعلى مقدار درجة أفهامها وعلى حسب مناهجها في التفكير لما وقعت تلك المشكلات التي كان من الواجب أن تنتهي في حلقات الدروس ولا تتعداها الى المحاكمات وتطبيق العقوبات

ولا احسب قول ابن تيمية الحنبلي في عبارته المشهورة الا صدى يردد ما كانت تقوله الامة الاسلامية في وقته « ما اظن ان الله تعالى يغفل عن المأمون العباسي ولا بد أنه يعاقبه على ما ادخل على هذه الامة »، وامثال هذه الشكاوى كثيرة في تاريخ الحكمة والحكماء ولا محل للاشارة اليها باكثر مما تقدم

وموضع العجب عندي ان المسلمين روجوا كل الوثنيات الاجنبية بين هندية وفارسية ويونانية وغيرها وذلك بنقل كتبها ودرس مذاهبها . فما كان اولاهم — ان كان ولا بد من ترويج الوثنيات — ان يروجوا الوثنية العربية الجاهلية التي

الخارجين على الدولة الكبرى فانقسم ذلك الملك الشاسع الى دول صغيرة تحوطها دائرة الاسلام وتربطها رابطة التوحيد دون غيرها (١)

دفنوها ولم يبقوا منها باقية ولم يحفظوا من آثارها ما يجوز ان يستعينوا به على فهم بعض المسائل التاريخية أو اللغوية او ما شاء كل ذلك

وبالجملة فقد انتهى امر المسلمين فى العبادات بترك المأمور به وارتكاب المنهى عنه كما آل امرهم فى العقيدة الى الزيغ والاضطراب والتردد بين كل هذه الافكار المختلفة المتراكبة المتناقضة المتنافرة

(١) بقيت الممالك الاسلامية ، بفضل الطبائع البشرية والغرائز الفطرية ، تتنازع الملك وتتزاحم على السلطان حيناً يأخذ منها النهم مأخذه فيبتلع بعضها البعض ويستولى ذو البأس على الضعفاء بفضل حوله وقوته وحينا تقعد التخمة بذي الجشع بعد ان يمتلىء بطنه الكبير فتأخذه سنة أو نوم لا يفيق منها الا والساهر الحذر قد ارتفع مكانه وتدعمت اركانه . وبهذه المثابة اصبح الاسلام وهو مبدأ التوحيد مظهر الكثرة والتعدد بمالكه المختلفة التى تزداد يوماً فيوماً بين خلافة ودولة وامارة وخانية وغير ذلك من الالقاب وما اصدق الشاعر حين يقول :

وتفرقوا شيعاً فكل محلة   فيها امير المؤمنين ومنبر

وصل الحال بطلاب الملك الى اتخاذ اوهى الاسباب لادعاء الاحقية فى الخلافة وكان ماكان من امر الجمعيات السرية الداعية الى مبايعة بقايا اهل البيت لارجاع السيطرة والسلطان الى ابناء الفرس . فقد قام العجم بنصرة أفراد من بيت النبوة وأسسوا بواسطتهم ممالك ودولا وكان ظاهر دعواهم رد الخلافة لاصحابها الشرعيين وباطنها احياء مجد الفرس واسترداد ملكهم الذى استولى عليه الاسلام . والدولة العباسية نفسها اكبر دليل على ما اقول فانها نهضة فارسية بدعوى اسلامية . وفى هذا المثال أيضا كان الدين طريقا لطلب الملك

واذا استعرضنا الممالك التى عرفها الاسلام واستطالت بظله الى أيام ابى الطيب رأينا اسماء عجيبة من أمثال دولة الادارسة العلويه فى الغرب ودولة الاغالبة

والتاريخ كفيل باثبات ما تقدم لمن شاء اقامة الحجة فنيه تستعرض دول وأمارات تقوم وتسقط وخلفاء تتولى بالأمس ثم تسقط فى الغد ووزراء يسيرون الخلفاء حسب اهوائهم وخدم يتداخلون فى شؤون الملك ونساء تتحكم فى مقدور الأمة ومصيرها الى غير ذلك من دواعي التفريق والاضمحلال

فلا عجب ان ظهر فى مثل هذه الظروف متنبؤن ومتألهون يطالبون الملك من وراء هذه المظاهر كبابك الخرمي والمقنع الخراساني وصاحب الزنج والقرامطة وغيرهم ( )

فى تلك البلاد أيضا والدولة العلوية فى طبرستان والدولة الصفارية فى هرات وغيرها والدولة الطولونيه فى مصر والشام والدولة السامانيه فى خراسان ودولة بنى حمدان فى الموصل وحلب والدولة الاخشيدية بمصر والشام والحجاز وملك بنى بويه فى بغداد . هذا عدا الامارات الصغيرة التى لم يطل عهدها ، وكذا الدولة الاموية فى الاندلس التي انقسمت الى امارات صغيرة وادى بها هذا الانقسام الى الاندثار شيئا فشيئا حتى سقطت بأكملها فى أيدى المسيحيين

(١) ان اصحاب البدع من المتنبئين والمتألهين لم ينقطع ظهورهم من حين انتقال المصطفى صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى حتى ايامنا هذه فكان فى مقدمتهم مسيلمة الكذاب وسجاح ولكنهما لم يفلحا فى الدعوة لقرب عهد المسلمين بنبيهم وثبات ايمانهم وقوة يقينهم ولتشديد الخلفاء على الرعية فى أمر الدين والعبادات وعدم انتشار الجدل والمباحثات فلما كثر دخول الامم المختلفة بين نصارى ويهود ومجوس وصابئة فى الملة الاسلامية مزجوا معتقداتهم بالدين الحنيف واخذت قوة الايمان تتزعزع فى قلوب الناس خصوصا وقد بعد عهدهم عن الرسول الامين واصحابه والتابعين واستحال الدين من عقيدة وايمان الى علم وصناعة .

ولما ازداد الفساد فى بغداد بانتشار المدنية والحضارة قام رجال من اولى النخوة الدينية سنة ٢٠١ هـ والفوا طائفة اطلقت على نفسها اسم « المتطوعة » للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الا أن الأدب قد أحاط بكثير من هذه الحوادث لما حواه من الأقوال

وقام بمثل هذا العمل جماعة الحنابلة سنة ٢٢٣ ﻫ لما راو شيوع المنكرات وظهور الفساد في الارض بما كسبت أيدى الناس فانهم كانوا يهاجمون بيوت الرؤساء والعامة فاذا وجدوا مسكراً اراقوه أو مغنية ضربوها وكسروا أدوات الطرب الى غير ذلك .

وفى ذكر هذين المثالين اوضح دليل على ماوصل اليه الناس من ضعف الدين . من اجل ذلك سهل على اصحاب البدع اكتساب الاعوان والانصار والسير فى الدعوة بطرق منتظمة . وانى مورد حديث بعض هؤلاء بكل ايجاز على سبيل التمثيل :

المقنع — ظهر فى خراسان فى خلافه المهدى العباسى حوالى سنة ١٦٠ رجل من أهل مرو اسمه «حكيم» ادعي الألوهية وكان يضع على وجهه قناعا ذهبيا شبيها بما يلبسه الافرنج فى اعياد المرافع «الكارنافال» ولذا سمى المقنع ولعله كان يضع ذلك القناع على وجهه ليخفى عينه العوراء . وكانت عاقبة أمره ان تناول السم هو واهله عندما حاصرهم جيش الخليفة والقى بنفسه هو واصحابه فى النار ليعرجوا منها الى السماء .

بابك — وفى خلافة المأمون سنة ٢٠١ ظهر بابك الخرّمي المجوسى واستولى على طبرستان واستفحل امره الى ايام المعتصم . وقد قبض عليه بطريرك الارمن وهو هارب باهله الى بلاد الروم . فاستحضر الخليفة سياف بابك نفسه وامره بقتل مولاه ثم ارسل رأسه الى خراسان وصلب جسمه فى سامرا وكان ذلك سنه ٢٢٣ .

صاحب الزنج — وفى خلافة المهتدى سنة ٢٥٥ ظهر صاحب الزنج بالبصرة والتف حوله الزنوج لأن مقرهم كان فى تلك البقعة وادعى علم الغيب وشايعه خلق كثير ولم تسترح البلاد من اعماله الا فى ايام المعتمد سنة ٢٧١ حيث انتصر عليه اخو الخليفة وقتله وأرسل رأسه الى بغداد

القرامطة — وفى خلافة المعتمد سنة ٢٧٨ ظهر امر القرامطة فى سواد الكوفة وهم من الباطنية الحلولية ورأسهم حمدان قرميته فعاثوا فى الارض

المحفوظة نظما ونثراً فهو من هذه الناحية يفتات علي التاريخ أو علي الأقل يزاحمه

فسادا وظهرت لهم اعمال منكرة فى ايام المعتمد سنى ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٩ .

ابو الفوارس — وفى هذه السنة الاخيرة قبض علي أحد زعمائهم المسمى اباالفوارس الذي جرت بينه وبين المعتمد محاورة مشهورة فى احقية الخلافة للعباسيين. وانى ذاكر طرفا منها على سبيل الاستطراد . قال ابو الفوارس مخاطبا الخليفة : ان النبي صلى الله عليه وسلم مات وابوكم العباس حى فهل طلب الخلافة ؟ ام هل بايعه احد من الصحابة على ذلك ؟ ثم مات ابو بكر واستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص اليه . ثم مات عمر وقدجعلها شورى فى ستة أنفس ولم يوص الى العباس ولم يدخله فيهم فبماذا تستحقون الخلافه وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها ؟ فامربه الخليفة فقتل شر قتله .

صاحب الشامة — وفى ايام المكتفى سنه ٢٩٠ ثار القرامطة فى دمشق فقتل الجند زعيمهم المعروف بالشيخ فرأس القرامطة اخاه الذى سمى نفسه «احمد» واظهر شامة فى وجهه وادعى انها آية وتسمى بالمهدى امير المؤمنين

المدثر — وجعل صاحب الشامة ولاية عهده الى عمه عبد الله ولقبه بالمدثر مدعيا انه هو المشار اليه فى القرآن الكريم . ثم دارت الدائرة على القرامطة وانتهى الأمر بقطع رأس صاحب الشامة وطيف بها فى اسواق بغداد .

ذكرويه — وفى سنة ٢٩٤ هجم القرامطة على الحجاج فى طريق العراق فقتلوا زهاء عشرين الفا ونهبوا اموالا كثيرة فقاتلهم الخليفة المكتفى واسر زعيمهم ذكرويه جريحا فمات بعد ايام وارسل الخليفة رأسه الى بغداد حيث طيف بها فى الاسواق .

الحجر الاسود — وزادت فتنة القرامطة فى خلافه المقتدر سنة ٣١٢ وسنة ٣١٧ فامتنع عدد عظيم من المسلمين عن اداء فريضة الحج سنوات متواليات وارتكب القرامطة من الفظائع ماتقشعر من هوله الابدان فقتلوا الحجاج فى بيت الله الحرام يوم التروية ورموا القتلى فى بئر زمزم واقتلع ابو طاهر زعيم القرامطة الحجر الاسود ونقله الي هجر حيث بقي نيفا وعشرين

فى مجاله ففيه أشعار الخلفاء الذين ذاقوا غضاضة الأسر فى قصورهم وليس لهم الا أسماء تذكر على المنابر. وخير من ذلك أو شر منه ان شئت تعريض الشعراء ببعض الخلفاء ومصداقه أشعار دعبل الخزاعى « شتام الخلفاء » فى ابراهيم بن المهدى(١)

سنة ولم يرجع الى مكانه الا فى خلافة المطيع سنة ٣٣٩ وقال القرامطة يومئذ « انا قد اخذناه بأمر ورددناه بأمر » . وكانوا اقتسموا كسوة الكعبة فيما بينهم . هذا مختصر ما كان من امر اصحاب البدع ذكرته على حد قول ابي الطيب « اعدّ منها ولا اعددها »

(١) ان اشتغال الخليفة بالشعر والموسيقى قد أغرى به الشعراء حتى ظنوه من نظرائهم وتلاشت من امام اعينهم صورة الخلافة وهيبة الحكم والسلطان « بويع ابراهيم بن المهدي ببغداد وقد قل المال عنده وقد لجأ اليه الاعراب من السواد وغيرهم من الأوغاد فاحتبس عليهم العطاء فسوّفهم ابراهيم وهم لا يرون تسويفهم حقيقة حتى خرج رسوله اليهم يوما وقد اجتمعوا وضجوا فصرح لهم بأنه لا مال عنده . فقال غوغاء بغداد اخرجوا الينا خليفتنا ليغنى لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات فيكون عطاءهم ولأهل ذلك الجانب مثلها فانشد دعبل :

يا معشر الأجناد لا تقنطوا   وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينية   يلتذها الامرد والاشمط
والمعبديات لقوادكم   لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قواده   خليفة مصحفه البربط

(حنينية : نغمة، أنشودة — المعبديات : أصوات معبد المغنى — البربط : العود)

ويقول دعبل ايضا فى ابراهيم بن المهدى

نعر « ابن شكلة » بالعراق واهله   فهفا اليه كل اطلس مائق
ان كان ابراهيم مضطلعا بها   فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل   ولتصلحن من بعده للمارق
أنى يكون وليس ذاك بكائن   يرث الخلافة فاسقاً عن فاسق

(شكلة : اسم أمه — مخارق وزلزل والمارق : مغنون) — نقلاً عن « مواسم الأدب » و « ابن خاكان »

والمأمون(١) وفى الأدب أيضاً نرى شكوى الوزراء من الخلفاء كقول ابن مقلة (٢) وشكوى الادباء من الوزراء كالصولى من ابن الزيات واقوال اخرى فيمن تجاوزوا حدودهم (٣)

---

(١) أيسومنى المأمون خطة جاهلٍ ؟ أو ماراى بالامس رأس (محمد) ؟
انى من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الاوهد
(محمد الامين أخو المأمون)

(٢) قال ابن مقلة بعد ان قطعت يمناه "يد خدمت بها الخلفاء وكتبت بها القرآن الكريم دفعتين تقطع كما تقطع أيدى اللصوص"، وقال :

ماسئمت الحياة لكن توثقـ ـت بأيمانهم فبانت يمينى
بعت دينى لهم بدنياي حتي حرمونى دنياهمو بعد دينى
ولقد حطت ما استطعت بجهدى حفظ أرواحهم فما حفظونى
ليس بعد اليمين لذة عيش ياحياتى بانت يمينى فبينى

(٣) محمد بن عبدالملك الزيات توزر للمعتصم والواثق واخترع آلة للتعذيب (هى تنور من حديد داخله مسامير مثبتة يوضع فيها المذنبون) وعندما كان يسمع استغاثة المعذبين يستمطرون رحمته كان يجيبهم بقوله "الرحمة خور فى الطبيعة"، فلما تولى المتوكل الخلافة وكان بينه وبين ابن الزيات شيء فى الصدور نكب ابن الزيات وصادر أمواله وأمر بتعذيبه فى تلك الآلة المشؤومة وقيل له وهو يستغيث "الرحمة خور فى الطبيعة". وابن الزيات هذا هو الذي يقول فيه ابراهيم بن العباس الصولى الكاتب المشهور وكان ابن الزيات قد تغير عليه لما وزر

وكنت أخى باخاء الزمان فلما نبا صرت حربا عوانا
وكنت اذم اليك الزمان فاصبحت فيك اذم الزمانا
وكنت اعدك للنائبات فها أنا اطلب منك الأمانا

مثال آخر — وزير المقتدر ابو على محمد بن يحيي بن خاقان الذي تحكم فيه أولاده وسيروه كما شاءت اهواؤهم وكانت الرشوة هى الشفيع المشفع لديه فى التولية والعزل وما اصدق قول الشاعر فيه

وكذلك نرى فيه صورة الحرب الشعواء بين طلاب الخلافة وفى شعر ابى فراس الحمدانى ماءثل الشتائم التى كانت تهدى الى الخلفاء جهارا نهارا (١).

وزير قد تكامل فى الرقاعه يولى ثم يعزل بعد ساعه
اذا أهل الرشى اجتمعوا عليه فخير القوم اوفرهم بضاعه

وبهذه المثابه افتات الوزراء على حقوق الخلفاء الذين تركوا حبل الامور على غاربها واستسلموا الى اهواء أنفسهم اما اتكالا على وزرائهم وكان ذلك فى أول الامر واما خوفا منهم وكان ذلك و « الامر مدبر » ولو تسامحنا قليلا مع بشار بن برد لرأينا له بعض الحق فى قوله فى الخليفة المهدى ووزيره يعقوب بن داوود

بنى امية هبوا طال نومكمو ان الخليفة يعقوب بن داوود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وهذا ينطبق على الحالة الاولى حينما كانت الامور تجرى تحت اشراف الخلفاء أما الحالة الثانيه التى تخضع فيها الخلفاء مرغمين فمصداقها قول الشاعر

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

وقيل هذا الشعر فى الخليفة المنتصر بن المتوكل الذى كان قد عقد ولاية العهد من بعده لاخويه المعتز والمؤيد ولكن وصيفا وبغا القائدين المشهورين اللذين كانت لهما الزعامة والسيادة طلبا الى الخليفة خلعهما وتولية ابنه فامتنع فى أول الامر ولكنه اذعن لارادة قائديه على كره منه أوبالاحرى خوفا منهما فدعا اليه أخويه وقال لهما « أترياني خلعتكما طمعا فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له . والله ما طمعت بذلك ساعة قط ولكن هؤلاء (واشار الى مواليه) الحوا على فى خلعكما »

(١) ابو فراس يرد على قصيدة لابن سكرة الهاشمى . وكلاهما من معاصرى المتنبى . أنتصاراً لبنى علىّ على بنى العباس

ياللرجال اما لله منتصر من الطغاة ولا للدين منتقم
بنو علىّ رعايا فى ديارهم والأمر تملكه النسوان والخدم

فني الادب والتاريخ مما نري صورة العصر الذي ظهر فيه أبوالطيب وليس بمستغرب أن تكون مطامع شاعرنا حيال هذه الصورة قدطوعت له الخروج فظن أن النبوة أقل مؤونة وأن تأثيرها أفعل في النفوس فكان من أمره ما كان

***

نبوة ابي الطيب في كتب الأدب

ورد في كتب الأدب والتراجم عن نبوة ابي الطيب كلام مضطرب مشتت لا يستطيع المطلع عليه ان يخرج منه برأى قطعي . فقد جاء في ابن خلكان ما نصه « وانما قيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة (١) وتبعه خلق كثير من

لا يطغين بنى العباس ملكهم	بنو علي موالبهم وان زعموا
اتفخرون عليهم لا ابالكم	حتى كأن رسول الله جدكم
كم غدرة لكم فى الدين واضحة	وكم دم لرسول الله عندكم
مأنتم آله فيما ترون وفى	اظفاركم من بنيه الطاهرين دم؟
أى المفاخر أضحى فى منابركم	وغيركم آمر فيهن محتكم؟
وهل يفيدكم من مفخر علم	وفى الخلاف عليكم يخفق العلم؟
خلوا الفخار لعلامين ان سئلوا	عند السؤال وعمالين ان علموا
لا يغضبون لغير الله ان غضبوا	ولا يضيعون فى حكم اذا حكموا
تبدو التلاوة من ابياتهم أبداً	ومن بيوتكم الاوتار والنغم
اذا تلوا آية غني امامكم	« قف بالديار التي لم يعفها قدم »
منهم « علية » أم منكم؟ وهل لهم	شيخ المغنين « ابراهيم » أم لكم؟
مافى بيوتهم للخمر معتصر	ولا بيوتهم للشر معتصم

(١) السماوة — « . . انما سميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر بها — والسماوة ماءة بالبادية وكانت ام النعمان سميت بها فكان اسمها ماء فسمتها العرب ماء السماء ـ وبادية السماوة بين الشام والكوفة ـ وقال السكرى السماوة ماءة لكلب » (نقلا عن معجم البلدان لياقوت)

والمشهور فى كتب المتقدمين عن نبوة ابي الطيب أنها كانت فى بادية

بني كلب (١) وغيرهم فخرج اليه لؤلؤ امير حمص نائب الاخشيدية فاسره وتفرق اصحابه وحبسه طويلا ثم استتابه واطلقه وقيل غير ذلك وهذا اصح » (٢)

وجاء في مقدمة ديوان ابي الطيب المطبوع بمصر سنة ١٨٩٨ ميلاديه « وانما لقب بالمتنبي لانه أدعى النبوة في بادية السماوه وهي ارض بجبال الكوفة مما يلي الشام » وجاء في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية تأليف جورجي زيدان . . . . فطلب السيادة بالفتح فدعا الى بيعته قوما من مريديه من ابناء سنه فبايعوه (اين ومتي ؟) وحين كاد يتم امر دعوته وصل خبره الى والي البلدة (اى بلدة ؟)

السماوية ولكن الاستاذ هوار (Huart) الفرنسي مؤلف آداب اللغة العربية بالفرنسية يقول عن المتنبي « . . . واسس ديناً جديداً في السهول المجاورة لمدينة « سماوة » الصغيرة الواقعة على شاطئ الفرات »

ويقول العكبرى في شرحه « والسماوة فلاة بين الشام والعراق »

وجاء ذكر السماوة في شعر المتنبي عند قوله

تركنا وراء العيس نجدا ونكبنا السماوة والعراقا

وقال المتنبي ايضا في قصيدة يذكر فيها فتنة قام بها الاعراب ويشير الى الحرب التى جرت ويمدح سيف الدولة

فذكرهم بالماء ساعة غبرت سماوة « كلب » في انوف الحزائق

(١) « بنو كلب » بطن من بجيلة من انمار بن اراش منهم الازد منهم الحجاج بن ذى العنق كان شريفا في قومه وبطن من خثعم من انمار بن اراش وبطن من قضاعة كان له من الولد ثور وكلدة وابو حباحب قال ابن سعيد وبقيت كلب الآن في خلق عظيم على خليج قسطنطين منهم نصارى ومسلمون — وبنو كلب بطن من العرب بنواحي منفلوط مختلف فيهم - (نقلا عن كتاب : « مايعول عليه في المضاف والمضاف اليه »)

فالظاهر ان بنى كلب الذين قام فيهم المتنبي بالدعوة هم اصحاب الماءة المسماة بالسماوة كما يقول السكرى ويشير اليها المتنبي بقوله « سماوة كلب »

(٢) مقدمة العكبرى .

فقبض عليه وحبسه . . . . ولما فرغت يده من الفتح طلب ماهو ابعد منه فزعم انه نبي اعتمادا على بلاغة اسلوبه فخرج الى بنى كلب (اين ؟) واقام فيهم وادعى انه علوي ثم ادعى النبوة وقال انه اظهر دعوته هذه اولاً فى بادية سماوة ونواحيها ... فلما شاع امره بين الناس خرج عليه لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيديه . . . (١) »

ويغلب على ظني ان الخلط او الغموض انما تسبب عن عدم معرفة الحوادث التاريخية مرتبطة متسلسلة وبعبارة اخرى معرفة السابق منها والمسبوق هـذا من جهة · ومن جهة اخرى فقد ورد ذكر البادية غامضا او مكررا فتارة يقـال بادية سماوة (السماوة) بالكوفة وتارة بادية بني كلب بالشام · وجاء في الصبح المنبي عن حيثية المتنبي مانصه « قال ابو الحسن محمد يحيي العلوي : كان ابو الطيب وهو صبي ينزل فى جوارى بالكوفة وكان محباً للعلم والادب . فصحب الاعراب فى البادية وجاءنا بعد سنين بدوياقحاً وكان تعلم الكتابة والقراءة . . . . » (٢)

والمشهور فى كل التراجم أن ابا الطيب قدم الشام وهو صبي مع ابيه . والى الشام ينسب لانه تأدب بها وتعلم . ثم خرج الى البادية . فهذه البادية لاتكون بالطبع الا بادية الشام و يظهر ان جورجي زيدان ومن أخذ عنهم أرادوا أن يجمعوا بين الأقوال المختلفة ولكنهم لم يوفقوا لأيضاحها ولعل أبا الطيب قام بحركتين الأولى فى بادية السماوة بالكوفة والاخرى فى بادية بنى كلب بالشام أو لعل الحركتين كانتا فى الشام أو لعله كان يعلن دعوته على طول الطريق بين الكوفة والشام . وهذا ما يفهم من القول المتقدم « ثم ادعى النبوة وقال انه اظهر دعوته هذه أولاً فى بادية سماوة ونواحيها »

وقد اورد صاحب كتاب الصبح المنبي حكايات عن نبوة أبى الطيب يحسن ذكرها فى هذا المقام . (٣) قال أبو عبدالله معاذ بن اسماعيل اللاذقي : قدم أبو

(١) ص ٢٤٥ ج ٢
(٢) ص ٦ ج ١
(٣) ص ٢٥ - ٣٢ ج ١

الطيب المتنبي اللاذقية في سنة ٣٢٠ وهو لاعذار له وله وفرة الى شحمتي أذنيه فأكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته فلما تمكن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناما لمشاهدته واقتباسا من أدبه قلت له والله انك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير . فقال ويحك أتدري ماتقول ؟ أنا نبي مرسل . فظننت أنه يهزل ثم تذكرت اني لم اسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له ما تقول ؟ فقال انا نبي مرسل . فقلت له مرسل الي من ؟ فقال الى هذه الأمة الضالة . قلت تفعل ماذا؟ قال املأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا . قلت بماذا ؟ قال بادرار الارزاق والثواب العاجل والآجل لمن أطاع واتى وضرب الاعناق لمن عصى وأبى . فقلت له ان هذا أمر عظيم أخاف منه عليك ان يظهر وعذلته على ذلك فقال بديها

أبا عبد الاله معاذ اني خفيٌّ عنك في الهيجا مقامي
ذكرت جسيم مطلبي واني أخاطر فيه بالمهج الجسام
أمثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاة الحمام
ولو برز الزمان اليَّ شخصا لخضب شعر مفرقه حسامي
اذا امتلأت عيون الخيل مني فويل في التيقظ والمنام

فقلت ذكرت أنك نبي مرسل الى هذه الأمة افيوحى اليك ؟ قال نعم . قلت فاتل عليَّ شيئاً مما اوحى اليك . فاتاني بكلام ما مر بسمعي أحسن منه فقلت وكم اوحي اليك من هذا ؟ فقال مائة عبرة واربعة عشر عبرة . قلت وكم العبرة ؟ فأتى بمقدار أكبر الآي من القرآن . قلت في كم مرة أوحي اليك ؟ قال جملة واحدة قلت اسمع في هذه العبارات ان لك طاعة في السماء فما هي ؟ قال احبس المدرار لقطع أرزاق العصاة والفجار . قلت اتحبس في السماء مطرها ؟ قال أي والذي فطرها أما هي معجزة ؟ قلت بلى والله . قال فان حبست المطر عن مكان تنظر اليه ولا تشك فيه هل تؤمن بي وتصدقني على ما أتيت به من ربي ؟ قلت أي والله . قال سأفعل ولا تسألني عن شيء بعدها حتى آتيك بهذه المعجزة ولا تظهر شيئاً من هذا الامر حتى يظهر وانتظر ما وعدته من غير أن تسأله . ثم قال لي بعد أيام أتحب أن

تنظر المعجزة التي جري ذكرها ؟ قلت أي والله . فقال لي اذا ارسلت اليك هذا العبد فاركب ولا تتأخر ولايخرج معك أحد . قلت نعم . فلما كان بعد أيام تغيمت السماء في يوم من أيام الشتاء واذا عبده قد اقبل فقال يقول لك سيدى اركب للموعد . فبادرت الى الركوب معه وقلت أين ركب مولاك قال الى الصحراء . وأشتد وقع المطر فقال بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاى فانه ينتظرنا بأعلي تل لا يصيبه فيه المطر . قلت وكيف عمل ؟ قال اقبل الى السماء أول ما بدأ السحاب الاسود وهو يتكلم بمالا افهم ثم أخذ السوط فادرأ به في موضع ستنظر اليه واذا هو على تل بعيد عن البلد نصف فرسخ فأتيت اليه فاذا هو علي تل ولم يصبه من ذلك المطر شيء وقد خضت في الماء الي ركبة الفرس والمطر في أشد ما يكون ونظرت الى نحو مائتي ذراع في نحوها من ذلك التل مافيه قطرة مطر فسلمت عليه فرد عليّ السلام فقلت أبسط يدك اشهد أنك رسول فبسط يده فبايعته بيعة الاقرار بنبوته فقال :

أي محل ارتقى ؟ أى عظيم اتقى ؟
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرق

وأخذت بيعة لاهلي ثم صح بعد ذلك ان البيعة عمت كل مدينة في الشام وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب وهي صدحة المطر يصرفه بها عن أي مكان أحب وقد رأيت كثيراً منهم بالسكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاظمون حتى أن أحدهم يصدح عن غنمه وابله وعن القرية لا يصيبها شيء من المطر وهو ضرب من السحر — وسألني المتنبي بعد ذلك هل دخلت السكون ؟ قلت نعم . قال أما سمعت قولي

ملث القطر اعطشها ربوعا والا فاسقها السم النقيعا
أمنسبي السكون وحضر موتا ووالدتي وكندة السبيعا (١)

(١) «السكون» المذكورة في هذا البيت وردت في بعض نسخ الديوان والشرح بلفظ (السكاسن) اسم محلة بالكوفة

فقلت من ثم استفاد ماجوزه علي طغام أهل الشام :— اه وعن الصبح المنبي أيضاً « ومما كان يمخرق به على أهل البـاديه انه كان مشاءاً قوياً على السير يسير سيراً لاغاية بعده . وكان عارفاً بالفلوات ومواقع المياه ومحال العرب بها وكان يسير من حلة الى حلة بالبادية و بينهما مسيرة اربعة أيام فيأتى ماء فيغسل يديه و رجليه و وجهه ثم يأتى أهل تلك الحلة فيخبرهم بما حدث فى الحلة التى فارقها و يوهم أن الارض تطوى له » —

هذه بعض حوادث معروفة رواها الناس أو علي الاقل تناقلها المتأدبون حتى لم يبق شك فى أن أبا الطيب ادعى النبوة بشكل ما . فلا معنى اذاً لمغالطات أهل الأدب وحكاياتهم المخترعة عن نبوة أبي الطيب مثل قولهم قيل لأبى الطيب على من تنبأت ؟ قال على الشعراء . قيل لكل نبى معجزة فما معجزتك ؟ قال هذا البيت

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدواً له ما من صداقته بدّ

ونقلهم عن أبى الطيب أنه قال انما لقبت بالمتنبي لقولى

انا ترب الندى ورب القوافى   وسمام العدى وكيد الحسود
انا فى أمة تداركها الله   غريب كصالح فى ثمود
ما مقامى بأرض نخلة الا   كمقام المسيح بين اليهود

حتي لكأن أبا الطيب لم يقم بدعوة ما ولم يجتمع الناس حوله .

وهذه رواية أخرى مشهورة في كتب الادب —والشعر المذكور فى الحكاية لم يرد فى شرح العكبرى ولكنه ورد في آخر الديوان مع ذكر الحادثة : —

«ولما اشتهر أمر المتنبي وشاع ذكره بارض «سلمية» من عمل حمص فى بنى عدى قبض عليه ابن على الهاشمي فى قرية يقال لها كوتكين وأمر النجار أن يجعل فى رجله وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف . فقال المتنبي

زعم المقيم بكوتكين بانه   من آل هاشم بن عبد مناف
فاجبته مذ صرت من ابنائهم   صارت قيودهم من الصفصاف(١) »

---

(١) وجاءت الشطرة الاولى من البيت الثانى برواية أخرى « مذ صرت فى ابنائهم متنبئاً »

وهنا يجب أن نتساءل عما اذا كان الهاشمي هـذا قد قبض على أبي الطيب من قبل لؤلؤ أمير حمص أو ان هذه حادثة أخرى خلاف التي تقدم ذكرها . أو لعل شاعرنا كان من أصحاب السوابق والمتشردين يقضي كل يوم في سجن

وقد تلقيت من أفواه من أثق بهم في هذا الفن وهم أساتذة في الأدب أقوالا ظنية وكلها ترمي الى تبرئة أبي الطيب مما ينسب اليه وانه لم يدع نبوة ماولكن قوماً ادعوها عليه زورا وبهتاناً

وللاستاذ الاسكندري مثل هذا الرأى في نبوة أبي الطيب قال في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي» :

« ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون الا بالمعيشة في البادية فخرج الى بادية بني كلب وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة فاقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة اذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية فعظم شأنه بينهم ونفذ أمره فيهم وكان الضاربون بمشارف الشام شديدي الشغب على ولاتها فوشى بعضهم الى لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية بان أبا الطيب ادعى النبوة في بني كلب وانه تبعه خلق كثير بحيث يخشى على الشام منه . فخرج لؤلؤ وحارب بني كلب وقبض علي أبي الطيب وسجنه طويلا ثم استتابه وأطلقه

« وهذا ما أراه ، وهو المقبول . . . الخ »(٢)

قرآن أبي الطيب

يظهر أن أبا الطيب لم يكن أعد لتحقيق آماله غير لسانه فانشأ تلك العبر التي هذبها مائة عبرة وأربع عشرة عبرة — اذا صحت رواية اللاذقي التي تقدم ذكرها — ولكنه لم يصلنا منها الا بضعة أسطر مسجوعة قد حكم عليها الأستاذ الاسكندري حكما علي قدرها فقال « .... ان أقل صعلوك في بني كلب يرتجل خيراً منها »(٣)

(٢) و (٣) ص ٢٧٦ و ٢٧٧

وهذه هي : « والنجم السيار والفلك الدوار . والليل والنهار . ان الكافر لفي اخطار، امض على سننك.واقف أثر من كان قبلك من المرسلين.فان الله قامع بك زيغ من الحد فى الدين، وضل عن السبيل » (١)

واني ارجح ان هذا القرآن من اختراع أهل الادب الذين يريدون السخرية من كل مدعي النبوة . ولعل قرآن أبي الطيب من قبيــل قرآن مسيلمة الكذاب وغيره ومن قبيل ما نقل الينا من الحكايات التي تروى بنص واحد عن اشخاص مختلفين كقولهم دخل صبي على فلان مدعي النبوة وهو في محبسه فقال له « اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » أو قولهم أدعي فلان النبوة وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم بشر بنبوتي في قوله « لانبي بعدى » واسمي لا

واني أرى ان كل هذا تهكم وطنز يروى على سبيل الفكاهة والمباسطة

خرجنا من كل ما تقدم من الاخبار والروايات بصورة غامضة عن نبوة أبي الطيب ولكننا خرجنا بشيء فى الجمــلة « وشيء خير من لاشيء » فعرفنا أن أبا الطيب أدعى نبوة مبهمة ، فى جهــة مجهولة ، بين قوم مشكوك فيهم وجاء بقرآن لانعلمه ، وقبض عليه ناس لانعرفهم — والله اعلم !

***

ابو الطيب فى سجنه

قد تفنن أهل القرون الماضية بلا استثناء فى اختراع طرق تعذيب المذنبين وأدوات الترويع في قاعات السجون والمطابق المظلمــة ويعرف ذلك من تاريخ أهل البيت والعلويين وما أصابهم من المحن ناهيك بتنور ابن الزيات وما يروى عنه ولكن البيان على كل حال غير كاف للوقوف على معاملة المسجونين . وتاريخ السجون فى الدول الاسلامية المتقدمة غامض وقد حاولت ان اظفر بشيء من ذلك

---

(١) ورواية جورجي زيدان عن أبي على بن حامد تختلف في آخر هذه الفقرة « من الحد فى دينه وضل عن سبيله »

ولكني مع الأسف الشديد لم اوفق الى مايستحق الذكر

ان كتب الأدب والتراجم لا تحتوى كبير شيء عن حبس ابى الطيب فلا نجد فيها وصف قاعة سجنه ولا تفاصيل حياته ايام حبسه بل ولا تعرف المدة التي قضاها فى ذلك الامر. على ان غالب من كتب فى الموضوع قال «ولبث ابو الطيب فى سجنه طويلا» أو «زمانا» وجاء فى كتاب جورجي زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية» عند كلامه على أبى الطيب «وخرج لؤلؤ... فقتله .... وحبسه فى السجن دهرا طويلا» (١)

والظاهر أن أبا الطيب لم يمكث فى السجن «دهرا طويلا» بحسب ما يفهم من مدلول اللفظ. لأن الواقع غير ذلك فانه دخل السجن وهو شاب وخرج منه عقب انشاده القصيدة التي استعطف بها الوالى ويفهم من قوله فيها انه كان لايزال فتي (بل لم تكن تجب عليه الصلاة بعد!) ـ واستشفع بأمه وبكائها عليه فى بيتين آخرين ـ كل ذلك من كلام الاطفال. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فان تاريخ حياته يمكن تقسيمه الى ادوار محدودة معينة بعد أن قصد رحاب الامراء المعروفين أو اتصل بهم

فبعد أن خرج من السجن التجأ الى كثير من الامراء حتى وصل الى بدر بن عمار سنة ٣٢٨ واذ عرفنا انه ولد حوالى سنة ٣٠٣ ثبت لنا انه كان يبلغ من العمر عند التحاقه بذلك الامير ٢٥ سنة تقريبا والمشهور أنه حبس وهو فى العشرين من عمره فقضى ما يقارب خمس سنوات بين السجن وبين تردده على امراء متعددين مدحهم واقام فى ذراهم

هـذا ولو كان ابو الطيب قد مكث طويلا فى السجن لكان قال كثيراً من الشعر فى هذا الباب لان الشعر اكثر ما يجيش به الصدر فى مثل هذه الاحوال وخير الشعر ما قاله صاحبه وهو مدفوع اليه من نفسه فتوحيه الروح المعذبة الشاكية من

---

(١) ص ٢٤٩ ج ٢ — هل دخل السجن طفلا وخرج منه شيخاً ؟

ألم الأسر وظلمة الحبس وهي متشوفة الى نعيم الحرية تحلم بملاذها وتقدرها احيانا
باكثر مما تستحق

وما يتداول من شعر أبي الطيب الذى قاله فى سجنه شيء لا يذكر : قطعة قصيرة فى اربعة ابيات وقصيدة استعطاف الي الوالي لا تبلغ الثلاثين بيتا وقطعة من اربعة ابيات فى استرحام الوالى أيضاً — فهل كان وجدانه محبوسا مثله ؟

وقد يجوز أن يكون الشاعر قال كثيرا من الشعر وهو فى السجن ولكنه نفاه من ديوانه لأنه خجل منه فيما بعد

الا ان هذا القول لا يحتمل ما يوجه اليه من الاعتراض . فاذا كان الشاعر اراد أن ينفي ما قاله بمناسبة حبسه لكان استبعد كل شعره فى هذا الموضوع ولم يبق منه هذه القطع الثلاث. هذا من جهة . ومن جهة أخرى فأن كل شاعر حريص على شعره ولو كان سقيما . نعم أنه يخجل منه و يتألم من نسبته اليه ولكن يظهر أن بين الشعر والشاعر صلة عصبية أو لحمة نسب لا يستطيع الشاعر أن يقطعها أو أن يفصمها فمثل الشعر الردىء بالنسبة لقائله كمثل الولد السوء بالنسبة لأبيه يتأذى منه كلما رآه ولكنه لا يقدر علي التخلص منه

لعل القائلين بان ابا الطيب لبث فى الحبس « دهرا طويلا » يريدون بذلك المبالغة أو أنهم نقلوا العبارة فزادوا عليها لفظة « دهر » وبهذه الزيادة اشتبه الامر

وأوقات الضيق أيا كان نوعه تظهر لصاحبها طويلة مؤلمة كليل الشعراء وساعات الانتظار وجلسات الثقلاء وما أشبه ذلك يتخيلها الانسان كأنها الدهر لا أول له ولا آخر

يفهم من قصيدة الاستعطاف التى كتبها ابو الطيب وهو فى السجن و بعث بها الى الوالى ان ابا الطيب كان معذبا في السجن وأنه كان موثوق الرجلين بقيد من الحديد وكان مع جماعة من المجرمين فقد جاء فى القصيدة قوله

أمالك رقي ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد

وعوتك لمــا براني البلا   وأوهن رجلي ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال   فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل   فها أنا في محفل من قرود

ولما أعتقله أبو علي الهاشمي في قرية (كوتكين) جعل في رجله وعنقه خشبتين من خشب الصفصاف

ويظهر أيضا أن حياة المسجونين في ذلك الوقت كانت حياة حرمان. أعني أن السلطة الحاكمة لم تكن لتقوم بشؤون المجــرمين كما تفعل الحكومات الآن ويفهم هذا من قول أبي الطيب الذي أرسل به الى أبي دلف بن كنداج عند ما أهدي اليه هدية وهو في السجن وكان قد بلغه انه ثلبه عند الوالي الذي اعتقله

غير اختيــار قبلت برك بي   والجوع يرضى الاسود بالجيف

ومن هذه القطعــة يتضح أيضا أن ابا الطيب كان يستخف بالسجن في أول عهده به و يوطن نفسه علي عذابه فقال كما قال الشعراء من قبله في الصبر علي الحبس (١)

أهون بطول الثواء والتلف   والسجن والقيــد يا أبا دلف
كن أيها السجن كيف شئت فقد   وطنت للموت نفس معــترف
لو كان سكناي فيــك منقصة   لم يكن الدر ساكن الصدف

وتلك نزعة من نزعات الشباب لا تلبث أن تهدأ وتزول شدتها حتى تضمحل وتفنى وتحل محلها الضراعة والاستغاثة والاستعطاف والاسترحام كما فعل شاعرنا في قصيدته التي وصف فيها عذاب السجن وختمها بطالب العفو بعــد أن دافع عن نفسه دفاعا هو أشبه « بطالب الرأفة » في اصطلاح هذه الايام فاعتــذر بصغر سنه و بالغ وأغرق فقال انه لم تجب عليه الصلاة بعد فــكيف يقام عليه الحد وزاد علي ذلك أنه وليد لا يحسن القعود

---

(١) في كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ فصل موجز بعنوان محاسن الصبر علي الحبس كله مختار واهم مافيه قصيدة على بن الجهم

تعجل فيَّ وجوب الحدود　　وحدى قبل وجوب السجود
وقيل عدوت على العالمين بين ولادى وبين القعود

على أنه قد اعترف فى هذه القصيدة بانه نوى الفعل ولكنه لم يقم بتنفيذه فقال

وكن فارقاً بين دعوى « اردت »　　ودعوى « فعلت » بشأوٍ بعيد

ولما رأى ابو الطيب أن هذه القصيدة لم تجده نفعا كتب الى الوالى ثانية يستعطفه ويتوب علي يديه ويسترحمه بانه غريب وبان أمه تذوب عليه حزنا

بيدى أيها الأمير الأريب　　لا لشيء الا لأنى غريب
او لأم (١) لها اذا ذكرتنى　　دم قلب فى دمع عين يذوب
ان اكن قبل ان رأيتك اخطأ　　ت فانى على يديك اتوب
عائب عابنى لديك ومنه　　خُلقت فى ذوى العيوب العيوب

انتهى هذا الدور المخجل من حياة أبي الطيب بان قبل الوالي ضراعته واستتابه واطلق سراحه فخرج من السجن وقد لصق به لقب المتنبي مع كراهته له وشدة جحوده وانكاره ما نسب اليه (٢)

***

ابو الطيب عند أمراء الشام

أقصد بهذا الفصل القصير أن أشير الى أشهر من قصدهم ابو الطيب من أمراء الشام وعظمائها الي أن التحق بسيف الدولة . وبعد ذلك اعقد فصلا خاصا لسيف الدولة لانه أولى الناس بابي الطيب وقد قضت الأجيال الماضية لكل منهما بحق الانتساب الى الآخر فقال أهل الأدب سيف الدولة ممدوح المتنبي كما قالوا المتنبي شاعر سيف الدولة حتى لا يكاد الانسان يتصور احدهما حتى يقوم في ذاكرته خيال الآخر

---

(٢) لعل هذه الام هى جدته لامه التى رثاها ؟ (ملحوظة) تقدم هذا البيت فى ص٩ محرفا فلزم التنبيه

(٢) الاسكندرى ـ تاريخ أداب اللغة العربية فى العصر العباسي ص ٢٧٧

ورؤوس القصائد فى ديوان أبي الطيب تحمل اسماء كثيرين ممن قصدهم شاعرنا ولكن بعضهم أو بعبارة أصح السوادالأعظم منهم لم يكن لهم نصيب وافر منه بينما البعض الآخر – وهم قليلون – قد نالوا من مدائح أبي الطيب واشعاره المتنوعة فى مناسبات مختلفة قدرا لا يستهان به

ويظهر أن أبا الطيب لم يتردد على كثير من بلدان الشام فان غاية ما يعرف عن تنقلاته بحسب ماجاء فى اشعاره انها كانت بين طبرية والغور (اللاذقية) والرملة وانطاكية

ويلاحظ المطلع على ما كتب عن المتنبي ان هذه النقطة فى تاريخ شاعرنا مختصرة كل الاختصار حتى ان كثيراً من المؤلفين يمرون عليها سراعا ولا يعيرونها أقل التفات فينتقلون دفعة واحدة من ذكر سجن المتنبي الى ذكر اتصاله بسيف الدولة مع أن هذا القسم من حياة شاعرنا يستغرق نصف شعره تقريبا وقد جاء فيه بكل طريفة وعجيبة ولكنه كان اذ ذاك لا يزال خامل الذكر مجهول الفضل وكذلك لم يكن الامراء الذين اتصل بهم ممن لهم شهرة واسعة أوصيت ذائع يساعد على ترويج شعر أبي الطيب فى سوق الأدب ولكنه بعد أن اتصل بسيف الدولة شاع ذكره بفضل مكانة سيف الدولة

قال الثعالبي فى « يتيمة الدهر » (١) عند الكلام على أبي الطيب : « وكان قبل اتصاله بسيف الدولة يمدح البعيد والقريب ويصطاد ما بين الكركي والعندليب ويحكي أن علياً بن منصور الحاجب لم يعطه على قصيدته فيه التي أولها

« بأبي الشموس الجانحات غواربا » ومنها

« حال متى علم ابن منصور بها عاد الزمان الى منها تائبا »

الا ديناراً واحداً فسميت الدينارية »

أما امراء الشام وعظماؤها الذين طالت اقامة ابي الطيب فى ذراهم وكثرت اشعاره فيهم فاخص بالذكر منهم التنوخيين وبدر بن عمار وابن طغج وأبا العشائر بن حمدان.

---

(١) ص ٨٢ ج ١

أما التنوخيون فقد خلد ذكرهم وذكر اللاذقية برائيه التي قالها في محمد بن اسحق وفي احداها الوصف المشهور «« ما كنت احسب قبل دفنك في الثرى »» الى أن يقول

«وحفيف اجنحة الملائك حوله وعيون أهل اللاذقية صور»(٢)

وسأعرض لهذه القصيدة عند الكلام على شاعرية أبي الطيب . وقال في قصيدة أخرى

لك الخير! غيري رام من غيرك الغنى وغيري بغير اللاذقية لاحق

هي الغرض الاقصى ورؤيتك المنى ومنزلك الدنيا وانت الخلائق

وأما بدر بن عمار الذي كان يتولى حرب طبرية من قِبل ابن رائق سنة ٣٢٨ فقد اكثر ابو الطيب من القول فيه وعلى الاخص في منادمته على الشراب وشرب معه وهي من المرات المعدودة التي شرب فيها ابو الطيب الخمر .

وكانت مدة اقامته عند الأمير أبي الحسن بن عبدالله بن طغج بالرملة أشبه بالمنادمة وقد شرب فيها ابو الطيب الخمر وهي أيضاً من المرات المعدودة عليه . ومن وجل ابن طغج فقط تفضل ابو الطيب بمدح القاسم طاهر بن الحسين العلوي . سيجيء الكلام على هذه الحادثة في كبرياء أبي الطيب

أما ابو العشائر الحسن بن علي بن الحسين بن حمدان العدوي فكان « خاتمة المطاف وفاتحة الالطاف » كما يقول الحريري . فهو الذي يسّر له سبيل الاتصال بسيف الدولة وفتح له باب السعادة والشهرة . وكان ابو العشائر وقتئذ والي انطاكية من قِبل سيف الدولة

والحق أن أبا الطيب قد أجاد في مديح أبي العشائر وله فيه القصيدة المشهورة التي مطلعها

اتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

ولا أبالغ اذا قلت ان هذا المطلع وحده يعدل ما أداه ابو العشائر لأبي الطيب

---

(١) جمع اصور : مائل الى الشيء لا يتعداه وفيها تورية مع اسم مدينة « صور »

من الجميل والمعروف . هذا عدا المدائح الأخرى التى لا تقل قيمة عن هذا المطلع وانى أشير الى قطعة صغيرة تعد من حسنات أبى الطيب قالها فى ابى العشائر وهو قائم الى سفر :

الناس مالم يروك اشـباه   والدهر لفظ وانت معنـاه
والجود عـين وانت ناظرها   والبـأس باع وانت يمنـاه
تنشـد اثوابنا مدائحـه   بألسن مالهن افواه
اذا مررنا على الاصم بهـا   اغنته عن مسمعيه عينـاه
ياراحلا كل من يودعه   مودع دينه ودنياه
ان كان فيما نراه من كرم   فيـك مزيد فزادك الله

ولاغرو ان يجيد أبو الطيب فى مدح أبى العشائر فانه لا يقول لأحـد من الأمراء الأعاجم الذين لا يعرفون مكامن الحسن فى الشعر بل أنه يخاطب شاعراً عربياً من الشعراء المجيدين

وقد وفى شاعرنا لهذا الأمير وفاء جميلا بمقال طيب يجدر بى ان أشير اليه فى هذا المقام : في ديوان أبى الطيب قطعة شعرية صغيرة رأيت لها عنوانين مختلفين. وجدت فى طبعة ديوانه المتداولة « وكان ابو العشائر قد غضب على أبى الطيب فارسل غلمانا له ليوقعوا به فلحقوه بظاهر حلب ليلا فرماه أحدهم بسهم وقال خذه وانا غلام ابى العشائر فقال ابو الطيب ..... » ولكني أرجح العنوان الآخر الذى وجدته فى شرح العكبرى ويفهم منه أن الحادثة وقعت عقب خروج ابى الطيب من مجلس سيف الدولة ، بعد انشاده قصيدة « وآحر قلباه »

وعلى كل حال فسواء كانت الحادثة عقب غضب ابى العشائر أو غضب سيف الدولة فان المقام كان يدعو أبا الطيب الى الانفعال الغضبي ويلجئه الي العيب فى حق ابى العشائر ولكنه تقبل الأساءة بالاحسان على غير عادته وهذا غريب جداً من أبى الطيب، أما الأبيات فنها ما يأتى :

ومنلسب عندي الى من أحبه ولانبل حولى من يديه حفيف
فهيج من شوقي ومامن مذلة حننت ولكن الكريم ألوف
فان يكن الفعل الذى ساء واحدا فافعاله اللاتى سررن الوف
ونفسي له نفسي الفداء لنفسه ولكن بعض المالكين عنيف
فان كان يبغي قتلها يك قاتلا بكفيه فالقتل الشريف شريف

اشرت فيما تقدم الي بعض اعيان الشام الذين كانت لهم مع ابى الطيب صلة طويلة واغفلت غيرهم ممن يعدون بالعشرات وهم بين امراء ووجهاء وكتاب وقضاة واشراف ولكن لم تطل صلته بهم. ولو أن القصائد كانت تبقي معها ذكرى الاشخاص الذين قيلت فيهم لخلدت اسماء كثيرين من الناس . فكل منتسب الي الأدب لا يجهل بيت أبي الطيب

واذا أتتك مذمتي من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

من قصيدته المشهورة التي مطلعها « لك يامنازل فى القلوب منازل » ولكنه لايحفظ اسم القاضى الانطاكي الذى قيلت فيه هذه القصيدة — من أجل هذا يزعم كثير من الادباء اذا سمعوا شيئاً حسنا من أبى الطيب أنه قيل فى سيف الدولة خصوصا اذا رأوا فيه ذكر السيف أو الحرب والحقيقة أن ذلك الشعر يكون قد قيل فى غيره من أعيان الشام وامرائها . وانما جاء هذا الخلط من أن الأدباء قصروا شعر أبى الطيب تحكما وعنادا على شخص سيف الدولة وكافور فان رأوا مدحا قالوا هذا فى سيف الدولة وان رأوا ذما قالوا هذا فى كافور مع أن أبا الطيب مدح كثيرين وذم كثيرين فيجب الرجوع الي ديوانه لاجتناب مثل هذا اللبس

***

وقبل أن نشرع فى الكلام علي أبي الطيب فى حاشية سيف الدولة ندع شاعرنا يحدثنا بنفسه عن نفسه ويصف حالة بؤسه ويأسه وتشرده فى البلاد وسعيه وراء الرزق من هنا ومن هنا فنسوق شيئاً من اشعاره الكثيرة التي تفيض كآبة وشكوى

وحزنا وعتبا على الأيام وحقدا على الاقدار وطعنا في الناس الى غير ذلك مما يصدر عن امثالهم البلاد وضاقت في وجوههم سبل الفوز في الحياة

ضاق صدري وطال في طلب الرز ق قيامي وقل فيه قعودي
ابدا اقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود

كأني من الوجناء في ظهر موجة رمت بي بحارا مالهن سواحل
يخيل لي أن البلاد مسامعي وأني فيها ما تقول العواذل

لم الليالي التي أخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم

فسرت نحوك لا الوي على أحد احث راحلتيَّ الفقر والأدبا
اذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ماعاش وانتحبا
فالموت اعذر لي والصبر اجمل بي والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

اظمتني الدنيا فلما جئتها مستسقيا مطرت عليَّ مصائبا
وحبيت من خوص الركاب باسود من دارس فغدوت امشي راكبا

وجاء بنفس المعني في موضوع آخر ينعت نعله بانها ناقة، وجاء بالتشبيه مفصلا في الجزئيات :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها
شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل
بصارمي مرتد، بمخبرتي مجتزئ بالظلام مشتمل
اذا صديق نكرت جانبه لم تعيني في تركه الحيل
في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد من أختها بدل

عرفت نوائب الحدثان حتى لو انتسبت لكنت لها نقيبا

الفت ترحلي وجعلت أرضي   قتودي والأريري الجلالا
فما حاولت في أرض مقاماً   ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تحتي   أوجهها جنوباً أو شمالا

لله حال أرجيها وتخلفني   وأقتضي كونها دهري وتمطلني

وكنت اذا يممت أرضاً بعيدة   سريت فكنت السر والليل كاتمه

***

أبو الطيب عند سيف الدولة (٣٣٧ — ٣٤٦)

لا يتسع المجال هنا لان أجيء على تاريخ سيف الدولة مفصلا تفصيلا ولكن المقام يضطرني لان أشير بالايجاز الى الامير العربي الشاعر الذي ظهر في دولة الاعاجم وكثرت وقائعه مع الروم وكان في نضاله مع المسيحيين وصد غاراتهم أشبه الناس بصلاح الدين الايوبي كما كانت غزواته أشبه الوقائع بالحروب الصليبية

ظهر بنو حمدان بالسيادة في الموصل وحلب الا أن سيف الدولة كان أشهرهم بالنسبة لمقر أمارته في حلب وجواره للمملكة الرومية ودفاعه عن العواصم وانتسابه للادب

«وكان سيف الدولة من أكثر الملوك حباً في الجهاد وله الغزوات الكثيرة في ارض الروم وكان جمع ما وقع عليه من غبار الوقائع واوصى بأن تصنع منه لبنة يوضع عليها رأسه في القبر» (١)

هذه الحكاية أقرب ما يكتب في الادب عن التاريخ كما أنها خير ما ينتخب من التاريخ المكتوب على أسلوب أهل الأدب وفيها صورة سيف الدولة التي تتراآى على الدوام من خلال أشعار أبي الطيب

«كان أبو العشائر والى انطاكية من قبل سيف الدولة ولما قدم سيف الدولة انطاكية قدّم المتنبي اليه واثنى عنده عليه وعرفه منزلته من الشعر والأدب

---

(١) نقول البلاغة — للسيد توفيق البكري — ورواية ابن خلكان : لبنة بقدر الكف ... يوضع خده عليها في لحده فنفذت وصيته (ص ٥٢٢ ج ١)

« واشترط على سيف الدولة أول اتصاله به انه اذا أنشده مديحه لا ينشده الا وهو قاعد وانه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه فنسب الى الجنون . ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط وتطلع الى ما يرد منه وذلك في سنة ٣٣٧

»« وحسن موقعه عنده فقربه وأجازه الجوائز السنية ومالت نفسه اليه وأحبه فسلمه للرواض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة (١) »

أكتفي بهذه الأقوال الموجزة في الكلام عن اتصال أبي الطيب بسيف الدولة وأرجع الى ديوان شاعرنا لأري منه صورة هذا الأمير موصولة بشاعره

في شعر أبي الطيب عن غزوات سيف الدولة روح دينية حربية تشابه روح الشعر الذي قيل في عصر الفتوح الاسلامية الأولى . وهو كلما أراد أن يتكلم عن الروم وحلفائهم وعداوتهم لسيف الدولة صور النزاع قائماً بين المسيحية والاسلام وقلّ أن يذكر الدين والحرب منفصلين ولذلك فأني سأذكر بعض ما قاله بدون أن أجعل فاصلا بين شعره الديني وشعره الحربي في هذا الامر

انت طول الحياة للروم غاز ... فمتي الوعدان يكون القفول ؟
وسوي الروم خلف ظهرك روم ... فعلى أي جانبيك تميل ؟

ابا الغمرات توعدنا النصارى ... ونحن نجومها وهي البروج
وفينا السيف حملته صدوق ... اذا لاقى وغارته لجوج

اخا الحرب ! قد اتعبتها فاله ساعة ... ليغمد نصل او يحل حزام
وان طال أعمار الرماح بهدنة ... فان الذي يعمرن عندك عام
ومازلت تفني السمر وهي كثيرة ... وتفنى بهن الجيش وهو لهام
متى عاود الجالون عاودت أرضهم ... وفيها رقاب للسيوف وهام
وربوا لك الاولاد حتى تصيبها ... وقد كعبت بنت وشب غلام

---

(١) الصبح المنبي ص٤٦ و٤٧ و٥٤ و٥٥ ج ١

وكيف ترجي الروم والروس هدمها(١) وذا الطعن آساس لها ودعائم
وقد حاكموها والمنايا حواكم فما مات مظلوم ولا عاش ظالم

ولست مليكا هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هادم

والماء بين عجاجتين مخلص تتفرقان به وتجتمعان
ركض الامير وكاللجين حبابه وثنى الأعنة وهى كالعقيان
فتل الحبال من الغدائر فوقه وبنى السفين له من الصلبان
خضعت لمنصلك المناصل عنوة وأذل دينك سائر الأديان
وعلي الدروب وفى الرجوع غضاضة والسير ممتنع على الامكان
والطرق ضيقة المسالك بالقنا والكفر مجتمع على الايمان

سراياك تترى والدمستق(٢) هارب واصحابه قتلى وامواله نهبى
مضى بعدما التف الرماحان ساعة كما يتلقى الهدب فى الرقدة الهدبا
ولكنه ولىّ وللطعن سورة اذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا
وخلى العذارى والبطاريق والقرى وشعث النصارى والقرابين والصلبا

لا يعتقي بلد مسراه من بلد كالموت ليس له رى ولا شبع
حتى أقام علي ارباض خرشنة تشقى بها الروم والصلبان والبيع
للسبي ما نكحوا والقتل ما ولدوا والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا
مخلى له المرج منصوبا بصارخة له المنابر مشهودا بها الجمع
يطمع الطير فيهم طول أكلهم حتى تكاد على أحيائهم تقع
ولو رآه حواريوهم لبنوا على محبته الشرع الذى شرعوا

وفى الروم وحلفائهم :

يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها(٣) وتجمع الآجالا

(١) يشير الى مرعش (٢) قائد الروم (٣) فى ثغر الحرث

وفى بعض المواضع نراه قد زاد فى نغمته المعتادة ودخل الى نقد عقائد أعداء أميره فى أهم نقطة وهى صلب المسيح عليه السلام والوهيته.

ويستنصران الذى يعبـدان وعندهما انه قد صلبَ
ليـدفع ماناله عنهمـا فيا للرجال لهذا العجب!

وفى هذه القصيدة انتقل الى مخاطبة سيف الدولة وبقيـة قوله تدور حول المعنى الدينى وتمجيد قوة اليقين مع التعريض بعبادة الأب والابن

أرى المسلمين مع المشركين اما لعجز واما رهب
وأنت مع الله فى جانب قليل الرقاد كثير العطب
كأنك وحدك وحدته دان البرية بابن واب

وفى موضوع اخر قال يتهكم على امير الروم عند ماغلبه سيف الدولة فالتجأ الى الدير يتعبد وترك الحروب والغارات

فاصبح يجتـاب المسوح مخافة وقد كان يجتاب الدلاص المسردا
ويمشى به العكاز فى الدير تائبا وما كان يرضى مشى اشقر اجردا
وما مات حتى غادر الكر وجهه جريحا وخلي جفنه النقعُ ارمدا
فلو كان ينجى من عليّ ترهب ترهبت الاملاك مثنى وموحدا
وكل امرئ فى الشرق والغرب بعدها يعد له ثوبا من الشعر اسودا

***

نال ابو الطيب عنـد سيف الدولة حظوة عظمى اثارت عليه حسد زملائه من حاشية الامير و « كل ذى نعمة محسود » وقد اكثر ابو الطيب من ذكر ذلك المركز العالى الذى ناله لدى اميره كما اكثر من ذكر حساده والاستنجاد بالأمير فى رد كيدهم عنه لانه هو الذى جلب عليه حقد هؤلاء الحساد ففي ذلك يقول

ازل حسـد الحساد عنى بكبتهم فانت الذى صيرتهم لى حسداً

بلغت بسيف الدولة النور رتبة انرت بها مابين غرب ومشرق

اذا شاء ان يلهو بلحية احمق اراه غباري ثم قال له الحق
وما كمد الحساد شيئاً قصدته ولكنه من يزحم البحر يغرق

وما لكلام الناس فيما يريبني اصول ولا للقائليه أصول
اعادى على مايوجب الحب للفتى وأهدأ والافكار فيَّ تجول
سوى وجع الحساد داو فانه اذا حل فى قلب فليس يحول
ولا تطمعنْ من حاسد في مودة وان كنت تبديها له وتنيل

وقوله فى المتشاعرين

افى كل يوم تحت ضبنى شويعر ضعيف يقاوينى قصير يطاول ؟
لسانى بنطقى صامت عنه عادل وقلبى بصمتي ضاحك منه هازل
واتعب من ناداك من لاتجيبه واغيظ من عاداك من لاتشاكل
وما التيه طبّى فيهمُ غير انني بغيض اليَّ الجاهل المتعاقل
واكبر تيهى انني بك واثق واكبر مالى اننى لك آمل
لعل لسيف الدولة القرم هبّة يعيش بها حق ويهلك باطل

والظاهر ان ابا الطيب كان يحس من نفسه بعلو مكانته عند اميره وكان يشفق بعض اشفاق على حساده ويلتمس لهم العذر فى حقدهم عليه فى قوله

وللحساد عذر ان يشحوا على نظري اليه وان يذوبوا
فانى قد وصلت الى مكان عليه تحسد الحدق والقلوب

وللمتنبي بيت جميل ضمن قصيدة قصيرة قالها فى سيف الدولة يستأذنه وقد خرج الى اقطاع اقطعه اياه بناحية معرّة النعمان · وفى هذا البيت اعتراف بأنواع مختلفة من الخيرات التى كانت تدرّ عليه من اميره — قال

اسير الى « اقطاعه » فى « ثيابه » على « طرفه » من « داره » « بحسامه »

وهذا لايمكن التوفيق بينه وبين قوله فيما بعد عندما غضب على اميره

رأيتكم لايصون العرض جاركم ولا يدرّ علي مرعاكم اللبن

وسنرى شيئا من ذلك عند الكلام على اخلاق ابى الطيب

وبالجملة فقد قضى المتنبي عشر سنوات تقريبا فى حاشية سيف الدولة وليس فى عصره من الشعراء من يدانيه فى الفضل — كما يقول ابن رشيق صاحب كتاب العمدة (١) — الا ابو فراس الحمداني احداقربا سيف الدولة — والظاهر ان ابافراس هو سبب الوحشة التي وقعت بين الامير وشاعره وكدرت مابينهما من الصفاء مدة من الزمان . واليك رواية الصبح المنبي فى هذا الشأن :

« قال ابن الدهان فى المآخذ الكندية من المعانى الطائية قال ابو فراس لسيف الدولة ان هذا المتنسي كثير الادلال عليك وانت تعطيه كل سنة ثلاثة الآف دينار على ثلاث قصائد ويمكن ان تفرق مائتى دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام . . . وكان المتنبي غائبا وبلغته القصة فدخل على سيف الدولة وانشد

الا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا فداه الورى امضى السيوف مضاربا

ومالى اذا ما اشتقت ابصرت دونه تنائف لا أشتاقها وسباسبا

وقد كان يدني مجلسى من سمائه احادث فيها بدرها والكواكبا

حنانيك مسؤولا ! ولبيك داعيا ! وحسبى موهوبا ! وحسبك واهبا !

اهذا جزاء الصدق ان كنت صادقا ؟ اهذا جزاء الكذب ان كنت كاذبا ؟

وان كان ذنبى كل ذنب فانه محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

فاطرق سيف الدولة ولم ينظر اليه كعادته فخرج المتنبي من عنده متغيرا وحضر ابو فراس وجماعة من الشعراء فبالغوا في الوقيعة فى حق المتنبي وانقطع يعمل القصيدة التي اولها

وآحرّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

وانشدها وجعل يتظلم فيها من التقصير فى حقه كقوله

---

(١) ص ٦٤ ج ١

مالي اكتم حبا قد برى جسدي ... وتدعي حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لغرته ... فليت انا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة ... وقد نظرت اليه والسيوف دم

فهم جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة ادلاله واعراض سيف الدولة عنه فلما وصل في انشاده الى قوله

ياأعدل الناس الا في معاملتي ... فيك الخصام وانت الخصم والحكم

فقال ابو فراس مسخت قول دعبل وادعيته وهو

ولست أرجو انتصافا منك ماذرفت ... عيني دموعاً وأنت الخصم والحكم

فقال المتنبي

أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال: ومن انت يادعي كندة حتى تأخذ أعراض أهل الأمير في مجلسه ؟ فاستمر المتنبي في أنشاده ولم يرد عليه الى ان قال

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا ... بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم

فزاد ذلك غيظا في أبي فراس وقال سرقت هذا من عمرو بن عروة بن العبد في قوله

أوضحت من طرف الآداب ما اشتكلت ... دهرا وأظهرت اغرابا وابداعاً
حتى فتحت باعجاز خصصت به ... للعمي والصم أبصارا وأسماعاً

ولما وصل الى قوله

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والحرب والضرب والقرطاس والقلم

قال وما ابقيت للأمير اذا وصفت نفسك بالشجاعة والفصاحة والرياسة والسماحة ؟ تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك وتأخذ جوائز الأمير ؟ اما سرقت هذا من قول الهيثم بن الاسود النخعي الكوفي المعروف بابن العريان العثماني

اعاذلتي كم مهمه قد قطعته اليف وحوش ما كنا غيرها ثب
انا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى وجود المذاكي والقنا والقواضب
حليم وقور في البلاد وهيبتي لها في قلوب الناس بطش الكتائب

فقال المتنبي

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الأنوار والظلم

فقال ابو فراس وسرقت هذا من قول معقل العجلي

اذا لم امبز بين نور وظلمة بعينيَّ فالعينان زور باطل

ولمحمود ابن احمد بن ابي مرة المكي مثله

اذا المرء لم يدرك بعينيه ما يرى فما الفرق بين العمى والبصراء

وغضب سيف الدولة من كثرة مناقشته في هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها وضربه بالدواة التي بين يديه فقال المتنبي في الحال

ان كان سركم ماقال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم ألم

فقال ابو فراس اخذت هذا من قول بشار

اذا رضيتم بان نجفى وسركم قول الوشاة فلا شكوى ولا ضجر

ومثله لابن الرومي

اذا ما الفجائع اكسبنني رضاك فما الدهر بالفاجع

فلم يلتفت سيف الدولة الى ماقال ابو فراس واعجبه بيت المتنبي ورضي عنه في الحال وادناه اليه وقبل رأسه واجازه بالف دينار ثم اردفها بالف اخرى فقال المتنبي

جاءت دنانيرك مختومة عاجلة الفاً على الف
اشبهها فعلك في فيلق قلبته صفاً على صف (١) »

ويظهر ان بني حمدان او بعضا من اتباعهم كانوا قد تآمروا على ابي الطيب

---

(١) الصبح المنبي ص ٦٥ وما بعدها ج ١ — راجع العرف الطيب لليازجي في شرح قصيدة (وآخر قلباه ممن قلبه شبم) واعتراضه على ماتقدم

وأرادوا اغتياله — وقد ظهر العداء الصريح من أبي فراس الشاعر في المجلس الذي تقدم وصفه .

وعقب انصراف المتنبي من ذلك المجلس رماه شخص بسهم وقال خذه وانا غلام ابي العشائر ، هذه رواية العكبري . والرواية الاخرى ، المذكورة في طبعة الديوان تقول بان ابا العشائر كان غضب علي أبي الطيب فأرسل غلماناً له ليوقعوا به فلحقوه بظاهر حلب فرماه أحدهم بسهم وقال خذه وأنا غلام ابي العشائر

واني أرجح رواية العكبري لان الصلة متينة بينها وبين الحكاية المتقدمة خصوصاً قول ابي فراس « ومن أنت يا دعيُّ كندة حتى تأخذ أعراض أهل الامير في مجلسه ؟ » فلعل هذا القول هو الذي اثار غضب أحد الاتباع ففعل مافعل

هذا وان غضب ابي العشائر على المتنبي غير معروف ومن الحكاية التي سأسردها بعد يتضح أن ابا الطيب كان مدلا على أميره وهذا الادلال غير مأمون العاقبة خصوصاً اذا كان المدل كثير الحساد

حكي ابو الفرج قال : كان أبو الطيب يأنس بي ويشكو من سيف الدولة ويأمنني على غيبته له وكان بيني وبينه عامر دون باقي الشعراء وكان سيف الدولة يغتاظ من تعاظمه ويجفو عليه اذا كلمه والمتنبي يجيبه في أكثر الاوقات ويتغاضى في بعضها (١)

ويظهر ان الجفاء قد زاد شيئاً فشيئاً بين الامير وشاعره ويدل على ذلك الحكاية الآتية قال عبد المحسن بن علي بن كبوجك أن اباه حدثه قال كنت بحضرة سيف الدولة وأبو الطيب اللغوي وأبو الطيب المتنبي وأبو عبدالله بن خالويه النحوي وقد جرت مسألة في اللغة تكلم فيها بن خالويه مع ابى الطيب المتنبي وضعف قول بن خالويه فأخرج من كمه مفتاحاً حديداً ليلكم به المتنبى فقال له المتنبي اسكت ويحك فأنك أعجمي وأصلك خوزى فمالك والعربية فضرب وجه المتنبي بالمفتاح

---

(١) الصبح المنبي

فأسال دمه على وجهه وثيابه فغضب المتنبي من ذلك اذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولا ولا فعلا فكان أحد أسباب فراق سيف الدولة (١)

ومن نهاية هذه الحكاية أيضاً يتضح ان لهذا الفراق أسبابا كثيرة أحدها هذه الحادثة الاخيرة التي يذكرها غالب مترجمي الأدباء دون غيرها

وبالجملة فقد وقع بينهما من الخلاف ما أدى الى انفصال الشاعر عن أميره وانتهي الامر بان سار المتنبي الى مصر والتحق بحاشية كافور الاخشيدي

وكان المتنبي يرى أن سيف الدولة هو الذى فرط فى ولائه . قال ابو الفتح بن جني كنت قرأت ديوان المتنبي عليه فلما وصلت الى قوله

أغالب فيك الشوق الخ . . .

اذا تُرك الانسان أهلا وراءه ويمم كافورا فما يتغرب

فقلت له يعز عليّ ، كيف يكون هذا الشعر ويمدح به غير سيف الدولة . فقال حذّرناه وأنذرناه فما نفع فيه الحذر الست القائل فيه

ابا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطين الناس ما انا قائل

فهو الذى أعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه »

هذه الحكاية تشهد بكبرياء أبي الطيب وغروره كما أنها تدل على مقدار حقده على سيف الدولة ذلك الحقد الذى تراه مجسدا فى قصائده التي قالها فى مصر عندما التحق بكافور خصم سيف الدولة ومزاحمه على الملك — الا انه ندم مر الندم على فراق سيف الدولة . ثم زالت الوحشة التي كانت بينهما وراسل كل منهما صاحبه أيام كان المتنبي فى الكوفة بعد سنة ٣٥٠ ونظم أشعارا كثيرة تذكر فيها ماضي عهده عند سيف الدولة ، جئنا بشيء منها فى باب الأخلاق ، ونذكر هنا بيتين يعترف فيهما ابو الطيب بغلطته وبمكانة سيف الدولة وهما من قصيدة قالها فى كافور

ولله سيرى ما أقل تئية عشية شرقيّ الحدالي وغرّب

---

(١) الصبح المنبي

عشية أحفى الناس بي من جفوته　　　واهدى السبيلين التى أتجنب

وانفذ اليه سيف الدولة ابنه من حلب الى الكوفة ومعه هدية وكان ذلك بعد خروجه من مصر ومفارقته لكافور فكتب اليه من الكوفة سنة ٣٥٢ قصيدة ظهر فيها أثر وجدانه الحي وفيها يقول

كلما رحبت بنا الروض قلنا　　　حلب قصدنا وانت السبيل

والمسمون بالأمير كثير　　　والأمير الذى بها المأمول

الذى زلت عنه شرقاً وغرباً　　　ونداه مقابلي ما يزول

من عبيدى ان عشت لى الف كافور　　　ولى من نداك ريف ونيل

ولما توفيت أخت سيف الدولة بميافارقين وورد خبرها الى الكوفة رثاها أبو الطيب بقصيدته المشهوره التى مطلعها : « يا اخت خير أخ يابنت خير أب »

وفيها أيضا كان وجدان الشاعر متأثرا علي خلاف عادته مما يدل على أنه كان يتألم لألم أميره القديم ويرثى حقيقة لمصابه

وأنفذ اليه سيف الدولة كتاباً بخطه الى الكوفة يسأله المسير اليه فاجابه بقصيدة فيها عتب جميل واعتذار عن التخلف يقول فيها

وما عاقنى غير خوف الوشاة　　　وأن الوشايات طرق الكذب

وتكثير قوم وتقليلهم　　　وتقريبهم بيننا والخبب

وقد كان ينصرهم سمعه　　　وينصرنى قلبه والحسب

امام هذه الأقوال المؤثرة يغتفر الناقد كل ماصدر عن أبى الطيب في حق سيف الدولة ويتناسى تلك الأقوال الجارحة بل القاتلة التى سنراها في باب الأخلاق

***

ابو الطيب عند كافور الاخشيدى (٣٤٩ — ٣٥٠)

هذا الأمير هو الذى يقول فيه المتنبي :

يدبّر الأمر من مصر الى عدن الى العراق فأرض الروم فالنوب

اشارة الى اتساع ملك مصر وامتداد سلطان مليكها — فلا عجب اذن ان قصده المتنبي ليجد في ذراه مثل ما وجد عند سيف الدولة أو اكثر منه.

لكن أبا الطيب لم ينتقل مرة واحدة من عند سيف الدولة الى كافور الاخشيدى كما هو المشهور عند عامة كتاب التراجم. روى صاحب كتاب الصبح المنبي (١) ما يأتي : —

« ولما عزم ابو الطيب على الرحيل من حلب وذلك في سنة ٣٤٦ لم يجد بلدا اقرب اليه من دمشق لان حمص كانت من بلاد سيف الدولة فسار الى دمشق والقى بها عصا التسيار وكان بدمشق يهودى من أهل مصر يعرف بابن ملك من قبل كافور ملك مصر فالتمس من المتنبي أن يمدحه فثقل عليه فغضب ابن ملك — وجعل كافور الاخشيدى يكتب في طلب المتنبي من ابن ملك فكتب اليه ابن ملك ان أبا الطيب قال لا أقصد العبد وان دخلت الى مصر فما قصدى الا ابن سيده

« ونبت دمشق بالمتنبي فسار الى الرملة فحمل اليه أميرها الحسين ابن طغج هدايا نفيسة وخلع عليه وحمله على فرس بمركب ثقيل وقلده سيفا محلى

« وكان كافور الاخشيدى يقول لاصحابه اترونه يبلغ الرملة ولا يأتينا؟ وأخبر المتنبي انه واجد عليه . ثم كتب كافور يطلبه من أمير الرملة فسار اليه » —

انى حيال هذه الرواية اجد نفسى بين رأيين مختلفين أو بالأحرى متناقضين انى استخلص من مجموع هذه الحكاية أن أبا الطيب لم يقصد كافورا وانه كره أن يقصده وانما كافور هو الذى طلبه وسعى في اكتسابه لنفسه . وهذا رأى اول . والرأى الثانى ان المتنبي هو الذى دفعه الحقد على سيف الدولة الى أن يلتجىء الى عدوه وتنازل عن غروره وكبريائه وقدم على كافور وكله طمع في الحصول على ولاية

(١) ص ١٠٨ — ١١٠ ج ١ .

أو منصب فى الدولة يغيظ به سيف الدولة . وأدل ما فى روايات الادباء على هذا الرأى أن شاعرنا لم يكن يجلس فى حضرة كافور بل كان يقف بين يديه

على أنى الاحظ أن صاحب كتاب الصبح المنبي من المؤلفين الذين يريدون أرضاء أمرائهم الذين يؤلفون لهم الكتب وينضمون الى آرائهم طمعاً فى اكتساب رضاهم ونوال عطاياهم . وفى مقدمة كتابه ما يلقى الشك فى نفس المطالع من هذه الناحية كقوله : « عنّ لى أن أتشرف بخدمته (أى الامير عبد الرحمن نجل الحسام) بتأليف يشتمل على غرر الآداب ، ونتائج الالباب ، لم ينسج فكر على منواله ، ولم تسمح قريحة بمثاله ، ليكون وسيلة الى ان اعدّ من جملة خدامه ، وأتشرف بتقبيل مواطىء أقدامه ، . . . فينقذنى من شراك الفقر ، ويستخلصنى من مخالب الدهر ، . وكان مد الله ظله ، ورفع الى أوج مرامه محله ، يلهج بقلائد « ابن الحسين » ويميزه عن « الطائيين » ولعمرى ان ما قاله هو المعول عليه ، والمرجع بعد التأمل الصادق اليه »

* *

الاستاذ (١) كافور المكنى بابى المسك المنسوب الى الاخشيد يعد من الامراء القلائل الذين رزقوا السعد فى الحياة وأبقى لهم التاريخ ذكراً

وفى هذا المقام يجدر بنا ونحن أهل مصر أن لا نمر على ذكر أمير من امرائها دون ان نشير اليه بكلمة نتحرى فيها الصدق والاعتدال تاركين ما قاله شاعرنا فى هذا الامير الى موضع آخر

---

(١) الاستاذ (يقابل لفظ « اتابك » عند الاعاجم ومعناه مربى اولاد الملوك — وكان كافور اتابك ولديْ الاخشيد) ويقول ابو الطيب فى أحدي مدائحه كافور: ترعرع الملك الاستاذ مكتهلا قبل اكتهال اديباً قبل تأديب

وهو لقب منصب عال فى حاشية الامراء بمصر كلقب الصاحب فى بلاد الفرس وقد عرف بمصر بعد ذلك طائفة من اصحاب المناصب فى الحاشية يسمون بالاستاذين المحنكين

كانت مصر منذ الفتح الاسلامي ولاية خاضعة للخلافة و بقيت كذلك مدة الخلفاء الراشدين والدولة الاموية وصدر الدولة العباسية حتى استقل بها أحمد بن طولون وأضاف اليها جزءاً من بلاد الشام و بقيت دولة ابن طولون ٣٧ سنة ثم عادت مصر الى ملك العباسيين وجاءها الولاة من بغداد حوالى ٣٠ سنة . ولكن حالة البلاد لم تكن على ما يرضاه لهـا انصارها . وكان الفواطم من آن لآن يعكرون عليها صفوها بغزواتهم وغاراتهم . فولي الخليفة على مصر أحد ابناء ملوك فرغانة وهو محمـد بن طغج الاخشيد (١) الذى كان قد تقلد من قبل منصبا فى مصر فانتهى به الأمر ان استقل بها كما فعـل ابن طولون من قبله واستولى على قسم من بلاد الشام وكانت الحروب تتوالى بين الاخشيد و بنى حمدان . وكانت مدن الشام تارة مع هذا وتارة مع هؤلاء — وأخذ الاخشيد البيعة من قواده لابنه أنوجور من بعده فجعل الملك بذلك وراثة فى أولاده — وخلفه ولده انوجور ابو القاسم فى ملك مصر وملحقاتها وكان لا يزال صغيراً فقام بتدبير الشؤون العـامة فى القطر رجال الدولة وعلى رأسهم كافور قيما على الملك القاصر و بقى هو الامير الحقيقي للبـلاد حتى مات انوجور سنة ٣٤٩ وتولى بعـده أخوه ابو الحسن على بن الاخشيد فكان الأمر والنهى لـكافور أيضـاً وقـد بلغ من سلطانه أن منع الناس من الاجتماع بالأمير حتى مات سنه ٣٥٥ فتولى كافور ملك مصر والشام والحجاز بأمر الخليفة و بقى فى الولاية سنتين وثلاثة أشهر تقريبا ثم مات سنه ٣٥٧ — فكانت مدة اتصال المتنبى بكافور ايام كان قيما ومسيطراً على انوجور (٣٤٦ — ٣٤٩) ووزيراً مستبدا بابى الحسن (٣٤٩ — ٣٥٠)

وبما أن المقام لا يتسع لاطالة الكلام على كافور فانى انقل فقرة مختصرة من كتاب عصرى : « . . واصله عبـد حبشى خصىّ اشتراه الاخشيد من بعض

---

(١) الاخشيد لقب ملوك فرغانة وقد ابقى الخليفة هذا اللقب لابن طغج اعترافا له بالفضل

أهل مصر بثمانية عشر دينارا فما زال يتقدم عنده لعقله وحسن رأيه وشجاعته الى أن صار من اكبرالقواد الذين أسسوا له دولته. ولم يبلغ أحد من الخصيان ما بلغه كافور هذا: ملك أنفس ممالك الاسلام وخدمه كبار العلماء، ومدحه المتنبي ...„ (١)

قد يكون الخلاف بين التاريخ والأدب عظيما في بعض الاحيان وهذا كافور الاخشيدي مثال نستشهد به في هذا المقام — لقد رأينا أقوال المؤرخين فيه أما الأدباء فهاك ماقالوه: « وكافور هذا عبد أسود خصي مثقوب الشفة السفلي بطين قبيح القدمين ثقيل البدن لا فرق بينه و بين الأمة وقد سئل عنه بعض بنى هلال فقال رأيت أمة سوداء تأمر وتنهى. وكان هذا الاسود لقوم من أهل مصر يعرفون ببنى عباس يستخدمونه فى مصالح السوق وكان ابن عباس يربط في رأسه حبلا اذا أراد النوم فاذا أراد منه حاجة جذبه بالحبل لأنه لم يكن ينتبه بالصياح. وكانت غلمان ابن طغج يصفعونه فى الاسواق كلما رأوه، فيضحك. فقالوا هذا الاسود خفيف الروح وكلموا صاحبه في بيعه فوهبه لهم فقلدوه على وظيفة الخدمة. ومات سيده ابو بكر بن طغج وولده صغير فتقيد الاسود بخدمته وخدمة والدته فقرّب من شاء. فتقرب الناس اليه من صغر همتهم وخسة انفسهم وسعى بعضهم ببعض حتي صار الرجل لا يأمن أهل داره علي أسراره وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده ثم ملك الامر على ابن سيده وأمر أن لا يكلمه أحد من مماليك أبيه ومن كلمه أتلفه. فلما كبر ابن سيده وتبين ماهو فيه جعل يبوح بما فى نفسه فى بعض الأوقات على الشراب ففزع الأسود منه وسقاه سما فقتله وخلت مصر له» (٢). — ولعل هذا ماقصده شاعرنا بقوله

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد؟

***

لما قدم ابو الطيب على كافور أمر له بمنزل ووكل له جماعة لخدمته وأظهر التهمة له

---

(١) تاريخ مصر تأليف عمر الاسكندرى و ا. ج. سفيدج ص٢٠٨ ج١ راجع ايضاً ابن خلكان ص٦١٤ وما بعدها (٢) الصبح المنبي ص١١١ج١

وطالبه بمدحه فخلع عليه وحمل اليه الاف الدراهم فقال ابو الطيب قصيدته التي مطلعها

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وكان يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفان وفي وسطه سيف ومنطقة و يركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق وكان لايجلس في مجلس كافور (١)

أول ماقدم أبو الطيب على كافور فاتحه بامنيته وما زال يلح عليه في تحقيقها حتى وقعت بينهما الوحشة التي افترقا على أثرها : تلك الامنية هي أحدى الولايات التابعة لمصر سواء كانت في الصعيد أو في الشام (٢) . — قال في أول قصيدة أنشدها اياه

وغير كثير أن يزورك راجل   فيرجع ملكا للعراقين واليا

فقدتم ب الجيش الذي جاء غازيا   لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

وقد ذكرت في باب أخلاق المتنبي كثيرا من أشعاره التي ألحف بها في الطلب لدى كافور ولكن الرجل تغاضى عنه أولا ثم كاشفه بضميره آخر الامر . فقال له أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك الى النبوة فان أصبت ولاية وصار لك اتباع فمن يطيقك (٣) ويتداول الأدباء قولا مشهورا لكافور « ان من يدعي النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم اما يدعي الولاية مع كافور (٤)

ولما تناثرت آمال المتنبي كما تتناثر أوراق الزهرة الذابلة واحدة فواحدة وجد اليأس الى قلبه سبيلا فايقظ فيه الأحقاد والأضغان وأجاش صدره بالمعاني الغضبية التي بقيت تذكارا مؤلما عن أقامته بمصر كقوله

وكم ذا بمصر من المضحكات   ولكنه ضحك كالبكا

وقال : « ومصر لعمري أهل كل عجيبة »

كما قال هيرودوت المؤرخ اليوناني القديم « مصر بلاد العجائب »

و بمناسبة مصر قال عن المسلمين :

---

(١) و (٢) و (٣) الصبح المنبي ص ١١١ ج ١ وما بعدها

(٤) جورجي زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٤٧ ج ٢

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ؟ يا أمة ضحكت من جهلها الامم

هذا ماتركه شاعرنا لمصر بالذات ولكنه ترك لكافور ما لا يفنى من الأهاجي التي خرج بها على الادب وغطت على محاسنه التي اجاد فيها أيما اجادة مدة أقامته بمصر . لأن شعره الذي قاله في هذه المدة — على قلته — تغلب فيه السلامة من العيوب وهو شعر وجداني في غالب الأحوال صادر عن نفس حساسة متأثرة فبعد أن كان يحمل حملاته المنكرة على سيف الدولة ويعلق آماله بكافور أنقلب الأمر الى الضد وظهرت حسنات سيف الدولة ومساوى كافور — فقال

وقدرت من فرط الجهالة أنني أقيم على كذب رصيف مصنع
أقيم على عبد خصي منافق لئيم ردىء الفعل للجود مدع
وأترك سيف الدولة الملك الرضى كريم المحيا اروعا وابن اروع

وبعد أن كان يكثر من ذكر كنية « أبي المسك » ويولد منها الأوصاف الجميلة : فيقول «« أبا كل طيب لا أبا المسك وحده »» انتحل له كنية قذرة جاءت في القصيدة التي ذكرت بعض أبياتها قبل فكناه «« ابا النتن »»

***

وكان أحب أهل مصر الى المتنبي الامير أبو شجاع فاتك الاخشيدي(١) وقد

---

(١) هو مملوك رومي الاصل وكان سيده قد اعتقه بالرملة عند ما اراد الاخشيد ان يأخذه منه كرها . وكان شجاعا مقداماً ولذلك لقب بالمجنون . وكان رفيق الاستاذ كافور في خدمة الاخشيد . فلما مات مخدومهما وتقرر كافور في خدمة ابن الاخشيد انف فاتك من الاقامة بمصر كي لا يكون كافور اعلى رتبة منه ويحتاج ان يركب في خدمته . وكانت الفيوم واعمالها اقطاعا له فانتقل اليها واتخذها مسكنا . وهي بلاد وبيئة كثيرة الوخم فلم يصح له بها جسم . وكان كافور يخافه ويكرمه فزعا منه وفي نفسه منه ما فيها . فاستحكمت العلة في جسم فاتك واحوجته الى دخول مصر للمعالجة . فدخلها وبها ابو الطيب المتنبي ضيفا للاستاذ كافور . وكان يسمع بكرم فاتك وكثرة شجاعته غير انه

فمدحه المتنبي بقصيدته التي مطلعها

لاخيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

ورثاه بالعينية المشهورة التي أولها

الحزن يقلق والتجمل يردع   والدمع بينهما عصي طيع

وقد عني المستشرق المسيو جرنجيريه ده لاجرانج (١) بنقل اشعار المتنبي في فاتك الاخشيدي الى اللغة الفرنسية — وهي اربع قصائد ونشرها في المجلة الاسيوية والمستشرق المذكور من المعجبين بشعر المتنبي وقد اراد ان ينحو نحو استاذه البارون سيلفستر ده ساسي (٢) صاحب المختارات العربية وأول فرنسي دل على شعر المتنبي في فرنسا — بجمع مختارات عربية اخرى يصدرها بقطع منتخبة من شعر المتنبي فنقل هذه القصائد الاربع

* *

وكما أثار المتنبي على نفسه غضب آل حمدان عند سيف الدولة فانه اكتسب أيضا عداوة وزير كافور أبي الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابه (٣) قال الوحيدي « كنت بمصر وبها أبو الطيب ووقفت من امره على شفا

لا يقدر على قصد خدمته خوفا من كافور ، وفاتك يسأل عنه ويراسله بالسلام ثم التقيا بالصحراء مصادفة من غير ميعاد وجرت بينهما مفاوضات فلما رجع فاتك الى داره حمل لابي الطيب في ساعته هدية قيمتها الف دينار ثم اتبعها هدايا بعدها فاستأذن المتنبي الاستاذ كافور في مدحه فأذن له فمدحه سنة ٣٤٨ بقصيدته المشهورة : « لاخيل عندك تهديها ولا مال » (عن ابن خلكان ص ٥٧٩ ج ١)

(١) J. B. Gıargeıet de la Grange — Journal Asiatique
ص ٣٣٥ ج ١ سنة ١٨٢٢

(٢) Silveıstre de Sacy

(٣) اسم أم أبيه

الهلاك ودعتني نفسي لحب أهل الادب الى ان احثه على الخروج من مصر فخشيت علي نفسي أن يشيع ذلك عني وكان هو مستعدا للهرب وأنا فات اظافير الموت ومخالب المنية من قرب. وهو جنى ذلك على نفسه لأنه ترك مدح ابن حنزابه وهو وزير كافور والمقرب منه وهو مع ذلك من بيت شريف أهل وزارة ورياسة ومن أهل العلم والادب بموضع جليل وهو باب الملك فأتى من غير الباب(١)

روي ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان(٢) : ذكر الخطيب ابو زكريا التبريزي في شرحه ديوان المتنبي أن أبا الطيب لما قصد مصر ومدح كافوراً ومدح الوزير أبا الفضل بقصيدته الرائية التى أولها « باد هواك صبرت أم لم تصبرا . وجعلها موسومة باسمه فتكون أحدى القوافي « جعفراً » وكان منها

صغت السوار لاى كف بشرت ... بابن الفرات وأي عبد كبرا

فلما لم يرضه صرفها عنه ولم ينشده أياها . فلما توجه الى عضد الدولة قصد ارجان وبها أبو الفضل بن العميد فحول القصيدة اليه ومدحه بها (فابدل ابن الفرات بابن العميد) وذكر الخطيب أيضا في الشرح المذكور عن قول المتنبي في القصيده المقصورة

وماذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي من اهل السواد ... يدرس أنساب أهل الفلا
و « اسود » مشفره نصفه ... يقال له أنت بدر الدجا

ان المراد بالنبطي "ابو الفضل" والاسود "كافور" — ونقل أيضا عن الوزير ابي القاسم المغربي (٣) في كتاب "أدب الخواص" . كنت احادث الوزير ابا الفضل جعفر واجاريه شعر المتنبي فيظهر من تفضيله زيادة تنبه على

---

(١) الصبح المنبي ص ١١٦ و ١١٧ ج ١
(٢) ص ١٥٥ و ١٥٦ ج ١
(٣) قال في أول كتابه المذكور : وأخواننا المغاربه يسمونه المتنبه
(ابن خلكان ص ٢٢٢ ج ١)

ما في نفسه ، خوفاً من أن يرى بصورة من ثناه الغضب الخاص ، عن قول الصدق في الحكم العام . وذلك من أجل الهجاء الذى عرض له به المتنبى ، — باختصار

وفى الديوان قطعة ذات أربعة أبيات يفهم منهـا عزم أبى الطيب على الهرب واستمداده له فقد قيل فى عنوان هذه القطعة « وكتب الى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي فى بلبيس يطالب منه دليلا فنفذه اليه فقال يمدحه :

جزى عربا أمست ببلبيس ... الخ

***

طال الحاح أبى الطيب فى طلب بغيته لدى كافور وطال أعراض كافور عنه وكان آخر ما قاله الشاعر لأميره قصيدته التى منها

وفى النفس حاجات وفيك فطانة   سكوتى كلام عندها وخطاب

« وانقطع أبو الطيب بعد انشاد هذه القصيده سنة لايلقى أميره ألا ان يركب فى خدمته فيسير معه فى الطريق خوفا منه . ثم عجل الرحيل وقد أعد كل ما يحتاج اليه علي ممر الايام بلطف ورفق لا يعلم به أحد من غلمانه وهو يظهر الرغبة فى المقام وطال عليه التحفظ ودفن الرماح فى الرمال وحمل الماء على الابل لعشر ليال وتزود لعشرين . وقال فى يوم عرفة من سنة خمسين وثلثمائة قبل مسيره من مصر بيوم

عيد ! بأية حال عدت يا عيد ؟   بما مضى ؟ أم لأمر فيك تجديد ؟ » (١)

***

عجيب من أبى الطيب أن يجيء الى مصر مهد الحضارة القديمة ولايخصها بقصيدة يذكر فيها آثارها ويشير الى مجدها . ولكن اذا علمنا انه ما جاء الى مصر لدرس الآثار وتمجيد الاسلاف العظام وانما جاء لحاجة فى نفسه لم يقضها رجعنا عن العتب عليه . الا أنه لم ينس فى شعره أن يذكر مافى مصر من النعم والعبر : أشار الى النيل فى قصيدة أرسلها ألى ضيف الدولة فيما بعد فقال

(١) ابن خلكان ص ٦١٦ ج ١ — الصبح المنبي ص ١٣٦ ج ١

من عبيدى أن عشت لى الف كافــور ولي من نداك ريف ونيل

وأشار الى الاهرام فى رثاء ابى شجاع :

اين الذى الهرمان من بنيانه ؟ ما يومه ؟ ما قومه ؟ ما المصرع ؟

وأشار الى النيل والمقطم فى قصيدة من قصائده الاولى فى كافور يذكر فيها دخوله مصر بعد ذكر خيله وابله

وسمنا بها البيداء حتى تغمرت من النيل واستذرت بظل المقطم

فلنكتف بالفاظ النيل والمقطم والاهرام مادامت آمال ابى الطيب قد شغلته عن تمجيدها او وصف شيء منها كما فعل فى « شِعب بوّان » ببلاد فارس عند ماقصد تلك الجهات

هرب المتنبى من مصر فى يوم العيد الاكبر - ولعله انتهز فرصة اشتغال الناس بالاضاحى فى ذلك اليوم حتي لا يلاحظ تغيبه عن معارفه — وبذل كافور جهــده فى أقتفاء أثره فلم يفلح . ومازال أبو الطيب سائرا يقطع المفاوز والقفار حتي وصل الى الكوفة فى الاشهر الاولى من سنة ٣٥١ ومر فى طريقه بمواضع متعددة ذكرها فى قصيدته التى مطلعها « الا كلّ ماشية الخيزلى » قال بعد وصف خيله :

ضربت بها (التيه) ضرب القما ر اما لهــذا واما لذا

فمرت بـ (نخل) وفى ركبها عن العالمين وعنه غنى

وأمست تخبّرنا بـ (النقــا ب)(وادى المياه)و(وادى القرى)

وقلنا لها أين أرض (العراق) فقالت ونحن بـ (تربان) ها

وهبت بـ (حسمي) هبوب الدبو ر مستقبلات مهب الصبا

جاء فى الديوان بعض أبيات ذكر فى عنوانها : « ونزل ابو الطيب فى أرض حسمى برجل يقال له وردان بن ربيعة الطائى فاستغوى وردان عبيد أبى الطيب فجعلوا يسرقون له من امتعته فلما شعر ابو الطيب بذلك ضرب أحــدهم بالسيف فأصاب وجهه وأمر الغلمان فاجهزوا عليه وقال يهجو وردان ... » ثم الأبيات . وجاء في الصبح المنبي تفصيل مطول لهذه الحادثة وأهم مافيها ان وردان هذا كان يغرى

عبيد أبي الطيبَ بواسطة امرأته ويشير ابو الطيب الى ذلك في قوله

أشذ بعرسه عني عبيدي ... فأتلفهم ومالى أتلفوه

ولعل أبا الطيب قد اخترع مسألة الاغراء بواسطة الزوجة لأنه مشهور في هجائه بالفحش كما سيأتي ذلك في موضعه ان شاء الله — ولنعد الى وصل ما انقطع:

روامى (الكفاف) و (كبد الوهاد) ... و (جار البويرة) (وادى الغضى)

وجابت (بُسيطة) جوب الردا ... ء بين النعام وبين المهى

وذكر في الديوان أيضاً ما يأتي: « ولما بلغ ابو الطيب الي بُسيطة رأى بعض عبيده ثورا فقال هذه منارة الجامع ورأى آخر نعامة فقال وهذه نخلة فضحك ابو الطيب وقال

بُسيطة مهلا سقيت القطارا ... تركت عيون عبيدى حيارى

فظنوا النعام عليك النخيل ... وظنوا الصِوار عليك المنارا

فامسك صحبي بأكوارهم ... وقد قصد الضحك فيهم وجارا

ولنرجع الى المقصورة المتقدمة

الى (عقدة الجوف) حتى شفت ... بـ (ماء الجراوى) بعض الصدى

ولاح لها (صَور) والصباح ... ولاح (الشغور) لها والضحى

ومسى (الجميعيّ) دئداؤها ... وغادى (الاضارع) ثم (الدّنا)

فيالك ليلا علي (اعكش) ... احمّ البلاد خفى الصوى

وردنا (الرهيمة) في جوزه ... وباقيه اكثر مما مضى

فلما انخنا ركزنا الرما ... ح بين مكارمنا والعلى

وبتنا نقبّل اسيافنا ... ونمسحها من دماء العدى

اوردت هذا الجزء من مقصورة شاعرنا لارسم الطريق التي اتخذها بين مصر والكوفة — وصف الشاعر خروجه من جبل التيه « تيه بنى اسرائيل » في شبه جزيرة سينا — ثم مروره بنخل ووصوله الي النقاب حيث انفرج امامه طريقان وادي

المياه ووداى القرى — ولما وصل تربان علم أنه دخل بلاد العراق. ولماجاءحسمى وجه ركبه من المغرب الي المشرق ، من مهب ريح الدبور الى مهب الصباء ومازال ينتقل من موضع الى موضع ومن محلة الي محلة حتى انتهي الى الرهيمة وهي قرية بجانب الكوفة خربت فى الاربعمائة — على رأي العكبرى —

***

ابو الطيب بين الكوفة وبغداد (٣٥١ ـ ٣٥٣)

هذا الدور القصير من حياة المتنبي كان أشبه شيء بالإستراحة التى يقضيها الانسان من عناء الاعمال فلم يتصل بأحد من الامراء على كثرتهم فى بغداد ولعله لم يوفق الى أمير يوافق مزاجه ينسيه ما كان من أمر كافور معه . و يظهر أيضاً أن غضبه علي كافور بعد ان فشل فى مسعاه لديه وخاب أمله فى نيل ولاية من ولاياته زادت فى نفس شاعرنا الكآبة فعاش فى معزل عن الناس ولم يقصد أحداً من أولى الشأن فى بغداد قاعدة الخلافة ومقر آل بويه الذين انتهى اليهم ملك الدولة الاسلامية فى ذلك الوقت

الا ان تفاصيل هذا الدور غير معلومة وغاية ما يعرف عنها بعض حوادث اشتهرت عند أهل الأدب . وكذلك لا يعلم متى قصد بغداد ولا المدة التي قضاها بها

كان السيد المطلق فى بغداد عندما قصدها المتنبى — معز الدولة بن بويه (١) فاتح العراق الذى جلب عليه الخراب بعد ان كان جنة الدنيا فلم يمدحه وأبى عليه كبره أن يقصده فسرعان ما هاجت عليه خواطر الشعراء بايعاز «المهلبي» وزير معز الدولة (٢) الذى اغرى بأبى الطيب شعراء بغداد وادباءها فنالوا من عرضه ما شاءوا . ولكنه اعرض عن اهاجيهم ونعما فعل وقال قد فرغت من اجابتهم بتولى لمن هم ارفع درجة فى الشعر منهم :

---

(١) ويقال له الأقطع لأنه كان مقطوع اليد اليسرى وبعض اصابع اليمنى

(٢) صورة المهلبي : كان له جلة من الفقهاء والقضاة ينادمونه ويجتمعون عنده فى الاسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة وهم القاضي ابو بكر بن قريعة وابن معروف والتنوخي وغيرهم . وما منهم م الا

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا
واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنيّ كامل

هذه الحرب التي أثارها الوزير المهلبي — لأن المتنبي لم يمدحه ذاهبا بنفسه عن مدح غير الملوك — زهدت ابا الطيب في دار السلام فكان ينتقل بينها وبين الكوفة على مايظهر من القصائد التي كان يقولها في ذلك الوقت

في الديوان وشرحه قصيدة عنوانها « قال يمدح ابا الفوارس دلير بن لشكروز وكان أتى الكوفة لقتال الخارجي الذي نجم بها من بني كلاب وانصرف الخارجي قبل وصول دلير اليها سنة ٣٥٣ » : « كدعواك كل يدعي صحة العقل »

وفي المجلة الاسيوية (١) ترجمة القصيدة المذكورة بقلم المستشرق الفرنسي المسيو جرانجيريه ده لاجرانج الذي سبقت الاشارة اليه وقد شرح المترجم هذه الحادثة شرحا مطولا لم أره الا في هذه المقالة وقال ان المتنبي خرج لمحاربة بني كلاب وجُرح حصان غلامه ...

ومثل معز الدولة الذي كان شؤما على العراق بجبروته لا يروق في عين

ابيض اللحية طويلها وكذلك كان المهلبي . فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب من الف مثقال الى ما دونها مملوءاً شراباً قطربلياً أو عكبرياً فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تشرب اكثره ويرش بها بعضهم بعضاً ويرقصون باجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق المنثور والبرم فاذا أصبحوا عادوا كعادتهم في التوقر والتحفظ بابهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء (وفيات الاعيان ص ٥٠٣ ج ١)

(١) سنة ١٨٢٤ ص ٨٠ ج ٤ .

ابى الطيب ولا يأمن جانبه خصوصاً بعد تلك الحالة المنكرة التي نجد صورتها فى الرسالة الحاتمية (١) ولعله فى هذه المناسبة أيضا قد تمثل بقوله :

---

(١) ألفها أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الكاتب اللغوي المعروف بالحاتمى وسماها « المرضحة » وهى تقع فى اثنتي عشرة كراسة كما يقول ابن خلكان وقد اثبت الصبح المنبى قسما كبيراً منها (ص ١٤٤ — ١٧٣ ج ١) وذكر ابن خلكان مقدمتها (ص ٧٢٨ — ٧٣١ ج ١) وهي تختلف بعض الاختلاف عن رواية الصبح المنبي ، واليك خلاصتها : قال الحاتمى :

« كان ابو الطيب عند وروده مدينة السلام قد التحف رداء الكبر والعظمة ، يخيل له أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر لا يغترف عذبه غيره ، ولا يقتطف نوره سواه . . . وثقلت وطأته على أهل الادب . . . وتخيل الوزير المهلبي أنه لا يتمكن أحد من مساجلته ومقارعته ولا يقوم لمجادلته . . . وساء معز الدولة أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ولم يكن بمملكته احد يماثله فيما هوفيه يبدى لهم عواره ، ويخفى آثاره ، ويهتك اسراره ، ويمزق جلابيب مساويه . — فتوخيت ان يجمعنا مجلس اجري انا وهوفى مضمار يعرف به السابق من المسبوق — وكنت اذ ذاك ذا سحاب مدرار ، وزند فى كل فضيلة وار ، وطبع يناسب صفو العقار ، اذا وشيت بالحباب ووشت بها سائر الاكواب ، هذا وغدير الصبا صاف ، ورداؤه ضاف ، وديباجة العيش غضة ، والشبيبة شرة ، والاقبال من الدهر غرة ، والخيل تجري يوم الرهان باقبال اربابها ، لا بعروقها وانصابها . . . حتي اذا عدت عن اجتماعنا عواد من الايام قصدت مستقره . . . وكان قد اقام هناك سوقا عند اغيلمة لم ترضهم العلماء ، ولا عركتهم رحا الظراء ، ولا فرقوا بين حلو الكلام ومره ، وسهله ووعره . . . فالفيت فتية تأخذ عنه شيئاً من شعره . . . فحين اوذن بحضوري واستؤذن عليه بدخولى نهض من مجلسه مسرعا ودخل بيتا الى جانبه ونزلت عن بغلتي وهو يرانى ، ودخلت فاعظمت الجماعة قدري واجلستنى فى مجلسه . . . واذا تحته اخلاق عباءة قد الحت عليها الحوادث فهى رسوم دائرة ، واسلاك متناثرة . فلما خرج الى نهضت اليه فوفيته حق السلام

اذا صديق نكرت جانبه   لم تعيني في تركه الحيل

غير مشاح له فى ذلك — وكان سبب قيامه من مجلسه لئلا يقوم لى عند موافاتى — واذا به لابس سبعة اقبية كل قباء منها بلون ، وكنا فى وغرة القيظ وجرة الصيف ، فى يوم تكاد ودائع الهامات تسيل فيه ، فجلست مستوفزا ، وجلس متحفزا ، واعرض عنى لاهيا ، واعرضت عنه ساهيا ؛ لايعيرني طرفا ، ولا يكلمني حرفا ، وكدت اتميز غيظا . . . واقبلت استخف رأيي فى قصده واعاتب نفسي فى التوجه الى مثله . . . واقبل على تلك الزعنفة التى بين يديه ، وكل منهم يوحى بطرفه ويشير الى مكاني ويوقظه من سنة جهله فما يزداد الا ازوارا ونفارا ، وعتوا واستكباراً . . . ثم رأى ان يثنى جانبه الى ، ويقبل بعض الاقبال على ، فاقسم بالوفاء والكرم ، وهما من محاسن القسم ، انه لم يزد على ان قال « ايش خبرك » . فقلت بخير أنا لولا ما جنيته على نفسي من قصدك وكلفت نفسى من السعى الى مثلك ... ثم تحدرت عليه تحدر السيل الى قرارة الوادي وقلت ابن لى مم تيهك وخيلاؤك وعجبك وكبرياؤك ؟ هل هاهنا نسب يورثك الفخر ؟ او شرف توحدت به دون أبناء الدهر ؟ أو علم أصبحت فيه علما يقع الايماء اليه ؟ او مورد تقف الهمم عليه ؟ وهل انت الا وتد بقاع ، فى اشر البقاع ؟ ... انك لو قدرت نفسك بقدرها ووزنتها بميزانها ، ولم يذهب بك التيه مذهباً ، لما عدوت ان تكون شاعراً متكسباً ... فامتقع لونه وغص بريقه — واقول له ياهذا اذا أتاك شريف فى نسبه تجاهلت عليه أو عظيم فى ادبه صغرت قدره او مقدم عند سلطان لم تعرف موضعه . هل الفراتان لك دون غيرك ؟ لا والله ؛ ولكنك مددت الكبر سرادقاً وركبته رواقاً دون جهلك . — فعاد الى الاعتذار واخذت الجماعة فى تليين جانبي والرغبة فى قبول عذره واعمال مياسرته ومساحته . ويحلف بالله انه لم يعرفنى فاقول الم يستأذن عليك باسمى ؟ اما كان من هؤلاء الجماعة من يعرفك بي ان كنت جهلتنى ؟ وهب كان ذلك — الم تر تحتي بغلة رائعة يعلوها مركب ثقيل وبين يدي عدة غلمان ؟ اما شاهدت

في سعة الخافقين مضطرب　　وفي بلاد من اختها بدل

***

شعر ابي الطيب في هذه المدة قليل ولكنه جيد وغالبه شعر وجداني قاله وهو متأثر . واهم مافيه قصائده في سيف الدولة وهو بعيد عنه وقصائده التي رثى بها فاتكا فقد بكاه بكاء صادقا ولو ان حزنه كان ممزوجا بالحقد على كافور

***

« قيل ان الصاحب ابن عباد (١) طمع في زيارة المتنبي اياه بأصفهان واجرائه

مابسي ؟ اما شممت نشري ؟ أما راعك شيء من امري اتميز به عن غيري؟ — وهو خافض جناح الذل وقد زال عنه ما كان فيه — واقبل علي واقبلت عليه ثم قلت له ياهذا يختلج في صدري اشياء من شعرك اريد ان اسألك عنها واراجعك فيها . قال وماهي ؟ قلت . . . . . (ودارت المناقشة بينهما في ابيات عدة) . . . وشرع الجماعة يسألونني العفو عنه وقبول عذره . وكنت بلغت شيئاً كان في صدري وعلمت أن الزيادة على الحد الذي انتهيت اليه ضرب من الأشر والبغي لااراه في مذهبي . ورأيت له حق التقدم في صنعته فطاطأت له كنفي واستأنفت من وضعه . . . ونهضت فنهض لي مشيعا الى باب الدار حتى ركبت وأقسمت عليه أن يعود الى مكانه ... وتشاغلت بقية يومي بشغل عن لي عن حضرة الوزير المهلبي وانتهي اليه الخبر فأتتني رسله ليلا فسرت اليه وقصصت عليه القصة بتمامها فحصل له من السرور والابتهاج بما جرى مابعثه على مباكرة معز الدولة وأخبره بكل ما أخبرته . — وقال لي الرئيس ابو القاسم محمد بن العباس انه بمجرد دخوله على معز الدولة قال اعلمت ما كان من ابي علي الحاتمي والمتنبي ؟ فانه شفى منه صدرا . . . »

(١) هو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب ابا الفضل ابن العميد فقيل له «صاحب ابن العميد» — وذكر الصابي في كتاب التاجي انه انما قيل له الصاحب لانه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا وسماه «الصاحب» فاستمر عليه هذا اللقب ثم سمي به كل من ولي الوزارة بعده (ابن خلكان

بحرى قصاده من رؤساء الزمان وهو اذ ذاك شاب والحال حويلة والبحر دجيلة ولم يكن استوزر بعد فكتب يلاطفه فى استدعائه ويضمن له مشاطرته جميع ماله فلم يقم له المتنبي وزناولم يجبه عن كتابه . وقيل ان المتنبي قال لاصحابه « ان غلاما معطاء بالري يريد ان ازوره وامدحه ولا سبيل الى ذلك » فصيره الصاحب غرضا يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبع سقطاته فى شعره وهفواته وينعى اليه سيآته وهو اعرف الناس بحسناته واحفظهم واكثرهم استعمالا وتمثلا بها فى مكاتباته ومحاضراته » (١)

***

أبو الطيب فى بلاد فارس (٣٥٣ — ٣٥٤) ابن العميد

كان العصر الذى نحن بصدده عصر أدب وفضل على رغم الاضطرابات السياسية وكان الوزراء ممن لهم حظ وافر من العلم المعروف فى زمانهم وهو يتناول فروعا عدة من الآداب . ولذلك تسابقوا الى اكتساب الشعراء واصطناعهم وعز عليهم أن يقدم الى بلادهم أديب معروف او شاعر مفلق دون ان يقصدهم وينزل فى ذرامهم وهذا ما اوغر صدر الوزير المهلبى على المتنبي كما رأينا قبل . وهذا أيضاً ماحرض الصاحب ابن عباد على الوقوف بالمرصاد لشاعرنا ومحاسبته على الهفوات الصغيرة والكبيرة . ويخيل الىّ ان ابا الطيب لو كان قصده وانزله منزلة الامراء لما كان عرض به بل كان من خيرة أنصاره والف في الدفاع عنه بدل ما الف فى اظهار مساويه .

جاء فى ديوان أبى الطيب : وخرج من الكوفة الى العراق فراسله ابن

ص ١٠٥ ج ١) — وله كتاب الكشف عن مساوي المتنبي — طبع على التوالى فى جريدة المنور بمصر — وفى المكتبة السلطانية رسالة مخطوطة عنوانها الأمثال السائرة من شعر المتنبي جمعها الصاحب ابن عباد (أدب رقم ١١)

(١) الصبح المنبي ١٨٠ — ١٨١ ج ١

العميد (١) ابو الفضل بن الحسين وزير ركن الدولة من ارَّجان فسار اليه

ـ وابن العميد ممن لهم ذكر عاطر فى الأدب والنقدوقد ابدى بعض الملاحظات على اشعار ابى الطيب وأشار المتنبي نفسه الي هذا النقد فى احدى قصائده

قال صاحب الصبح المنبى « وكان أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد يسمع بأخبار أبي الطايب وكيف اشتهاره فى الاقطار وترفعه عن مدح الوزراء وسمع انه خرج من مدينة السلام متوجها الي فارس وكان يخاف ان لا يمدحه ويعامله معاملة المهلبي فيتكره من ذكره ويعرض عن سماع شعره » (٢)

وقال أيضا : وفى صفر سنة اربع وخمسين وثلثمائةو رد على الفضل بن العميدوهو بارجان لحسن موقعه منه وأنشده

بادٍ هواكَ صبرت أم لم تصبرا وبكاكَ ان لم يجر دمعكَ أو جرى(٣)

ولم تطل مدة اقامته عند ابن العميد ولم يقل فيه شعرا كثيرا وقد نظم له قصيدة تهنئة بالنيروز أشار فيها أبو الطيب الى ما أبداه ابن العميد من الانتقاد على قصيدته الاولى قال :

هل لعذرى عند الامام أبى الفضل قبولٌ ؟ سواد عينى مدادهْ
أنا من شدة الحياء عليل مكرمات المعاه عوّادهْ
ما كفانى تقصير ما قلت فيه عن علاه حتى ثناه انتقادهْ

---

(١) كان متوسعاً فى الفلسفة والنجوم فضلاً عن الأدب والترسل حتى سموه « الاستاذ » وكان يلقب لبراعته فى الترسل بالجاحظ الثانى . وقيل بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد . عاد الصاحب ابن عباد مرة من بغداد — وكان من اتباع ابن العميد — فسأله ابن العميد عنها فقال « بغداد فى البلاد كالاستاذ فى العباد » يشير الى تفرده فى العلم (جورجى زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٦٩ و ٢٧٠ ج ٢)

(٢) و (٣) ص ١٨٢ — ١٨٤ ج ١ — سبقت الاشارة الى ان قصيدة « باد هواك » نظمت فى ابن الفرات وزير كافور ولكنها لم تنشد له

انى اصيد البزاة ولكنّ أجلّ النجوم لا اصطاده
رُب مالا يعبر اللفظ عنه والذى يضمر الفؤاد اعتقاده
ماتعودت ان أرى كابى الفضل وهذا الذي أتاه اعتياده
ان فى الموج للغريق لعذرا واضحا أن يفوته تعداده
للندى الغلاب انه فاض والشعر عمادى وابن العميد عماده

ولا اتصدى لمواضع النقد التى عابها ابن العميد فانها مبينة فى شرح الديوان وانما اذكر حادثة صغيرة تتعلق بالقصيدة رواها صاحب كتاب الصبح المنبي وهى هذه :

« تنازع ندماء ابن العميد فى البيت الاخير

فترى الفضيلة لا ترد فضيلة الشمس تشرق والسحاب كنهورا

فقال أثبتوه حتى أتأمله فاثبت البيت ووضع بين يديه فاطرق مليا يفكر فيه ثم قال هذا يعطلنا عن المهم وماكان الرجل يدرى ما يقول »(١)

ان مانظمه أبو الطيب فى ابن العميد قصيدة القدوم وقصيدة التهنئة بالنيروز وقطعتين صغيرتين الاولى فى خمسة أبيات والثانية فى أربعة وقصيدة الوداع التى مطلعها

نسيت وما أنسى عتابا على الصد ولا خفرا زادت به حمرة الخد

وفيها حسنات لابي الطيب وبعض أفكار فلسفية وبراعة المقطع فيها مما يؤثر عنه :

فجدلى بقلب ان رحلت فاننى مخلف قلبي عند من فضله عندى
ولو فارقت نفسى اليك حياتها لقلت أصابت غير مذمومة العهد

ثم سار الى عضد الدولة الامير الخطير الذى يعد من أكبر ملوك الاسلام

***

ابو الطيب عند عضد الدولة (٣٥٤)

هو الذى قال عن نفسه

عضد الدولة وابن ركنها مالك الاملاك غلاب القدر

---

(١) ص١٩٢ — ١٩٣ ج ١

وقال فيه ابو الطيب

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

ملك من أبناء الاعاجم (١) يحب العربية وينظم الشعر . — وقد جمع حوله لفيفا من أهل الادب يؤلفون له الكتب وكانت لهم مع أبي الطيب نوادر معروفة منهم عبد العزيز الجرجاني وأبو على الفارسي وابن جنى والربعي وغيرهم

قصد أبو الطيب ذلك الامير الجليل بناء على كتاب أرسله اليه يستزيره فيه كما يقول الديوان — ولكن لم تطل مدة اقامته عنده بشيراز . على أن الشعر الذى قاله فيه متين ناضج حافل بالمعاني المختلفة كثير بالنسبة للمدة القصيرة التى قضاها عند ذلك الامير فقد قال سبع قصائد طويلة احداهن أرجوزة فى الصيد

وكان فى نية أبي الطيب عندما ودع عضد الدولة فى أول شعبان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة أن يذهب الى الكوفة ليرى أهله ثم يعود الى عضد الدولة ولكنه قتل فى طريقه . وقصيدة وداعه لذلك الامير كلها تطير وشبه تنبؤ بما سيقع له

***

مقتل ابى الطيب (٢) (٣٥٤)

قد فصل صاحب كتاب الصبح المنبى (٣) مقتل شاعرنا بما لا مزيد عليه ناقلا ما قاله الخالديان (٤) وهو رسالة بعث بها اليهما رجل من أهل الأدب يعرف بابى

---

(١) هو أول من خوطب بالملك فى الاسلام وأول من خطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة وكان من جملة القابه تاج الملة — وعندما احتضر لم يكن لسانه ينطق الا بتلاوة « ما اغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه » (وفيات الاعيان ص ٥٩٣ وما بعدها ج ١) (٢) فى خلافة المطيع — فقد عاش فى خلافة (المقتدر) والقاهر والراضى والمتقى والمستكفى والمطيع (بن المقتدر) — ولد فى خلافة الاب ومات فى خلافة الابن —

(٣) ص ٢٢٨ وما بعدها ج ١ (٤) شاعران أخوان من شعراء سيف الدولة

لمصر محمود الجبلي شرح فيها هذه الحادثة المؤلمة

وخلاصة تلك الأخبار أن المتنبي استأذن عضد الدولة في المسير الى بلده ليقضي حوائج في نفسه ثم يعود اليه فاذن له وخلع عليه ووصله بالمال الكثير. —

وأنشده قصيدته الأخيرة وفيها نعي كثير لنفسه وتوقع للهلاك كقوله

وانى شئت ياطرقي فكوني   اذاة أو نجاة أو هلاكا

وقد خرج من عند عضد الدولة ومعه مال كثير وكان مسيره من واسطه في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ٣٥٤ — وكان المتنبي قد هجا من قبل ضبة بن يزيد العتبي باقوال فاحشة وخاض في عرضه وعرض امه وكان لضبة هذا خال يسمى فاتكا كان سفا كا للدماء كأنه قد صح فيه المثل القائل بأن لكل مسمى من اسمه نصيبا فلما علم بانصراف المتنبي من بلاد فارس وتوجهه الى بلاد العراق ترصد له في الطريق ومعه جماعة من بني عمه يقصدون به الشر

يقول ابو نصر الجبلي في كتابه للخالديين بعد أن ذكر وصول ابى الطيب اليه :

« فلما أمسينا قلت له يا أبا الطيب على أي شيء أنت تجمع ؟ قال على أن اتخذ مركباً فان السير فيه يخف علي . . . . وقلت له والرأى أن يكون معك جماعة يمشون بين يديك الى بغداد . فقطب وجهه وقال لم قلت هذا القول ؟ فقلت لتستأنس بهم : فقال أنا والجزار في عنقي فما بي حاجة الى مؤنس غيره (وبعد حديث) قلت أن هذا الجاهل فاتكا الاسدى كان عندى منذ ثلاثة أيام وهو غير راض عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبة وقد تكلم بأشياء توجب الاحتراس والتيقظ ومعه أيضا نحو العشرين من بنى عمه قولهم كقوله . فقال غلام ابى الطيب وكان عاقلا الصواب ما رآه ابو نصر خذ معك عشرين رجلا يسيرون بين يديك فاغتاظ ابو الطيب من غلامه غيظا شديداً وشتمه شتما قبيحاً وقال والله لا أرضى أن يتحدث الناس بانى سرت فى خفارة أحد غير سيفي .

قال أبو نصر فقلت له ياهذا انا أوجه قوماً من قبلي في حاجة يسيرون بمسيرك وهم فى خفارتك . فقال والله لافعلت شيئاً من هذا . ثم قال يا ابا نصر كواسر الطير تخشاني

بن عبيد العصى تخاف علي ؟ والله لو أن مخصرتى هذه ملقاة علي شاطىء الفرات وبنو اسد معطشون بخمس وقد نظروا الى الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خف ولا ظالف أن يرده. معاذ الله أن اشغل فكرى بهم لحظة عين . فقلت له قل ان شاء الله تعالى . فقال هي كلمة مقولة لاتدفع مقضياً ولا تستجلب آتياً . ثم ركب فكان آخر العهد به . ولما صح عندى خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدراً . . . » . — ومما قاله فاتك المتنبى وهو يتعفر « قبحاً لهذه اللحية ياسباب »

وجاء فى مقدمة ديوانه : « . . . . ثم استأذن عضد الدولة وانصرف عنه عائد الى بغداد فالكوفة فى اوائل شعبان سنة ٣٥٤ فعرض له فاتك بن ابى جهل الاسدى فى الطريق ومعه جماعة من أصحابه ومع المتنبي جماعة من أصحابه أيضاً فقاتلوهم فقتل المتنبى وابنه محسد وغلامه مفلح بالقرب من دير العاقول(١) فى الجانب الغربى من سواد بغداد . وكان مقتله فى أواخر رمضان من السنة المذكورة »

هذه هي الرواية المشهورة عن سبب مقتله . ولكن ورد فى الصبح المنبى انه قتل بايعاز عضد الدولة . وذلك أنه لما ورد عليه ومدحه ونال جائزته وهى ثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة محلاة دس عليه الأمير من يسأله أين هذا من عطاء سيف الدولة . فقال المتنبى ان سيف الدولة كان يعطى طبعاً وعطاء عضد الدولة تطبع فغضب عضد الدولة. فلما انصرف ابو الطيب جهز اليه الامير قوماً من بنى ضبة فقتلوه بعد أن قاتل قتالا شديداً ثم انهزم فقال له غلامه أين قولك

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والحرب والضرب (٢) والقرطاس والقلم

فقال قتلتنى قتلك الله ثم قاتل حتى قتل

وروى المؤلف المذكور خبراً آخر وهو أن الخفراء جاءوا الى ابى الطيب وطلبوا منه خمسين درهما ليسيروا معه. فمنعه الشح والكبر فتقدموه ووقع به ماوقع

---

(١) بالصافية أو جبل الصافية

(٢) المشهور « والسيف والرمح »

ويخيل الى ان الصعاليك الذين خرجوا على ابى الطيب فى طريقه لم يكن قصدهم مجرد الأنتقام وانما هم قطاع طرق قد علموا ان أبا الطيب قد جاء من عند ملك جليل معطاء ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والآلات فانتهزوا هذه الفرصة مدعين انهم ينتقمون منه لشرفهم وهم انما خرجوا طمعا فى أمواله التي كان يحملها معه. ويخيل الىّ أيضا ان ابا الطيب قد استمات فى الدفاع وعاد الى القتال بعد الهرب حباً فى المال لأنه كان بخيلا حريصا على الدنيا

ورثاه بن جنى (١) شارح ديوانه وابو القاسم مظفر بن المظفر بن الطابسقى (٢) وثابت بن هرون الرقي النصراني (٣) وقد استثار عضد الدولة على فاتك الاسدى رحمه الله رحمة واسعة

---

(١) منها :

غاض القريض واودت نضرة الأدب   وصوحت بعد ري دوحة الكتب
عبرت خدن المساعى غير مضطهد   ومت كالنصل لم يدنس ولم يعب
فاذهب عليك سلام المجد ماقلقت   خوص الركائب بالأكوار والشعب

(٢) منها :

مارأى الناس ثانى المتنبى   اى ثان يرى لبكر الزمان
كان من نفسه الكبيرة فى جيش   وفى كبرياء ذى سلطان
هو فى شعره نبي ولكن   ظهرت معجزاته فى المعانى

(٣) منها :

الدهر اخبث والليالى انكد   من ان تعيش لأهلها يا (أحمد)
قل لى ان اسطعت الخطاب فانى   صب الفؤاد الى خطابك مكمد
أتركت بعدك شاعراً ؟ والله لا   لم يبق بعدك فى الزمان مقصد
يا أيها الملك المؤيد دعوة   ممن حشاه بالاسى تتوقد
هذى نبو أسد بضيفك اوقعت   وحوت عطاءك اذ حواه المرقد
وله عليك بقصده ياذا العلى   حق التحرم و الذمام الأوكد
فارع الذمام وكن لضيفك طالباً   ان الذمام على الكريم مؤبد

الباب الثانى

اخلاق ابى الطيب

جزئيات الموضوع :

تمهيد فى دراسة الاخلاق وتقدير الروايات والاخبار — خلق أبي الطيب فى مجموعه — لم يكن من الكبار بخلقه — تقلبه فى أحواله — لا يعرف العفو — فحشه فى هجائه — الحافه فى الطلب — نسيانه الجميل — بخله — هل يجتمع البخل والشجاعة — الغرور — عدم المداراة ـ الكبرياء — استقامته فى حياته الخاصة — خاتمة في الخلق وراثة واكتسابا

تمهيد

اعتاد الناس ان يبدوا رأيهم بتعجل وتسرع وبلا تحفظ ولا تحرز فى أى مسألة من المسائل مهما صعبت ومهما اشكلت ظنا منهم ان التروى وطول التفكير مما يحط من القدر أو على الأقل مما يخفض من مكانة أولى الفضل . وبهذه المثابة اصبح الواحد من عامة الناس يستخف باكبر المشاكل مع انه فى الواقع لا يستطيع ان يبدى رأيا أو شبه رأى فى أبسط الامور .

فهذه مسألة الاخلاق واكتشافها وبحثها ومعرفة الحالات النفسية وتشخيصها نرى أن كل واحد يضرب فيها بسهم ويدعى انه مصيب ولو وقف عند هذا الحد لهان الخطب ولكنه يرى فوق ذلك ان لا رأى الا رأيه . فاذا سألته على أى أساس بنى قوله أخذ يفكر من جديد وربما نقض ما بنى او بنى ما نقض .

لا بد فى كل حكم من حجة يستند عليها أو شهادة عدل يؤخذ بها . فوجب اذاً على من يتعرض لاصدار الاحكام أن يجمع الادلة ويقدرها فينفى منها ما تسرب اليه الشك وحامت حوله الشبه ويبقى ما سلم من المطاعن . و بذلك يكون حكمه اقرب للصحة وابعد عن التهمة واحق بالتأييد .

قد يوفق الناقد أحياناً الى جمع أدلة قوية ولكنه قد يخطيء في الاستنتاج منها فهل يعد بذلك كأنه لم يستفد شيئا من مجهوده ؟ كلا انه قد قطع نصف الطريق بسلام ولكنه ضل في الباقي ومن المحتمل ان يهتدي الي سواء السبيل اذا راجع نفسه في الاستدلال ودقق النظر في أوجه الاستنباط .

بناء علي ذلك لا ينبغي لمن يكتب في اخلاق عظماء الرجال أو مشاهير الشعراء والكتاب والخطباء وغيرهم أن يضع القواعد المطلقة دون أن يبين الاسباب التي حملته على وضع تلك القواعد اذ ربما رجع هو بنفسه في الغد عن رأيه الذي ابداه بالامس لانه قد ترجح لديه ان المقدمات التي قدمها لا تنتج مثل تلك النتائج . و بذلك لا يتعذر عليه ان يرجع الي الاسباب الصحيحة .

وقد يحسن كثير من المفكرين في احاطة آرائهم بشيء من الشك فلا يدونونها على انها آراء قطعية انما يقولون : يظهر ، و يترجح ، والمظنون ؛ وغير ذلك من التعبيرات التي تجعل للرأى شبه مرونة يتقبل بها الزيادة والنقصان

كيف ندرس الاخلاق والحالات النفسية ؟ وما تلك المعلومات الاولية التي يتوصل منها الباحث الى معرفة الاخلاق والحكم عليها ؟

تلك المعلومات لاحد لها . والمدقق البصير يستطيع أن يستنتج الاخلاق والحالات النفسانية من اشياء لا يحصى عددها فيجد عند كل حادثة شاهدا وفي كل أثر دليلا وفي كل قول حجة — إنظر الى ابن المعتز كيف أصاب الحقيقة في قوله :

تفقد مساقط لحظ المريب . فان العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره في الكلام . فانك تجني ثمار الغيوب

اجل ان الاخلاق ينم عليها كل شيء له علاقة بالشخص الذي تبحث اخلاقه : المسكن يدل علي اخلاق ساكنه ، والثوب علي لابسه ، والكلام على اخلاق قائله ، والخط على اخلاق كاتبه ، كذلك الاماني والآمال فانها تنبيء عن اخلاق اصحابها الى غير ذلك من المسائل الصغيرة في ظاهرها الكبيرة في اسبابها ونتائجها — لان تلك الاشارات الصغيرة لم تصدر عفوا ولكنها تمثلت في أعين الناظرين اليها بعد أن

مرت فى نفس صاحبها وتصورت بصورة تلك النفس واصطبغت بصبغتها

نركن الى الاستنتاج من هـذه الاشياء اذا غاب عنـا التاريخ الصحيح أو اذا داخلنا الشك فيما بين ايدينا من الاخبار

لو كان بين ايدينا خط أبي الطيب أو كنا نعرف صورة سحنته لحاولنا أن نتعرف خلقه بفضل تلك القواعد التي وضعها العلماء المختصون في معرفة الاخلاق من الخط (١) أو من تقاسيم الوجه وملامحه واساريره (٢) أو من المشية والاشارات أو الملابس (٣) الى غير ذلك مما يدخل تحت التسمية العامة وهي استقراء الظاهر لمعرفة الباطن واستنباط المجهول من المعلوم

وعلى هذه الذكرى اقول ان عندنا علمـا قديما يتناقله الناس على شكل قصص وحكايات ورموز واشارات يعرف بعلم « الفراسة » وماهو الا مجموعة ملاحظات دقيقة توصـل الى نتائج صحيحة . ولو عود الانسان نفسه على كثرة التفكر فى أمثالها لنمت فيه ملكة الدقة في النظر وما يستتبعها من الاصابة فى الحكم — وللقضاة والمحققين ورجال

---

(١) Graphologie تعرف به اذا عرض عليك خط أحد الناس ان كان الكاتب كريماً أو بخيلا هادىء الفكر أو مضطربا كتوما لما في نفسه أو جواداً به الى غير ذلك من الحالات النفسانية

(٢) Physiognomie ابحاث معروفة منذ فلاسفة اليونان وقد زعموا ان وجه الانسان اذا شابه وجه حيوان من الحيوانات كالذئب أو الثعلب مثلا كان ذلك علامة على ان هذا الانسان يشبه في خلقه صفة ذلك الحيوان فهو اما قاس جبار أو خبيث مخادع — الا ان ذلك العلم خطا خطوات واسعة على رغم ما قام في سبيله من الاعتراضات — فان دراسة السحنة وخطوط الوجه وحدوده وأجزائه والعين والجبهة والأنف والأذن والفم والشفاه والشعر والصوت وغير ذلك قـد قررت قواعد وأحكاما أساسها التأثير المادى للخلق وللانفعالات في ظاهر الجسم وهي دراسة شيقة لمن شاء ان يستفيد

(٣) قرأت منـذ سنوات مقالة عن دلالة أربطة الرقبة (الكرافات) على خلق لابسها في مجلة Je Sais Tout عنوانها La Cravate (١٥ يوليو سنة ١٩٠٧)

الحفظ والامن طرق وأساليب ينتهون بها الى كشف الاسرار الغامضة بفضل معلومات قليلة الاهمية لا يقام لها وزن عند السواد الاعظم من الناس

***

فعلى من اراد ان يعرف اخلاق ابي الطيب ان يجمع بين امرين الاول النقل وهو رواية كافة ما وصل الينا من اخباره مع تحقيقها وتقديرها والثاني الاستنتاج ويعتمد فيه على كل ما وصل الينا من الآثار التي لها علاقة بأبي الطيب — ولكن الرجل لم يخلف آثارا ابقت عليها الايام الا ديوان شعره وهو ليس بالشيء اليسير الذي يستهان به وهو خير المراجع في هذا الباب

اما اخباره التي وصلت الينا ففيها ما يحتاج الى نظر وتحقيق بالنسبة الى شخص الناقل . مثالها : حكاية ذلك الرجل الذي كان يتوكل لابي الطيب في بيته (١) فمثل هذا الراوي لا

---

(١) يعرف بأبي سعيد . قال « دعاني أبو الطيب يوما ونحن بحلب ولم أكن أعرف منه اللهو مع النساء ولا الغلمان . فقال لي أرأيت الغلام ذا الاصداغ الجالس الى حانوت كذا في السوق ؟ —وكان غلاما وسيما وحالتنا تنافي ما هو بسبيله— فقلت نعم أعرفه . قال فامض اليه وائتني به . واتخذ دعوة فأنفق فيها وأكثر — وكنت أستطلع رأيه في جميع ما انمق — فمضيت واتخذت له ثلاثة ألوان من الاطعمة وعدة صحاف من الحلوى واستدعيت الغلام فأجاب وأنا متعجب من جميع ما أسمع منه اذ لم تجر له عادة بمثله . فعاد أبو الطيب من دار سيف الدولة آخر النهار وقد حضر الغلام وفرغت من اتخاذ الطعام فأكلا وأنا ثالثهما ثم جن الليل فقدمت له شمعة وأمر بوضع دفاتره — وكانت تلك عادته كل ليلة — فقال احضر لضيفك شرابا واقعد الي جانبه ونادمه ففعلت ما أمرني به . كل ذلك وعينه الى الدفتر يدرس ولا يلتفت الينا الا من حين بعد حين . فما شربنا الا قليلا حتى قال افرش لضيفك وافرش لنفسك وبت ثالثنا . ولم أكن قبل ذلك اباتته في بيته . ففعلت وهو يدرس حتى مضى من الليل أكثره ثم أوى الي فراشه ونام . فلما أصبحنا قلت له ما يصنع ؟ فقال احبه واصرفه . فقلت له وكم اعطيه ؟ فأطرق ساعة ثم قال اعطه ثلاث مائة درهم . فتعجبت من ذلك ثم جسرت نفسي فدنوت منه وقلت له انه ممن يجيب

ينبغي ان يؤخذ قوله حجة دامغة مهما قربت صلته بابي الطيب لأن حكايته هذه دلت على انه يشتمل بما يأباه شرف النفس ولا ترضاه الاخلاق الكريمة . وذلك مما يسقط عدالته ويجرح شهادته . وما احكم قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » وقد احسن ابو الطيب واجاد حين قال «وقدر الشهادة قدر الشهود»

وهناك مثال آخر وهو حكاية ابي علي الحاتمي والرسالة الحاتمية (١) ـ فهذا الكاتب الاديب لا ينبغي ان نتقبل شهادته على علاتها لانه يتشفى لنفسه أولا ـ لأن المتنبي اهانه واحتقره كما زعم ـ وثانيا لانه يجتهد في ان يرضي معز الدولة والوزير المهلبي. فهذا التحامل من جهة والفائدة التي ينتظرها من جهة اخرى يعرضان أقواله للطعن والتجريح (٢)

ومما يلاحظ على الأخبار المروية عن ابي الطيب انها (جلها ان لم تكن كلها) مواضع

بالشيء اليسير وأنت لم تنل منه حظاً . فغضب ثم قال أتظنني من أولئك الفسقة ؟ اعطه ثلاثمائة درهم ولينصرف راشداً . ففعلت ما أمرني به وصرفته » (الصبح المنبي ص ٧٨ — ٨١ ج ١)

(١) تقدمت القصة في ص ٦٩ من هذا الكتاب

(٢) في آخر مقدمة الرسالة الحاتمية عبارة يخيل الى ان المقصود منها التعريض بالطالبيين من طرف خفي ومما يرجح لدى هذا الظن أن المتنبي كان يدعي أنه علوي فلعل الحاتمي أراد بهذه العبارة أن يمجد العباسيين وهم أصحاب الامر في بغداد ـ ولو في الظاهر ـ ثم جعل المناقشة في شعر أبي الطيب تفتتح على لسان غيره وهو الفتى الطالبي الذي وصفه بقوله « استأذن عليه فتى من فتيان الطالبيين الكوفيين فأذن له فاذا حدث مرهف الاعطاف تميل به نشوة الصبا فتكلم فأعرب عن نفسه فاذا لفظ رخيم وأخلاق فكهة وجواب حاضر وثغر باسم في أناة الكهول ووقار الشيوخ فاعجبني ما شهدته من شمائله وملكني ما تبينته من فضله فجاراه أبياتا ومن ههنا كان افتتاح الكلام بينهما في اظهار سرقاته ومعايب شعره » فلعله أراد أن يجعل افتضاح أمر المتنبي وظهور مساويه على يد علوي مثله لا على يد صنيعة من صنائع العباسيين .

للنظار أو كما يقول الاصوليون عن أدلة الحقه « ادلة ظنية لا تفيد اليقين » [١] فهي اما نقلا عن انصاره و يطعن فيها بالمحاباة والمجاملة واما نقلا عن خصومه و يجرحها التحامل والعداء « وما آفة الاخبار الا رواتها » فقد تنقل عنه حكاية تفيد صفة خاصة وتروى عنه حكاية أخري تفيد صفة علي نقيض الاولى - وعلى كل حال فاننا سنشير اليها في مواضعها من باب الاستئناس

أما ديوانه فهو المرجع الصحيح الذى اجمع عليه خصومه وأنصاره الا ان تأويل ما في الديوان هو الذي سيبقى باب البحث في خلقه مفتوحا عند عشاق هذه الابحاث

***

خلق ابى الطيب فى مجموعة

يترجح عندى أن أبا الطيب لم يكن من الكبار بخلقه ولو انه معدود من الكبار بصناعته- من الجائز أن يكون الرجل عظيما باعتبار من الاعتبارات وحقيرا باعتبار آخر - فان لم يكن ابو الطيب من كبار الرجال بخلقه فهذا لا ينقص من قدره في صناعة الشعر وان لم يكن صحيح العقيدة فهذا لا يؤثر فى جودة حكمه ومواعظه فالكل واحد من الناس شخصيات متعددة لا تماس ولا ينبغي أن تماس فى نظر الناقد حتى يستطيع أن يرى كل حقيقة على حدتها مجردة واضحة [٢]

---

(١) احترس من « شاهد عيان » و « مصدر موثوق به » و « جهة شبيهة بالرسمية » . . . اذ كنت تطلب الحقائق

(٢) أضرب لك مثلا على تعدد الشخصيات بالمرأة المتزوجة ذات الاولاد . فانك تجدها أحيانا مثالا للشفقة على أولادها وزوجها تتفانى في حبهم وتزهد فى كل شيء لنفسها - هذا عند ما تتغلب عليها شخصية الام أو الزوجة . اذ ذاك تجد شخصية المرأة قد تلاشت في ذلك المخلوق أو بالاحري انهزمت وتخدرت وقتا ما - أما اذا استيقظت الشخصية الاخرى . شخصية المرأة . وقامت تنازع اختيها ثم قهرتهما فهناك تظهر تلك المرأة بكل ما فيها من حب الاثرة والانانية . وهناك نفهم معنى التناقض الظاهري في أحوال بعض الناس . فى المثال المتقدم تجد الزهد

الخلق مسيطر على كل أعمال الانسان ولذلك يمكن ارجاع تصرفات الشخص الى خلقه لانها صادرة عنه متأثرة به فبدراسة تلك الاحوال تستطيع ان تعرف قيمة الخلق واليك البيان :

تقلب أبي الطيب في أحواله (١)

ان صفات ابي الطيب لم تكن خلقاً فيه طول حياته فهو رجل مضطرب الاحوال والايثار في الحالة الاولى وتجد الاثرة وحب الذات في الحالة الثانية مع أن الشخص هو هو بعينه أي المرأة — ذلك ان الجهاد كبير والحرب عوان في نفس الانسان بل شخصياته المتعددة فايها فازت تجلت مظاهرها في أعماله — وما أشبه الشخصيات المتعددة بالدوائر المتداخلة ذات المركز الواحد لا تتقاطع ولا يتقابل بعضها مع بعض أو بالسيارات تجرى كل منها في مجراها دون ان تتلاقى الواحدة باختها . فهذه الشخصيات وان شوهدت مرتبطة متلاحمة ولبعضها تأثير في بعض فهي أشبه شيء بذلك التمثيل الجميل الذي جاء في القرآن الكريم عند قوله تعالى « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون »

---

(١) كثيراً مايقع الالتباس بين الخلق والصفات الطارئة فالصفات لا ينبغي ان تعد خلقاً الا اذا توفرت في الشخص في كافة أعماله وجميع أوقاته

أما الذي يتصف لكل حادثة بوصف ويتخلق باخلاق مختلفة على حسب مقتضى الحال فهذا مايسميه علماء النفس بذي الخلق الذي لا شكل له — انظر الي الرجل المخادع الذي ينفق باليمين والشمال ويفتح أبوابه لقصاد نواله تحسبه كريماً جواداً والحقيقة أنه يسعى لغرض في نفسه فهو ناصب شباك يتصيدبها فاذا ما وقع الصيد في شباكه رأيته وقد أوصد بابه وجل يده مغلولة الي عنقه .

انظر أيضا الي كثير من الناس تجدهم يلتهبون غيرة على مبادىء تارة تكون دينية وتارة تكون دنيوية ثم لا تمضي سنوات أو أشهر أو أيام معدودة حتى تراهم قد انقلبوا الي مبادىء أخري تخالف الاولي على خط مستقيم فهؤلاء لا يفعلون فعلاتهم عن خلق فيهم وانما هي اعراض وقية لامراض نفسية فهي امانزق الشباب

تحسبه مرة فارس الفرسان ثم تراه مرة أخرى وكأنه صورة الجبن ومثال الخور والضعف و بينما هو يتظاهر بالاباء وعزة النفس اذ تراه يقدم على ما يحجم عنه أهل العفة والشمم . فكان موضعاً لعجب الادباء ودهشتهم . أجل لقد كانوا يعجبون و يدهشون من تعاظمه على سيف الدولة وتذلله لكافور مع عظم الفرق بين الاثنين ذلك الفرق الذى كان يستوجب عكس الامر — ولعمرالله كيف يستطيع أبو الطيب بعد قوله

وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم

كيف يستطيع أن يقف بين يدي كافور — وهو أعجم الاعاجم — و يمدحه بتلك المدائح الخالدة ولا يرضى أن يجلس في حضرته فاذا سئل عن طول وقوفه أجاب :

يقلّ له القيام على الرؤوس وبذل المكرمات من النفوس

اذا خانته في يوم ضحوك فكيف تكون فى يوم عبوس

أم كيف ترضى له نفسه بعد أن سجل عليها كراهة العجم أن يمتدح فناخسرو عضد الدولة بن بويه بمدائحه المشهورة التي منها

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فشكي اليه السهل والجبل

شكوي العليل الى الكفيل له أن لا تمر بجسمه العلل

فى وجهه من نور خالقه غرر هي الآيات والرسل

لا يستحي أحد يقال له فضلوك آل بويه أو نضلوا

فوق السماك وفوق ما طلبوا فاذا أرادوا غاية نزلوا

ومنها في قصيدة أخرى وقد ذكر فيها اسمه ولقبه فيها بالفارسية وهو مما يؤاخذه عليه عشاق اللغة

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

ومن مناياهم براحته يأمرها فيهم وينهاها

وجهل بعواقب الامور واما حب للشهرة والظهور واما جري وراء الفوائد المادية وجمع الدرهم والدينار ممن فاتتهم التجارب وأصبحوا هدفا لكل ضارب .

اباشجاع بفارس عضد الدولـة فناخسرو شـاهنشاهـا
اساميا لم تزده معرفة وانما لذة ذكرناهـا

ومن ذلك ايضا ماقاله فى ابن طغج بن جف

حمته على الاعداء من كل جانب سيوف بني طغج بن جف القماقم
هم المحسنون الكر في حومة الوغى واحسن منه كرهم في المكارم
وهم يحسنون العفو عن كل مذنب ويحتملون الغرم عن كل غارم
حييّون الا انهم في نزالهم اقل حياء من شفار الصوارم

هذا تناقض بين لا يمكن الاعتذار عنه فضلا عن تبريره

انظر اليه وقد جاهر بمبدء كبير ـ يطالب المساواة المطلقه لا أمير ولا سوقي ـ ذلك المبدأ الذى يعرفه بعضهم بمبدأ «الديمقراطيه»، وأولى به ان يسمى مبدأ «الاشتراكية المتطرفة» كيف قال مرتجلا حين عزله ابو سعيد المجيمرى على تركه لقاء الملوك

ابا سعيد جنّب العتابا فرب رأى اخطأ الصوابا
فانهم قد اكثروا الحجّابا واستوقفوا لردنا البوابا
وان حد الصارم القرضابا والذابلات السمر والعرابا
ترفع فيما بيننا الحِجابا

ثم انظر اليه بعد قليل وقد طرق كل باب حتى كان في مجلس بدر بن عمار فقال :

«وان الامير ادام الله دولته»» كيف هوى من عليين الى اسفل سافلين

فالحقيقة ان ضعف الخلق وعدم القرار على طريقة و احدة وترك التمسك برأى حبا في مال او طمعاً في مركز سام او كبراً على ذى مروءة اوخوفاً من نظراء اقوياء هو الذى دفع اباالطيب الى هذا التغير الممقوت. وذو الخلق الكبير يأبى على نفسه هذا التناقض مهما كانت اسبابه. وانى الاحظ ان هذا التقلب او التلون لم يفارقه منذ عرف أمره (١)

---

(١) من المشهور في التاريخ عن المطالبين بالملك أو الخارجين على ذوى العروش والتيجان أو المدعين نبوة أو الوهية أو غيرذلك من الآمال الكبرى انهم

أبو الطيب لا يعرف العفو

والذي يرجح عندي ان ابا الطيب لم يكن ذا خلق كبير انه لم يكن يعرف العفو حتى ولا في اقل درجاته . واقصد بالعفو هنا معناه العام وهو تلك الحالة النفسية التي يظهر بها الانسان عند ما يسيء اليه احد الناس وتلك الحالة على ثلاثة مراتب كما قال تعالى «والكاظمين الغيظ - والعافين عن الناس - والله يحب المحسنين» فابو الطيب لم يستطع ان يكظم غيظه فضلا عن ان يعفو او يحسن . والأمثلة كثيرة على هذه الفكرة تثبت ان ابا الطيب لم يكن ليصلح للامور الكبرى كالملك وغيره مما يجب على من يتولاها ان يكون قادرا على تملك نفسه عند الغضب واخفاء ما يختلج بصدره عند كل انفعال نفساني .. وبالجملة فان شاعرنا لم يكن يعلم شيئا من «حلم معاوية»

ولم يستطع ابو الطيب ان يملك عواطفه ويهيمن على انفعالاته النفسية عند ما رحل

يثبتون على ادعائهم ولا ينثنون عن عزمهم مهما صادفهم من المصاعب وخصوصاً من كان منهم في سن الشبيبة . وقد يبلغ بهم التشبث بارائهم ان يعترفوا بكل ماعملوه ولا ينكروا صدق ادعائهم ويكبر عليهم اذا وقعوا في مكروه ان يشفع لهم شفيع وكثير منهم ينتحرون بايديهم اذا فشلوا في امورهم

أما أبو الطيب فانه أول ماذاق غضاضة السجن أخذ يتنصل من نبوته وينكر دعوته ويستعطف الامير تارة بصغر سنه ويسترحمه تارة أخرى بامه التي تبكي عليه دما. وانتهي به الامر أن أمضى صك التوبة والتنازل عن امتيازات اولي العزم من الرسل وأصبح فرداً من عامة النـاس ونسى أو تناسى ماجاء به من كلام الله ورسالاته . وليس فعل أبو الطيب في هـذا المقام من باب الاذعان الي الحق والرجوع عن الرأى الفاسد ولـكنه كما قال المثل « مكره أخاك لا بطل » وما حيلة العاجز المقهور الا الطاعة والامتثال وما كانت توبته أمام الوالي الا كتوبة ذلك السكير القائل

يقول أبو سعيد مذ رآني . عفيفاً منـذ عام ما شربت
على يد أي شيخ تبت قل لي . فقلت على يد الافلاس تبت

فـكانت توبته بمثابة « اشهار الافلاس »

عن سيف الدولة وقصد كافورا . ولئن كان في بعض الاحيان قد احسن واجمل في حق اميره الاول بعد فراقه ففي أحيان اخرى قد اساء وخرج الى شر من الهجاء . فمن احسانه واجماله قوله

فراق ومن فارقت غير مذمّم وأم ومن يممت خير ميمم

وقوله في نفس القصيدة وهي مما قاله في كافور بعد ان اقام عنده طويلا . ولعله كان قد عرف فضل سيف الدولة وندم على فراقه

فلو كان مابي من حبيب مقنّع عذرت ولكن من حبيب معمّم

رمى واتقى رميي ومن دون مااتقى هوى كاسر كفي وقوسي وأسهمي

ولكن غلب عليه ضمنه الخلقي وانفعاله الذى لم يقدر على حبسه فقال

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

ثم ادعى ادعاء لا أظنه في طبعه فقال

اصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفها من فعله والتكلم

واحلم عن خلي واعلم انني متى أجزه حلماً على الجهل يندم

وان بذل الانسان لي جود عابس جزيت بجود التارك المتبسم

فلو كان هذا في سجيته لما نطق بتلك الاهاجي المؤلمة ولا دنس لسانه بفحش أقواله المعروفة ولكني أرى ان تلك آمال يتمناها ويحلم بها و « ما كل ما يتمني المرء يدركه »

أقول ان تلك الكلمات الطيبة التي صدرت من أبي الطيب في حق سيف الدولة بعد رحيله عنه أنما قالها بعد ان عرف الفرق العظيم بين ممدوحه الذى اشتهر به وبين غيره من الامراء . وانى أكاد أعتقد أن أبا الطيب لم يفارق سيف الدولة الا كبراً وعناداً ولو أنه تأنى في الامر وتبصر في العواقب لما وقع فيما وقع فيه ولما اضطر أن يعترف بخطئه وسوء تدبيره في كثير من شعره مثل قوله

وفارقت خير الناس قاصد شرهم وأكرمهم طراً لألأمهم طرا

فماقبني المخصيّ بالغدر جازيا لان رحيلي كان عن حاب غدرا

وما كنت الا فائل الرأي لم اعن   بحزم ولا استصحبت في وجهتي حجرا

وفي قصيدة أخرى

. وما لاقني بلد بعدكم   ولا اعتضت من رب نعماي رب

قلت ان تلك الكلمات الطيبة والاشارات الطريفة الى مكانة سيف الدولة في قلب ابي الطيب لم تصدر عن شاعرنا الا بعد ان انصرفت عن نفسه ثورة الغضب وانقشعت عن عينيه سحابة الحقد علي ممدوحه القديم والا لو كانت تلك العواطف التي أبداها هى التي كانت تتملكه في أول الامر لما نفث ذلك السم الزعاف في تعريضه بسيف الدولة فمن تلك الانفعالات التي اعميها مخففة ملطفة قوله معرضاً بسيف الدولة

حببتك قلبي قبل حبك من نأى   وقد كان (غدّاراً) فكن أنت وافيا

وأعلم ان البين يشكيك بعده   فلست فؤادي ان رأيتك شاكيا

فان دموع العين غدر بربها   اذا كنّ أثر (الغادرين) جواريا

اذا الجود لم يرزق خلاصا من (الاذي)   فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا

وللنفس أخلاق تدل على الفتى   أكان سخاء ما أتي أم (تساخيا)

أقل اشتياقاً أيها القلب ربما   رأيتك تصفي الود (من ليس صافيا)

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا   لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وهذه الابيات كما هو معروف من قصيدته الاولى التي قالها في كافور والطمع ملء جوانحه والآمال تخيل له المستقبل كما يهوى ويحب زاعماً انه ينال عند ممدوحه الجديد ما يرغم به أنف مخدومه القديم

وقوله وقد اتصل به ان قوماً نعوه في مجالس سيف الدولة

مما أضر بأهل العشق انهمُ   هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

تفني عيونهم دمعاً وأنفسهم   في أثر كل (قبيح وجهه حسن)

تحملوا ـ حملتكم كل ناجية! ـ   فكل بين علىّ اليوم مؤتمن

(رأيتكم لا يصون العرض جاركم   ولا يدرّ على مرعاكم اللبن)

(جزاء كل قريب منكم ملل   وحظ كل محب عندكم ضغن)

(وتغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والمنن)
سهرت بعد رحيلي وحشة لكم ثم استمر مريري وارعوي الوسن
وان بُليت (بودّ مثل ودكم) فانني بفراق مثله قمن

فاذا كان « الحلم سيد الاخلاق » و « الغضب غول الحلم » فاحكم بعد هاتين القضيتين بما بقي لشاعرنا من الاخلاق

هذا ما يراه ابو الطيب من العتاب النظيف والتعريض العنيف مع ما فيه من وصف صاحبه القديم بالغدر والمن والاذى وانه ليس بصاف فى مودتة وانه يتصنع السخاء وانه قبيح الفعل حسن الوجه وانه لايصون عرض الجار الى غير ذلك مما يضيق به مجال الشتائم والسباب

وفضلا عن أنه لايعفو اذا قدر فانه ينصح لاهـل العفو بالاحتراس من عواقبه كأنما ينفّر منه ويزهّد فيه وينادي بالاقلاع عنه — هذه حادثة كان العفو ختامها فانظر الي شاعرنا كيف يقول فيها

وماتوا قبـل موتهم فلما مننت اعدتهم قبل المعاد
غمدت صوارما لولم يتوبوا محوتهمُ بها محو المـداد
وما الغضب الطريف وان تقوّي بمنتصف من الكرم التلاد

فكلام الشاعر الي هنا جميل حيث وصف عفو الامير وأثره الصالح وعاقبة البطش ان لم يكن قد صفح. ثمّ زاد في رفع شأن ممدوحه بانه من سلالة أهل الحلم والعطف اذ قال ان الغضب الطارىء مهما قوي فانه لايتغلب على الحلم الموروث المتأصل في النفس — كل هذا جميل — ولو كان الشاعر وقف عند هذا الحد أو استرسل فى اطراء ممدوحه لما كان عليه أى ملام لان الحادثة قد انتهت بسلام والامير قـد عفا عن المخطئين فليس ثمة مايدعو الي اعلان ما كمن في الصدور من حقد قديم أو ايقاظ الفتن النائمة واثارة الخواطر بعدما هدأت. ولكن نفس شاعرنا العاتية وطبعه الجبار ابيا عليه الا ان يجهر بالنصيحة القاسية ويشير بالرأى الدموى فقال

فلا تغررك ألسنة موال تقلبهن افئدة اعادى

وكن كالموت لا يرثي لبـاك بكي منه ويروى وهو صاد

فما اقسى شاعرنا وما اغلظ قلبه حين يقول «وكن كالموت لا يرثى لباك» على انه لا يكيل تلك النصيحة بغير حساب ولا يأمر بها الا وقد مهد لها السبيل ودعمها بالحجج والاسانيد اذ قال

فان الجرح ينفر بعـد حين اذا كان البنـاء على فساد
وان المـاء يجرى من جماد وان النـار تخرج من زناد
وكيف يبيت مضطجعا جبان فرشت لجنبه شـوك القتاد
يرى في النوم رمحك فى كلاه ويخشى أن يراه فى السهاد

اليس هذا مما يدخل فى حكم «واذا بطشتم بطشتم جبّارين» ؟ولا أجد أدل على صفة الجفاء والقسوة فى شاعرنا من قوله فى مخاطبة ديار أحبابه

ملثّ القطر اعطشها ربوعا والا فاسقها السم النقيعا
اسائلها عن المتـديّريها فلا تدرى ولا تذرى دموعا

لحاها الله . . . . الخ

هذه تحية «مباركة طيبة» يرسلها ابو الطيب الي ديار الاحباب ويدعو لهافيها بالامان والسلام !!

ولم نحوم حول رأيه ولا ندخل اليه من بابه ؟ الم يقل هو بنفسه

ومن عرف الايام معرفتى بهـا وبالناس «روّى رمحه غير راحم»
فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

اذا صلت لم اترك مجالا لفاتك ...

الفحش فى الهجاء

ومما يدل على أن أبا الطيب كان فى خلقه من عامة الناس أو بعبارة اخرى أصح وأدق أنه كان يشبه فى خلقه السوقة والرعاع اقواله فى التعريض بخصومه . انظر اليه فى هجاء ابن كيغلغ كيف يقول : (١)

---

(١) كان ابن كيغلغ قد منعه من المسير الي انطاكية

يحمى ابن كيغلغ الطريق وعرسه　　ما بين رجليهـا الطريق الاعظم
اقم المسالح فوق شفر سكينة　　ان المنيّ بحلقتيها خضرم
وارفق بنفسك ان خلقك ناقص　　واستر اباك فان اصلك مظلم
واحـذر مناوأة الرجال فانما　　تقوى على « كمر » العبيد وتقدم

وقوله فى هجاء ضبة بن يزيد العتبي

ما انصف القوم ضبه　　وامـه الطرطبّـه

والقصيدة مشهورة بمعانيها القذرة والفاظها الفاحشة مما يدور على السنة السفلة من الناس وقد اكثر فيها من ذكر العورات والسوآت بما يستغيث منه الحياء وانى اشير الى انظف مافيها . قال

وما عليك من العار　　ان امك قحبه
وما يشقّ على الكلب　　ان يكون ابن كلبه
ما ضرها من أتاها　　وانمـا ضر صـلبه
كل « الفعول » سهام　　لمريم وهى جعبـه
يا اطيب النـاس نفسا　　والين النـاس ركبـه

هذا نموذج مما تحويه تلك القصيدة التى الاحظ ان بعض ناشرى شعر المتنبي قد حذفوا منها جزءً رحمة بالآداب وصوناً لكرامة الشاعر نفسه .

هذه الاقوال لا تصدر عن الانسان الا اذا نضب ماء الحياء من وجهه وعلم أن لا رقيب عليه من الله ولا من الناس ولا من نفسه

من المتداول على ألسنة الناس ان الكذاب اذا هم بقول الزور ناداه الايمان من قلبه « اصبر حتى أخرج » ــ وكذا يقول الحياء وكذا تقول كل فضيلة

وبهـذه المناسبة أقول ان تأثير شعر ابن الرومي في نفس أبي الطيب يظهر في القصائد المتقدمة فهى من نفس الروح التى قال بها ابن الرومي قصـائده الهجائية أو المجونية ــ فقصـيدة المتنبي فى ضبة هى صورة كاملة لقصيدة ابن الرومي فى بوران ــ فكلاهما قد اطلق العنان للسانه فى ذكر السوآت ومن شاء فليراجع القصيدتين

ويقارن بين معانيهما . واني لا أقول ذلك حضاً على الاطلاع علي مخازي الشاعرين وانما أدل فقط على المواضع التي ظهر فيها تأثير شعر ابن الرومي في ملكة راويته

ومن هذا القبيل ــ وهو مما يدل علي أن أبا الطيب كان سوقي الخلق ــ انه في هجوه يعيّر أعداءه بعاهاتهم الخلقية التي لم يكتسبوها بأنفسهم . أتراه عير سارقاً أو قاطع طريق بما بتر من جسده اقامة للحد ؟ كلا ــ وعلى العموم فذو الخلق الكبير يترفع عن مثل هذا التعيير لأن تلك النقائص الوهمية لا تزرى بخصومه ولا تحط من أقدارهم وكان الاولى بشاعرنا ان يترحم عليهم من أجلها لأنها تثير عاطفة الشفقة وتبعث النفوس الكريمة على العطف عليهم . ــ أنظر اليه كيف يقول لأحد خصومه وكان أعور:

فيا ابن (كرّوس) يا نصف أعمى   وان تفخر فيا نصف البصير
تعادينا لأنا غير لُكن   وتبغضنا لأنا غير عور

وقوله في آخر

أترى القيادة في سواك تكسباً   يا ابن الاعيّر (١) وهي فيك تكرم

يعيّر ابو الطيب كافوراً بسواده وهذا في الواقع ليس من ذنوب كافور ويعيره بأنه مشوه الخلقة وهذا لم يجنه كافور على نفسه ويعيره بأنه مخصى وبأنه خنثى وهذا لا يستطيع كافور انّ يفعله بنفسه حتى يعد عليه سيئة ويعيره بأنه عبد وكافور لم يدفع بنفسه الى السوق حتى يباع ويشترى

وأقوال أبي الطيب مستفيضة في هذا الباب ولكني أذكر شيئاً قليلاً استشهاداً على ما أقول : ــ قال في كافور

و (أسود) مشفره نصفه   يقال له أنت بدر الدجى

وأبو الطيب كان قد قال له من قبل « تفضح الشمس .... »

ألم يفهم (الخنثى) مقالي وانني   أفارق من أقلى بقلب مشيع

لا شيء أقبح من فحل له ذكر   تقوده أمة ليست له رحم

(١) اعير : تصغير أعور

من كل رخـو وكاء البطن منفتق لا فى الرجال ولا النسوان معدود
أولى اللئام (كويفير) بمعذرة في كل لؤم وبعض العـذر تفنيـد
وذاك ان الفحـول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

ولو أن أبا الطيب كان قد مدح كافوراً من قبل أن يراه لكان له العذر اذا رجع عن رأيه فيـه وهجاه فيما بعد . أما وقد مدحه بعد أن قدم عليه وأقام عنده طويلا وتكررت مدائحه فيه فلم يكن يجمل به أن يقول بالامس « أبيض » ثم يعدل في الغد فيقول « أسود » فان الممدوح هو هو بنفسه لم يتغير : الاسود المشـقق الارجل ذو الشفاه الغليظة والبطن الكبير

وهنا أيضاً نجد التناقض الممقوت الذي لا يمكن تأويله

« ٠ »

ومما يدخل ضمن الاقوال التي تشهد على أبي الطيب بضعة الخلق انه يعير خصومه بأنه يطعمهم من زاده وهذا على ما أرى أحط درجات المن والاذى . قال

وربمـا اشـهد الطعـام معي من لا يسـاوى الخبز الذى أكله

وقال في كافور

جوعان يأكل من زادى ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصود

وقوله فيه أيضا

لو كان ذا الآكل ازوادنا ضيفا لأوسعناه احسانا
لكننا فى العين اضيافه يوسعنا زورا وبهتانا

فمثل هذه الاقوال التي سردتها لا تصدر عن صاحب الخلق الكبير مهما أوذى أو أسيء اليه ومن هنا نفهم معني قوله تعالى « والكاظمين الغيظ » قولا وفعلا

وموضع العجب أن يدعو شاعرنا الى الادب الجميل ولكنه لا يلتزمه ولا يرعاه كأنه المعني بقول الله . « اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم » أو قول الحريرى فى اولي مقاماته « تأمر بالمعروف وتنتهك حماه وتحمى عن المنكر ولا تتحاماه » ...

ولأبي الطيب قول جميل يليق بهذا المقام قال :

وفارس الخيل من خفت فوقرها في الدرب والدم في اعطافه دفع
فاوحدته وما في قلبه قلق « واغضبته وما في قوله قذع »

وله قول آخر لايقل حسنا

ولم تفترق عند الامنة رحمة ولم تترك الشام الاعادى له حبا
ولكن نفاها عنه غير كريمة كرم الثنا ماسب قط وسبا (١)

---

(١) انى أرى الهجاء في ذاته دليل النقص في الخلق واعتقد أن الهجائين من الشعراء قد خرجوا على مكارم الاخلاق ـ وانى لأكبر كل من ترفع عن الهجاء وقابل السيئة بالحسنة أو على الاقل بالسكوت والتغافل فان هذا أوقع في نفس المعتدي — ان كانت له نفس حساسة — وشاهد على مكانة المترفع عن الاذي في نظر المعاصرين له وما أحسن قول لقيط بن زرارة في الرد على كل هجاء : «هنيئا مريئا انت بالفحش أحذق » (صهاريج اللؤلؤ ص ٢١٣)

ألا ترى وأنت تقرأ باب المهاجاة في كتب الأدب كأنك تشهد مضاربة الديكة أومناطحة الكبوش أومصارعة الثيران. بلا انك ترى أفظع من ذلك وأنكر : تري الانسان ينهش عرض اخيه الانسان

ان باب الهجاء سيئة من سيئات حفظ الآثار وجناية على الأدب ومكارم الاخلاق فيه تلقين الشر للمبتدئين وافساد ملكة الحسن في نفوس طالبي الفن الجميل واغراء ذوى النفوس الساقطة بالتفوق في هذه الحرب الشعواء ولهم شفيع لا يرد هو تاريخ الأدب ما حواه من تمزيق الاعراض .

أنظر الى كلمة طيبة في خلال فصل من فصول كتاب العمدة لابن رشيق عقده في « من رغب من الشعراء عن ملاحاة غير الأكفاء » قال فيه : ومنهم من لا يهجو كفء ولا غيره لما في الهجو من سوء الأثر وقبيح السمعة كالذى يحكى عن العجاجى انه قيل له : لم لا تهجو ؟ فقال : ولم اهجو ؟ ان لنا احسابا تمنعنا من أن نظلم واحلاما تمنعنا من ان نظلم. وهل رأيتم بانيا لايحسن أن يهدم ؟ ثم قال : اتعلمون أنى احسن أن أمدح؟ قالوا نعم. قال : أفلا احسن أن أجعل مكان أصلحك الله ، قبحك الله . ومكان حياك الله ، اخزاك الله ؟»

كثرة الالحاف في الطلب

اذا أمعنّا النظر في مثل حادثة زهير ابن ابي سُلمى الجاهلي مع هرم بن سنان(١) أو اعتراض لبيد بن ربيعة على ابنته عند قولها « فعد ان الكريم له معاد » (٢) أو الشريف الرضي لما رد هدية الوزير فخر الملك (٣) ــ لأدركنا أن قبول العطاء غل

(١) أحد امراء ذبيان وكان اقسم أن لايمدحه زهير الا اعطاه ولا يسأله الا اعطاه ولا سلم عليه الا أعطاه عبداً أو ليدة أو فرسا فاستحيي زهير من كثرة ماكان يقبل منه حتى أصبح اذا رآه في ملأ من الناس قال « عموا صباحا غير هرم . وخيركم استثنيت » (جورجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية . ص ١٠٥ ج ١)

(٢) كان لبيد من كرام قومه ومن اجواد العرب وكان قد آلى على نفسه في الجاهلية الا تهب صبا الا اطعم . فهب الصبا يوما والوليد بن عقبة في الكوفة فصعد المنبر وخطب الناس قائلا : ان أخاكم لبيداً بن ربيعة قد نذر في الجاهلية ألا تهب صبا الا أطعم وهذا يوم من أيامه فاعينوه وانا أول من فعل — ثم نزل عن المنبر وارسل اليه بمائة بكرة وكتب اليه بعض أبيات — فلما بلغت أبياته لبيداً قال لابنته أجيبيه فقالت

أبا وهب جزاك الله خيراً   نحرناها فاطعمنا الثريدا
فعد أن الكريم له معاد   وظني لا أبالك أن تعودا

فانكر لبيد على ابنته البيت الاخير وقال لقد أحسنت لولا أنك أستطعمته .... « وقيل أستعدته » (جورجي زيدان . نفس الكتاب ص١١١ — ١١٢ ج١)

(٣) قال ابن ابي الحديد شارح نهج البلاغة في مقدمة كتابه :

« قرأت بخط محمد بن ادريس الحلي الفقيه الأمامي قال حكى أبو حامد أحمد ابن محمد الاسفرايني الفقيه الشافعي قال كنت يوما عند فخر الملك ابي غالب محمد ابن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة فدخل عليه الرضي أبو الحسن فاعظمه وأجله ورفع من منزلته وخلى ماكان بيده من القصص والرقاع واقبل عليه يحادثه الى أن انصرف ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم رضى الله عنه فلم يعظمه ذلك التعظيم ولا أكرمه ذلك الاكرام وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات

فى العنق ومذلة في كثير من الاحيان فما بالنا اذن بالالحاح فى الطلب واراقة ماء الوجه في استدرار العطاء . ولكن شاعرنا يقول : « ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا »
وانى ليحزننى أن اكون فى هذا الموضع واغفل بيتين لمهيار الديلمى صاحب المراثى

يوقع بها فجلس قليلا وسأله أمراً فقضاه ثم انصرف .
« قال أبو حامد فتقدمت اليه وقلت له أصلح الله الوزير هذا المرتضى هو الفقيه صاحب الفنون وهو الأمثل والأفضل منهما وانما أبو الحسن شاعر . فقال لى اذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة . وكنت مجمعاً على الانصراف فجاءنى أمر لم يكن في الحساب فدعت الضرورة الى ملازمة المجلس الى أن تقوض الناس واحداً واحداً . فلما لم يبق الا غلمانه وحجابه دعا بالطعام فلما أكلنا وغسل يديه وانصرف أكثر غلمانه ولم يبق عنده غيرى قال لخادم له هات الكتابين اللذين دفعتهما اليك من أيام وأمرتك أن تجعلهما في السفط الفلانى فأحضرهما . قال فهذا كتاب الرضى . اتصل بى أنه قد ولد له ولد فانفذت اليه الف دينار وقلت هذه للقابلة فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء الى أخلائهم وذوي مودتهم مثل هذا في مثل هذه الحال . فردها وكتب الي هذا الكتاب فاقرأه قال فقرأته وهو اعتذار عن الرد وفي جملته اننا أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة وانما عجائزنا يتولين هذا الامر من نسائنا ولسن ممن يأخذن أجرة ولا يقبلن صلة . قال فهذا هذا . وأما المرتضى فاننا كنا قد وزعنا على الأملاك « ببادردبا » تقسيطاً نصرفه في حفر فوهة النهر المعروف بنهر عيسى فاصاب ملكاً للشريف المرتضى بالناحية المعروفة بالداهرية من التقسيط عشرون درهما ثمنها دينار واحد فقد كتب الي من أيام في هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه فقرأته وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخضوع والاستمالة والهز والطلب والسؤال في اسقاط هذه الدراهم عن أملاكه المشار اليها ما يطول شرحه . قال فخر الملك فايهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل هذا العالم المتكلم الفقيه الأوحد ونفسه هذه النفس أم ذلك الذي لم يشهر الا بالشعر خاصة ونفسه تلك النفس ؟ فقلت وفق الله تعالى سيدنا الوزير ما زال موفقا والله ماوضع سيدنا الوزير الأمر الا في موضعه ولا أحله الا في محله وقمت وانصرفت »

المشهورة فى الشريف الرضى يقول فيهما :

اكرم يديك عن السؤال فانما   قدر الحياة اقل من أن تسألا
واذا امرؤ افنى الليالي حسرة   وامانيا افنيتهن توكلا

وقد سقت هذا الحوادث استشهادا بالشعراء الذين كبرت نفوسهم لا عن السؤال فقط ولكن عن تقبل العطاء — وهذا خلق كبير لا يملكه كل واحد

وما كان اكرم شعراء الجاهلية حينما تعففوا عن التكسب بالشعر وعدوا الارتزاق من هذا الباب منقصة فى حق الشاعر .

ولو كان شاعرنا ابو الطيب قد وقف فى مدائحه عند الشكر على العطاء وجعل مدحه بمثابة قضاء الدين عن نفسه فيدفع العوض شعرا ولا يبخل بوفاء حق في عنقه لكان وقف ذلك الموقف الكريم الذى صوره لنفسه فى قصيدته المشهورة التى قالها في أبي شجاع فاتك حين قدم من الفيوم الي مصر وحمل الي أبي الطيب هدية ثمينة :

لاخيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

وفيها يقول

وما شكرت لان المال فرحني   سيان عندى اكثار واقلال
لكن رأيت قبيحا أن يجادلنا   واننا بقضاء الحق بخال

ما كان اجمل ما يفعل لو سلك تلك الطريق وترفع عن الطلب والسؤال واذلال النفس مع أن الخير كان يدر عليه بغير حساب — ولكن هو الطمع يدفع بصاحبه الى المزالق الخطرة و يسم جبينه بالوان من الصغار ما كان اغناه عنها لو انه تعفف قليلا — انظر اليه وقد عاوده الرشد كيف يرجم على نفسه باللائمة حيث يقول :

ابعين مفتقر اليك نظرتنى   فاهنتني وقذفتني من حالق؟
لست الملوم انا الملوم   لانني انزلت آمالى بغير الخالق

أما الحافه في الطلب لدى ممدوحيه ولدى كافور بصفة خاصة فقد تجاوز الحد وتلك امثلة مما قال .

ومكرمات مشت على قدم السير الى منزلى ترددها

(فعد) بها لاعدمتها أبداً فخير صلات الكريم اعودها

كم مهمه قذف قلب الدليل به قلب المحب قضاني بعد ما مطلا
حتى وصلت بنفس مات اكثرها وليتني عشت منها بالذى فضلا
(ارجو) نداك ولا اخشى المطال به يامن اذا وهب الدنيا فقد بخلا

ياذا الذى يهب الكثير وعنده انى عليه بأخذه اتصدق
(امطر) عليّ سحاب جودك ثرة وانظر الي برحمة لا اغرق

ولقد قصدتك والترحال مقترب والدار شاسعة والزاد قد نفدا
(فخل كمك تهمى) واثن وابلها اذا اكتفيت ولا اغرق البلدا

(أجزني) اذا انشدت شعرا فانما بشعرى أتاك المادحون مرددا
وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا

وفي كافور :

يارجاء العيون في كل أرض لم يكن غير أن أراك رجائي
ولقد أفنت المفاوز خيلي قبل أن نلتقي وزادي ومائي
فارم بي ما أردت فاني أسد القلب آدمي الرواء

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم الي غيوث يديه والشآبيب
الى الذى تهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب

يريد ان يخدع الممدوح حتى يهبه احدى الدولات

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا

ألا ليت يوم السير يخبر حره فتسأله والليل يخبر برده
وليتك ترعاني وحيران معرض فتعلم أنى من حسامك حده
وانى اذا باشرت أمراً أريده تدانت أقاصيه . وهان أشده
فان نلت ما أملت منك فربما شربت بماء يعجز الطير ورده

و وعـدك فعل قبل وعـد لأنه نظير فعال الصـادق القول وعده
فكن في اصطناعي محسناً كمجرب يبن لك تقريب الجـواد وشـده
اذا كنت في شك من السيف فابله فاما تنفيه واما تعـده
واني لفي بحر من الجود أصـله عطايك أرجو مـدها وهي مـده

أبا المسك (هل في الكأس فضل أناله) فني أغني منـذ حين وتشرب
وهبت علي مقـدار كفي زماننـا ونفسي علي مقدار كفيك تطلب
اذا لم تنط بي ضـيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشـغلك يسـلب

وقد ظهرت ضعته في القصيدة التي يذم فيها سيف الدولة وينسـبه الي البخل والغدر وقوله اني تركت هذا الغادر الي كافور الوفي الذي سيعطيني ويحسن الىّ :

عند الهمام ابي المسك الذي غرقت في جوده مضر الحمراء واليمن
وان تأخر عني بعض موعده فما تأخر آمالى ولا تهن
هو الوفي ولكني ذكرت له مودة فهو يبلوها ويمتحن

(أرد) لى جميلا جـدت أو لم تجـد به فانك ما أحببت فيّ أتاني

رضيت بمـا ترضي الىّ محبـة وقدت اليك النفس قيـد المسـلم
ومثلك من كان الوسـيط فـؤاده (فكلمه عني ولم أتكلم)

أرىّ لى بقربي منـك عينـاً قريرة وان كان قرباً بالبعاد يشاب
وهـل نافعي أن ترفع الحجب بيننـا ودون الذي أملت منك حجـاب
أقـل سـلامي حب ما خف عنكم وأسكت حتي ما يكون جواب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة (سكوني كلام عندها وخطاب)

وآ غوثاه ! ـ كما قال ابن الرومي ـ هل هذا سكوت ولم تخل له قصيدة من الطلب والسؤال ؟ ـ هلا قال لنا رحمه الله كيف يكون الكلام .....؟

عدم الاعتراف بالجميل

من غريب ما يلاحظ على مجموع شعر أبي الطيب انه لا يعترف لأحد بالجميل الا ما دام في حماه فاذا فارقه ونزل على غيره نسي ما كان من معروف الاول بل وأوسعه لوماً وذماً في بعض الاحيان ـ كأقواله في سيف الدولة وكافور

قد يجوز ان يقال بأن طريقة ابي الطيب في المدح ان يقصر الصفات الطيبة على ممدوحه دون غيره من الناس وتكون المسألة هنا مسألة صناعة فقط ـ ولكن يردّ على هذا بأن الاسلوب الصناعي أو الفني بعبارة أخرى انما تولد في ذهن الشاعر بتأثير الاخلاق ـ لأن ليس ثمت ما يدفع الشاعر لأن ينال من أعراض غير الممدوح أو أن يمس كرامتهم

قال أبو الطيب في ابن طغج عند ما قدم اليه ـ ولست أعرف الشخص الذى يعرض به الشاعر ولكن العكبرى في شرحه يشير الى انه من أهل طبرية يدعي النسب الي علي كرم الله وجهه

كريم لفظت « الناس » لما بلغته ... كأنهم ما جفّ من زاد قادم

وكاد سروري لا يفي بندامتي ... على تركه في عمرى المتقادم

وفارقت شر الارض أهلا وتربة ... بها علوي جده غير هاشم

أمثلة أخرى في هذا المعنى :

وقلبك في الدنيا ولو دخلت بنا ... وبالجن فيه ما درت كيف ترجم

ألا كل سمح غيرك اليوم باطل ... وكل مديح في سواك مضيع

انظر كيف يقول لعضد الدولة عند وداعه

ومن اعتاض منك اذا افترقنا ... « وكل الناس » زور ماخلاكا

وهو اشبه بقوله في ممدوح آخر

لو أستطيع ركبت « الناس كلهم » ... الى سعيد ابن عبد الله بعرانا

ألم يكن أحد يسائل أبا الطيب ماذنب « كل الناس » حتى يجعلهم ضحية لممدوحيه ؟

وقال في سيف الدولة

ليس الا ك ياعلي همام سيفه دون عرضه مسلول

وكل الناس أعراضهم مبذولة ؟ وقال أيضا

واما وحقك وهو غاية مقسم للحق أنت وما سواك الباطل

وقال في ممدوح آخر

لولاك لم أترك البحيرة والـغورُ دفيء وماؤها شبم

الى ان يقول بعد وصف البحيرة

يشينها جريها على بلد تشينه الادعياء والقزم

فحظ القديم عنده مبخوس منقوص ـ وقال في ابن العميد

ما تعودت أن أرى كأبي الفضل وهذا الذى أتاه اعتياده

وقال في كافور وفيه من الطعن في سيف الدولة مافيه

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلت بياضا خلفها ومآقيا

تجوز عليها المحسنين الى الذي نرى عندهم احسانه و لاياديا

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم الى غيوث يديه والشآبيب

الى الذى تهب الدولات راحته ولايمن على آثار موهوب

وما طربى لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو ان أراك فأطرب

وتعذلني فيك القوافي وهمتى كأنى بمدح قبل مدحك مذنب

وقال في فاتك أحد أمراء مصر

بمصر ملوك لهم ماله ولكنهم مالهم همه

فأجود من جودهم بخله وأحمد من حمدهم ذمه

وأشرف من عيشهم موته وأنفع من وجدهم عدمه

البخـل

يشجعني على ترجيح ضعة خلق المتنبي انه كان بخيلا وحكايات بخله مستفيضة وقد استقصاها صاحب كتاب الصبح المبني (١)

---

(١) ص ٨١ وما بعدها ١٢٠ ــ سبب بخله :

قال أبو البركات بن أبي الفرج المعروف بابن زيد التكريتي الشاعر قال بلغني أنه قيل للمتنبي قد شاع عنك من البخل في الآفاق ما قد صار سمراً بين الرفاق وأنت تمدح في شعرك الكرم وأهله وتذم البخل وأهله ألست قائل

ومن ينفق الساعات في غير ماله   مخافة الفقر فالذي فعل الفقر

ومعلوم ان البخل قبيح ومنك أقبح لانك تتعاطي كبر النفس وعلو الهمة وطلب الملك والبخل ينافي سائر ذلك . فقال ان للبخل سببا . وذلك أني أذكر وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد فأخذت خمسة دراهم في جانب منديلي وخرجت أمشي في أسواق بغداد . فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة فرأيت عنده خمسة من البطيخ باكورة فاستحسنتها و نويت أن أشتريها بالدراهم التي معي فتقدمت اليه وقلت بكم تبيع هذه الخمس بطاطيخ ؟ فقال بغير اكتراث اذهب فليس هذا من أكلك فتماسكت معه وقلت أيها الرجل دع ما يغيظ واقصد الثمن . فقال ثمنها عشرة دراهم . فلشدة ما جبهني به ما استطعت ان أخاطبه في المساومة . فوقفت حائراً ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل . واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهبا الي داره . فوثب اليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا له وقال يامولاي ها بطيخ باكورة باجازتك أحمله الى منزلك . فقال الشيخ ويحك بكم هذا . فقال بخمسة دراهم . فقال بل بدرهمين . فباعه الخمسة بدرهمين وحملها الي داره ودعا له وعاد الي دكانه مسرورا بما فعل . فقلت ياهذ ما رأيت أعجب من جهلك استمت على في هذا البطيخ وفعلت فعلتك التي فعلت وكنت قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولا . فقال اسكت ! هذا يملك مائة الف دينار . فقلت ان الناس لايكرمون أحداً اكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة الف دينار . وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون ان أبا الطيب قد ملك مائة الف دينار »

والغريب من شأن بخله انه مبنى على أساس لايجـدر بمثل أبي الطيب ان يركن اليه . فانه يدعى أنه عاهد نفسه على البخل منذ صغره لان بائع بطيخ حقره استخفافا به لفقره وفضل عليه أحـد التجار الاغنياء وتطوع لخدمته لانه يملك مائة الف دينار فنوى أبو الطيب البخل بقصد الغنى لأن الناس لايكرمون أحداً اكرامهم من يعتقدون أنه يملك مائة الف دينار فقضى حياته في الحرص على جمع الحطام وفرط في كرامته الى حد ان داسه غلمان سيف الدولة وركبوه وصارت عمامتـه في رقبته وهو يزاحمهم على التقاط الدراهم التى نثرها عليهم الأمير

الا ان حكاية « الغلام ذى الاصداغ» التي تقدمت في أول هذا الباب (ص٨٢) ربما أشعرت بجود المتنبي ولكني لم أعثر على قول ما في هذا المعنى

ومن حكايات بخله : ــ حكى أبو بكر الخوارزمى أن المتنبي كان قاعداً تحت قول الشاعر

وان أحق الناس باللوم شاعر   يلوم على البخل الرجال ويبخـل

وانما أعرب عن طريقته وعادته بقوله

بليت بلى الاطلال ان لم أقف بها   وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

قال حضرت عنده يوما وقد احضر مالا بين يديه من صلات سيف الدولة على حصير قد فرشه فوزنه وأعيد الي الكيس . وتخللت قطعة كأصغر مايكون بين خلال الحصير فأكب عليها بمجامعه ليستنقذها منه واشتغل عن جلسائه حتى توصل الي اظهارها وأنشد قول قيس بن الخطيم

تبدت لنـا كالشمس تحت غمامة   بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ثم استخرجها ــ فقال له بعض جلسائه أما يكفيك مافي هذه الاكياس حتى أدميت أصبعك لاجل هذه القطعة فقال انها تحضر المائدة .

ومنها :ــ قال أبو الفرج الببغاء وأذكر ليلة وقداستدعي سيف الدولة بدرة فشقها بسكين الداوة فد أبو عبد الله بن خالويه طيلسانه فحثا فيه سيف الدولة صالحا ومددت ذيل ذراعي فحثا لي جانبا والمتنبي حاضر وسيف الدولة ينتظر منه مثل مافعلنا فما فعل فغاظه ذلك فنثرها كلها على الغلمان . فلما رأى المتنبي أنه قدفاتته

هل يجتمع البخل والشجاعة

قال ابن فورجه «كان المتنبي رجلا داهية ، مر اللسان ، « شجاعاً » ، حافظاً للآداب عارفاً بأخلاق الملوك ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الا « بخله وشرهه على المال »(١)

مما أعجب له ان يعرف المتنبي بالبخل و بالشجاعة في آن واحد . وقد ألف السيد توفيق البكرى رسالة في خلق أبي الطيب(٢) ونحا نحو المتقدمين فذكر البخل والشجاعة دون أن يبدى أى ملاحظة على استحالة التوفيق بين هاتين الصفتين أو صعوبته

ومما استدل به المتقدمون على شجاعة المتنبي حادثة مقتله فانه بعد أن هرب قال له خادمه أتكون صاحب القول المشهور

زاحم الغلمان يلتقط معهم فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه وركبوه وصارت عمامته في رقبته فاستحى ومضت به ليلة عظيمة وانصرف. فخاطب أبو عبد الله ابن خالوية سيف الدولة في ذلك فقال يتعاظم تلك العظمة وينزل تلك المنزلة لولا حماقته . . .

ومنها :ــ حكى ان أبا الطيب المتنبي دخل مجلس ابن العميد وكان يستعرض سيوفا فلما نظر ابا الطيب نهض من مجلسه وأجلسه في دسته ثم قال له اختر سيفا من هذه السيوف فاختار منها واحدا ثقيل الحلى واختار ابن العميد غيره فقال كل واحد منهما سيفي الذي اخترته أجود ثم اصطلحا على تجربتهما فقال ابن العميد فبماذا نجربهما؟ فقال أبو الطيب في الدنانير يؤتى بها فينضد بعضها على بعض ثم تضرب به فان قدها فهو قاطع ــ فاستدعي ابن العميد بعشرين دينارا فنضدت ثم ضربها أبو الطيب فقدها وتفرقت في المجلس فقام من مجلسه المفخم يلتقط الدنانير المتبددة فقال ابن العميد ليلزم الشيخ مجلسه فان أحد الخدم يلتقطها ويأتى بها فقال بل صاحب الحاجة أولي

(١) الصبح المنبى ص ٨١ ج ١

(٢) المقتطف السنة ١٧ ص ٣٦١ وصهاريج اللؤلؤ للبكرى ص ٣٣٦

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وتهرب أمام خصومك ؟ فرجع وقاتل حتى مات .

الا ان الرجوع بعد الهرب فيه مظنة دافع آخر خلاف الشجاعة فقديكون رجوعه عن كبرياء أثارها حب الذات مثلا وقد يكون رجوعه طمعا في استنقاذ أمواله التي كانت معه

ويستدلون أيضا على شجاعة أبي الطيب بأنه صحب سيف الدولة في عدة غزوات الى بلاد الروم منها غزوة الشتاء التي لم ينج منها الا سيف الدولة بنفسه وستة أنفار أحدهم المتنبي وأخذت الروم عليهم الطرق فجرد سيف الدولة عليهم سيفه وحمل على العسكر وفرق الصفوف وبدد الالوف (١)

ويلاحظ أيضا على هذه الحكاية انها لا تقطع بشجاعة أبي الطيب وانما تشهد ببسالة سيف الدولة واقدامه . فالجندى الجبان قد يسير بلا ارادة ولا اختيار تحت تصرف القائد الشجاع

ولو سلمنا بصحة الروايتين المتقدمتين فان هناك روايات وقرائن أخرى تدل على عكس ذلك .

حكي الرّقي عن سيف الدولة — قال كان المتنبي يسوق فرسه فاعتلقت بعمامته طاقة من الشجر المعروف بام غيلان فكان كلما جرى الفرس انتشرت العمامة وتخيل المتنبي ان الروم قد ظفرت به فكان يصيح « الامان ياعلج! » قال سيف الدولة فهتفت به وقلت « أيما علج ؟ » هذه شجرة علقت بعمامتك — فودّ لو أن الارض غيبته » (٢)

عندنا حادثة أخرى وهي حادثة ابن خالويه الذى ضرب المتنبي بمفتاح حديد وأسال دمه على وجهه وثيابه — فأين كانت شجاعته يومئذ ؟

يقول المتنبي في كافور بعد أن أعيته الحيل فى استمالته اليه :

---

(١) و(٢) الصبح المنبى ص ٥٥ ج ١ — يلاحظ ان لفظة أنفار هنا غير صحيحة لأن النفر تفيد الجماعة قال تعالى « قل أوحى الي أنه استمع نفر من الجن فقالوا .. »

« ألا فتى يورد المندى هامته » ـ فلماذا لا يكون هو ذلك الفتى ؟

وانى أظن ان الشجاعة والبخل لا يجتمعان في قلب واحد فان البخل ينافي كافة المروءات على الاطلاق ـ انظر الي أي فضيلة تجدها تستدعى قسطاً من الجود بشيء محبوب : هذا يجود بماله ومكانته وذاك يجود بوقته وراحته وذاك يجود بعلمه وصناعته الي غير ذلك مما يدخل تحت ما يسمى « تضحية » وآخر ما يجود به الانسان انما هى حياته كما قال مسلم بن الوليد « والجود بالنفس أقصى غاية الجود »(١)

وأظن إن البداهة تقضى بأن الذى لا يستطيع الأدنى لا يستطيع الاقصى ـ من باب أولى

وانى أرى ان أبا الطيب قد كتب على نفسه كراهة الكرم والشجاعة بقوله :

« الجود يفقر والاقدام قتّال »

الغرور

قل ان يصادف الشباب بلا غرور وقل ان يصادف الغرور فى غير الشباب وما ذلك الا من ان الناشىء لم يكتسب من التجارب ما يقوى فكره و يسدد نظره فتراه يستخف بصعاب الامور و يجد لمعضلات المشاكل حلولا عديدة و يظن انه وفق الى ما لم يوفق اليه غيره من فضل أو علم أو هداية أو غير ذلك ـــ وهو صادق فى هـذا الزعم من حيث انه لا يفترى شيئا من عند نفسه فاذا رأى قلب الانظمة الاجتماعية رأسا على عقب أمراً هينا يسـتطيعه اذا عالجه فما ذلك الا من ان مداركه وعواطفه وخيالاته تصور له المسألة بصورة كاذبة فيغتر بالظواهر الخادعة و يسير على غير هدى.

---

(١) وهـذا رأي الغزالى في كتاب الاحياء عند ما قسم درجات الجود ـ وعلماء الاخلاق في الاسلام الذين أخذوا بتعاليم اليونان الاقدمين يجعلون الشجاعة وسطاً طرفاه الجبن والتهور ـ وهذا ما ينطبق على حال ابى الطيب

فالحكايات المروية عنه اذا دققنا النظر فيها لا تثبت اعتدال أبى الطيب في القوة الغضبية — كما يسميها المتقدمون — ولكنه يميل عنها اما الى ناحية فيقع في الجبن واما الى الناحية الاخري فيقع في التهور

فهو اذاً لا يكذب على الناس ولا يحاول ان يخدع نفسه ولكنه يعتقد عقيدة فاسدة ويتمسك بها تمسكا أعمي ولا يمنعه من الاقلاع عنها الا عجزه عن مقاومة الظروف التي فتنته . ولكن اذا نضجت مداركه وانقشعت عن نفسه تلك الصور الكاذبة التي رمتها أحلام الشباب فانه بلا شك يرجع عن غيه الذي كان يراه من قبل هدى .

هكذا كان أبو الطيب على ما أظن . فاني أراه صادقاً في غروره تصدر دعاواه عن قلبه و يعتقد أنها حقائق لا ريب فيها وغاية ما في الامر انه لم يكن صادق النظر ولا سيما في أيام شبيبته .

كان يزعم انه يستطيع ان يخضع لسلطانه ملوك العرب والعجم وانه فاعل ذلك لا محالة . ولعله لم يكن يري من بين الخلائق نفراً يستهان بهم و ينال من كرامتهم الا الملوك — وهذه غاية في الغرور لم يصل اليها كثير من الناس.

عذله ابو سعيد المجيمرى على تركه لقاء الملوك فقال أبياتاً تقدم الاستشهاد بها في مكان آخر ظن فيها ان حد حسامه ورؤوس رماحه وصدور خيله سترفع الحجاب بينه و بين الملوك ولكن ماذا جرى ؟ رأينا ذلك من قبل — واليك أمثلة من أقواله:

وجنبني قربَ السلاطين (مقتُها) وما يقتضيني من (جماجمها) النسر
واني رأيت الضر أحسن منظراً وأهون من مرأى صغير به كبر

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدا (ومن عصي من ملوك العرب والعجم)

فلا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر
(وتضريب أعناق الملوك) وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

صحبت ملوك الارض مغتبطا بهم وفارقتهم ملآن من حنق صدرا

على انه خصّ نوعا من الملوك باللوم ونال من أعراضهم بقدر ما أشتهي أولئك هم ملوك الاعاجم قال فيهم

لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم

لما زالت عن شاعرنا دفعة الغرور وعلم أن لا طاقة له بمناوأة الملوك « وتضريب

أعناقهم » وانه فى حاجة الى الوقوف بأبوابهم والتماس خيراتهم تزلف اليهم بأقوال الرياء وأعطاهم ما يشتهون من المدائح ـ أنظر الى كلمة النفاق التي تدور على ألسنة كل من يتقرب الى العظماء قد قالها أبو الطيب في بدر ابن عمار :

يا ذا المعالى ومعدن الادب سيدنا وابن سيد العرب

وقال

أن الامير ادام الله دولته لفاخر كسيت فخراً به مضر

ان « سيدنا » و « ادام الله دولته » وغيرهما من الدعوات وعبارات التزلف لا تتفق مع ما تقدم من التهديد والوعيد ـ كما أن التشهير بملوك الاعاجم لا يتفق مع مدائحه التى لا تحصى فيهم

يظهر أن غرور شاعرنا بقوته وسلطانه كان ينصرف شيئاً فشيئاً كلما زاد فى التقرب من العظماء. ولكن قام فى نفسه غرور آخر يرضى الامراء الا هو غروره بشعره فبدلا من ستهانته بالملوك أخذ يستهين بالشعراء ويمجد نفسه ويقرظ شعره وله في ذلك اقوال كثيرة جدا أخص منها بالذكر بيتا واحدا وهو

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

على أن لهذا الغرور في الشعر أصلا آخر وهو باب الفخر المعروف عند شعراء العرب وقد زاد المتأخرون في هذا الباب حتى أصبح شعرهم في الفخر أشبه شيء بهذيان المحموم وما أصدق قول ابى تمام الذى قاله في أحد ممدوحيه لو طبق على كل شاعر ينظم في الفخر

مازال يهذى بالمكارم والندى حتى ظننا انه محموم

حقا أن قسما عظيما من شعر ابى الطيب مملوء بانواع من الادعاء لو تأملها الناظر لاخرجها من كلام العقلاء انظر الى قوله

أي محل أرتقى ؟ أي عظيم اتقى ؟
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرق

ولو برز الزمان اليّ شخصا　　لخضب شعر مفرقه حسامي

لعمرك . . . .　　(أيحسبني ذا الدهر أحسبه دهراً)؟

اني وان لمت حاسديّ فما　　انكر اني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم　　(له على كل هامة قدم)

ليس التعلل بالآمال من اربي　　ولا القناعة بالاقلال من شيمي
ولا أظن بنات الدهر تتركني　　حتي تسدّ عليها طرقها همي

أين فضلي اذا قنعت من الد　　هر بعيش معجّل التنكيد

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها　　كأني بني الاسكندر السد من عزمي

انكر في معاقرة المنايا　　وقود الخيل مشرفة الهوادى
زعيم للقنا الخطيّ عزمي　　(بسفك دم الحواضر والبوادى)

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ　　كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا　　كثيرا اذا اشتدوا قليل اذا عدوا
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده　　وضرب كأن النار من حره برد

لتعلم مصر ومن بالعراق　　ومن بالعواصم اني الفتى
واني وفيت واني ابيت　　واني عتوت على من عتا
ومن يك قلب كقلبي له　　يشق الى العز قلب التوى

سدكت بصرف الدهر طفلا ويافعا　　فافنيته عزما ولم يفنني صبرا
اريد من الايام ما لا يريده　　سواى ولا يجرى بخاطره فكرا
واسألها ما استحق قضاءه　　وما انا ممن رام حاجته قسرا

ما تريد النوى من الحية الذوّ　　ق حر الفلا وبرد الظلال
فهو امضى في الموت من ملك المو　　ت وامرى في ظلمة من خيال

يرى النجوم بعيني من يحاولها كأنها سلب في عين مسلوب

هذا قليل من كثير مما جاء في ديوانه. ولولا اننا اعتدنا مثل هذا الغلو من الشعراء لكان كلام ابي الطيب أعجوبة في نظرنا. أجل من ذا الذي لا يدهش من فتى لم يخرج عن دائرة الصعاليك مدة طويلة من حياته ثم لجأ الى أبواب الامراء يطلب نوالهم — يغض من قدر الملوك ويتوعدهم ولا يحفل بعظيم ويحتقر «ماخلق الله ومالم يخلق» او يرى أن «له على كل هامة قدم»! يطالب «سفك دم الحواضر والبوادى»! ويزعم انه عليهم باسرار الوجود خبير بما في السموات والأرض يحاول أن ينال النجوم و يطلب حقه تارة بالضرب والطعن وتارة يسأل الأيام هذا الحق و يريد منها مالا يريده سواه

ولا ينبغي أن ننسى قبل كل شيء أن الرجل صادق في لهجته (ومجيد في صنعته بالطبع) ولولا ذلك لما عدت اقواله هذه حسنات يستشهد بها ولو كان قوله غير صادر عن قلبه لضاعت بهجة الفخر ورواؤه ولظهرت عليه آثار الضعف والسخف والسماجة

أنظر الى قوله «سأطلب حقي بالقنا ...» أو قوله «وأسألها ماأستحق قضاءه» تحسبه ملكا نزع عن عرشه وتحس بشرف المطالب وكرامة المدعى

و بالجملة فان الغرور قد أخذ من نفس شاعرنا مأخذه بحيث انه اذا تنازل عن دعوى من دعاويه وجد أخرى يتمسك بها وخاتمة غروره كانت دعوى العظمة الفنية والتفوق في الشعر على من سواه وعد الامراء أقرانه في المكانة واتصاله بهم منة عليهم. قال:

وما الدهر الا من رواة قصائدى اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً

ان هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيه «بيننا» فقضى باللفظ «لى» والحمد «لك»

شاعر المجد «خدنه» شاعر اللفظ «كلانا» رب المعاني الدقاق

تفضلت الايام بالجمع «بيننا» فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد

هذا مع أن أبا الطيب لم يكن ليرضى بهذه المهنة من قبل و يلوم نفسه على اشتغاله بالشعر عن طلب المعالي ــ قال

الى كم ذا التخلف والتوانى　　وكم هـذا التمادى في التمادى
وشغل النفس عن طلب المعالى　　ببيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الشباب بمسترد　　ولا يوم يمر بمستعاد

ومن غروره انه كثيراً مايشبه نفسه بالانبياء كقوله

أنا فى أمة تداركها الله　　غريب « كصالح » في ثمود
ما مقامي بأرض نخلة الا　　كمقام « المسيح » بين اليهود

وفي هجاء أحد خصومه

يالك الويل! ليس يعجز « موسى »　　رجل حشو جلده « فرعون »

***

عـدم المداراة

يظهر من مجموع أحوال شاعرنا انه لم يكن يعرف المداراة فاكتسب له من جراء ذلك أعداء وحساداً في كل مكان حل فيه ونراه لذلك أكثر من ذكر الحساد في شعره فاستخف بهم تارة وحمل عليهم حملاته المنكرة مراراً حينما كانت تشتد عليه وطأتهم و يرى ان مركزه قد تهدد بسببهم . فكان له خصم في حاشية بدر بن عمار وهو كاتبه « ابن كروس » وكان له في حاشية سيف الدولة خصوم عديدون منهم أبو فراس الحمدانى من بيت الامارة ولا ينبغى أن نغفل حادثة السهم الذى رماه به أحد الغلمان عقب انشاده قصيدة « وآحر قلباه » . ــ وكذلك كان السبب القريب في انفصاله عن حاشية سيف الدولة ما قام بينه و بين ابن خالويه النحوى من الخصام والشقاق . ــ وقد اكتسب في مصر عداوة « ابن حنزابه » وزير كافور وانتهى به الامر الى معاداة كافور نفسه . ــ ولما فر من مصر وقصد بغداد أثار على نفسه سخط كبرائها وقامت عليه قيامة الشعراء والادباء الذين أغراهم به الوزير المهلبي ومن شايعه وظهرت الاهاجى المرة التى وجهت الى أبي الطيب . ــ ثم زاد عـدد أعدائه بانضمام

خصم جديد هو الصاحب ابن عباد وهو الذى أساء كثيراً الى سمعة أبى الطيب من وجهة الصناعة . ـ وكان موته أيضاً ثمرة من ثمرات العداوة التى شب نارها بهجائه المقذع فى حق ضبة بن يزيد العتبى .

كل هذه الاهانات لحقت بأبى الطيب لأنه لم يستطع ان يصالح الناس و يكسب ودهم ولو أنه جاملهم وغض طرفه عن شيء من أذاهم في أول الامر واتبع سياسة « المداراة » لكف عن نفسه عدوات كثيرة . ولكنه أغرى الناس بنفسه بسوء تدبيره فهاجت الافكار عليه ولم يسلم من نكاية حساده حتي مات بيد قوم يثأرون لانفسهم من جناية لسانه .(١)

---

(١) على أن كثيراً من الناس لو كانوا في ظروف أبي الطيب لما فعلوا الافعله ولما استطاعوا أن يجتنبوا المشاكل التى وقع فيها لأن مداراة الحساد من أشق التدابير غضاضة على النفس

وكيف يداري المرء حاسد نعمة اذا كان لا يرضيه الا زوالها

فهي أمر من الصبر وأحر من النار ولا يستطيعها الا من خلقوا لها ورزقوا قوة في نفوسهم واستطاعوا أن يضربوا بين قلوبهم ووجوههم بحجاب سميك فلا تنم وجوههم على قلوبهم . ولذا كانت المداراة من الشروط الواجب توفرها في كبار الرجال الموكولة اليهم جلائل الاعمال كي يستقبلوا الامور بالتدبر والاناة دون ان تبدو عليهم امارات الانفعال . ولذا يصعب على قليل التجربة ان يتبين من وجوههم ما يدور في أنفسهم من النيات المختلفة ولا يعلم اذا كانوا غضاباً عليه أو راضين عنه ولا يدرى اذا كانوا من انصاره أو من خصومه .

الا أن كل واحد من الناس مضطر الى معاملة أنواع شتى من بنى جنسه وتدعوه مصالحه المتعددة الي الاحتكاك بهم وتلجئه ضرورات الحياة الى الاشتراك معهم في الاعمال فكلما زادت فيه قوة المداراة كلما كان الى النجاح أقرب ومن الاخطار في مأمن وربح الاخوان والانصار وأدرأ ألد الخصوم والاعداء وكلما ضعفت فيه تلك القوة عرض نفسه الى أذى الاشرار ومصالحه الى البوار واكتسب في كل ساعة عدواً لدوداً وفقد صاحباً ومعيناً .

ولو كان أبو الطيب شاعراً فقط لما ناقشه الحساب أحد عن تقصيرة في المداراة أما وهو الحكيم الذي يدعو الى الخلق الكريم ويدّعي انه يعبر عن مكنون ضميره في قوله

وان بذل الانسان لي جود عابس   جزيت بجود التارك المتبسم

فقد حقت عليه المؤاخذة هذا فضلا عن انه صاحب مطامع كبيرة يتطلع الى الملك ولو على ولاية واحدة يمنحه اياها كافور الاخشيدي . فكان الاولى به ان يتنازل عن هذا المطلب لأنه أعرف بنفسه من غيره .

***

الكبرياء

من الصفات المشهورة عن أبي الطيب الكبرياء المتناهية . وقد تقدمت حكايات مختلفة(١) تشير الى هذه الصفة التي أساءت كثيراً الى شاعرنا . الاان كبرياءالاذكياء

وما بكثير ألف خل وصاحب   وان عدواً واحداً لكثير

وليست المداراة مطلوبة من كافة الناس على أتم مظاهرها وأكمل خصائصها بل لا بد لكل واحد أن يأخذ منها بقدر ما يستطيع ويجتهد في الحصول على المزيد منها بكل ما فيه من قوة ولا يزال يروض نفسه عليها حتى يتعلقهاو تصبح ديدنه في كل أموره .

وقد أوصى النبي الامين أهل ملته بهذه الخلة الطيبة فقال « رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى مداراة الناس » وقال في موضع آخر « انا لنبش في وجوه قوم تلعنهم قلوبنا » .

والاقوال المأثورة في مداراة الناس كثيرة ولعل أهل الادب سموها « مداراة السفهاء » لأنهم يرون ان ذوي الحلوم آمن جانباً وأبعد عن الاذى وأقرب للتقوي . فخصوا المداراة بالسفهاء لأنها في حقهم ألزم وأوجب .

(١) كبره على سيف الدولة والوزير المهلبي وحادثة الحاتمي والصاحب ابن عباد ـ والحكاية الآتية ضغث على ابالة :

« حدث ابو عمر بن عبد العزيز بن الحسين قال سألت محمداً بن القاسم المعروف

لا تظهر باردة سمجة مثل كبرياء الاغبياء فان النباهة والذكاء يخفيان كثيراً من المعايب و يلبسانها في غالب الاحيان ثوب الفضائل. من أجل ذلك زعم كثيرمن الناس ان كبر أبي الطيب شمم واباء أو شجاعة واقدام أو فتوة ونبل الى غير ذلك من المحامد مع انه عيب لا مراء فيه قد سدل عليه حسن السبك ستاراً جميلا فحسبه الناس حسنة من الحسنات

***

ان الكبرياء تولد في النفس صفات أخرى هي نتائج ضرورية للكبرياء. فالمتكبر معجب بنفسه مغرور بأعماله وصفاته ومعارفه فخور بكل ما ينسب اليه . من أجل ذلك تراه يراقب الناس و يلاحظ حركاتهم ليعلم اذا كانوا يعطونه من التجلة والاكرام مايزعم انه واجب مفروض عليهم قبله . فان بدا له شيء من تقصيرهم صب عليهم غضبه

بابن الصوفي كيف كان امتداح ابي الطيب لابى القاسم طاهر بن الحسين العلوي فحدثني ان الامير ابا محمد (بن طغج) لم يزل يسأل أبا الطيب في كل ليلة من شهر رمضان اذا اجتمعنا عند الافطار ان يخص ابا القاسم طاهراً بقصيدة من شعره يمدحه بها وذكر انه اشتهى ذلك . ولم يزل ابو الطيب يمتنع ويقول ما قصدت غير الأمير ولاامتدح احداً سواه . فقال له ابو محمد قد كنت عزمت ان أسألك قصيدة أخرى في فاجعلها في ابى القاسم وضمن له عنه مائة دينار فأجابه الى ذلك . قال محمد بن ابى القاسم فمضيت انا والمطلبي برسالة طاهر لوعد ابى الطيب فركب معنا ابو الطيب حتى دخلنا عليه وعنده جماعة من أهل بيته وأشراف وكتاب . فلما اقبل ابو الطيب نزل ابو القاسم عن سريره وتلقاه بعيداً من مكانه فسلم عليه ثم اخذه بيده فأجلسه في المرتبة التى كان فيها قاعداً وجلس بين يديه فتحدث معه طويلا ثم انشده . قال عبد العزيز وحدثنى ابو على بن القاسم الكاتب قال كنت حاضراً بهذا المجلس وهو كما حدثك ابو بكر الصوفي ـ ثم قال لى اعلم انى ما رأيت ولا سمعت في خبر بشاعر جلس الممدوح بين يديه مستمعاً له غير أبى الطيب فانى رأيت طاهراً تلقاه ثم أجلسه مجلسه وجلس بين يديه فأنشده

اعيدوا صباحي فهو عند الكواعب . . . » (الصبح المنبي ص١٠٩ ج ٢)

وأصلاهم نار حقده ـ فهو على الدوام كثير التذمر من الناس غضوب عليهم حاقد على أعمالهم سيء الظن بنياتهم نحوه . وهـذا ما يورثه الكآبة والانقباض ويولد في نفسه الكراهة والبغضاء للناس ويوحي اليه الآراء الفاسدة في حقهم فيعيش في معزل عنهم ويكتفي بنفسه قانعاً بها . وسنرى أثر ذلك في الشعر الفلسفي

***

استقامته

مما يمدح من صفات أبي الطيب انه لم يكن يحب اللهو وانه لم يشرب الخمر الا مرة واحدة ـ على رأي الاستاذ الاسكندري[١] ـ وانه كان « مستقيما » بحسب التعبير المتعارف بيننا ـ ولا أستطيع ان أقول انه كان « صالحاً »

حكي علي بن أبي حمزه البصروى[٢] قال : « بلوت من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة وذلك انه ما كذب ولا زنا ولا لاط وبلوت منه ثلاث خلال ذميمة وذلك انه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن » (٣)

هذه الشهادة فى حق شاعرنا خير ما يذكر له ـ اذا كان الشاهد صادقاً ـ لأن الشعراء وخصوصاً في العصر العباسي كانوا فى كثير من الاحوال ندماء الامراء على الشراب وكانت لهم مجالس لهو لا يبالون فيها بما يفعلون ويرتكبون فيها موبقات يندى لها جبين الادب ولا سيما بعد ان انتشر اقتناء الجوارى «المتأدبات» والمغنيات وبالجملة « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه »

فى ديوان أبى الطيب بعض أشعار قالها فى الخمر وهى تدل علي انه لم يشربها الا مرغماً ارضـاء لأميره الذى ينادمه . جاء في ديوانه : وسقاه بدر بن عمار ليلة فأخـذ الشراب منه ثم أراد الانصراف فلم يقدر على الكلام فقال هذين البيتين وهولا يدرى فأنشده اياهما ابن الخراسانى وهما قوله

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربيـة في العصر العباسى ص ٢٧٩ (٢) أو البصرى راوية المتنبي (٣) الصبح المنبى ص ٧٧ و ٧٨ ج ١

نال الذي نلت منه مني ... لله ما تصنع الخمور
وفي انصرافي الى محلي ... أآذن أيها الامير ؟

وعرض عليه الصبحة في الغد فقال :

وجدت المدامة غلابة ... تهيج للقلب أشواقه
تسيء من المرء تأديبه ... ولكن تحسن اخلاقه (١)
وأنفس ما في الفتى عقله ... وذو اللب يكره انفاقه
وقد مت أمس بها مرة ... ولا يشتهي الموت من ذاقه

وهنا قد وجه شيئا من اللوم الى الشاربين ولكنه لم يستطع ان يجاهر مجاهرة الواعظ الذي لا يخشى في النصيحة لوم اللوام ـ الا انه في موضع آخر كان اصرح وعاتب أميره عتابا جميلا : كان بدر قد تاب عن الشراب مرة بعد أخرى ثم رآه ابو الطيب يشرب فقال ارتجالا :

في كل يوم بيننا دم كرمة ... لك توبة من توبة من سفكه
والصدق من شيم الكرام فقل لنا ... أمن الشراب تتوب أم من تركه ؟

فقال بدر بل من تركه . وذكر في الديوان أيضا : وسقاه بدر ولم يكن له رغبة في الشراب فقال .

لم تر من نادمت الا كا ... لا لسوى ودك لى ذاكا
ولا لحبيها ولكنني ... «أمسيت أرجوك وأخشاكا»

فهنا يقول بانه لم يشرب الخمر عن حب وانما يشربها طاعة لاميره وهو بين الخوف والرجاء ـ وشرب أيضا في منادمة ابن طغج بالرملة ـ ويظهر أنه لم يكن يحتمل الشراب بل كان يأخذ منه الخمر سريعا ـ وجاء في الديوان انه هم بالنهوض من مجلس الشراب فاقعده الامير فقال

مال عليّ الشراب جدا ... وانت للمكرمات أهدى

---

(١) هذا موضع نظر ! ؟ !

فان تفضلت بانصرافي عددته من لدنك رفدا

والظاهر انه لم يكن يميل الى الشراب منذ صباه فقد ورد في ديوانه انه حلف عليه صديق له بالطلاق أن يشرب فقال

وأخ لنا بعث الطلاق أليّة لأعلان بهذه الخرطوم
فجعلت ردى عرسه كفارة عن شربها وشربت غير أثيم

ودخل على عليّ بن ابراهيم التنوخي فعرض عليه كأسا فيها شراب أسود فقال على البديهة

اذا ما الكأس ارعشت اليدين صحوت فلم تحل بيني وبيني
هجرت الخمر كالذهب المصفى فخمري ماء مزن كاللجين

وقال له بعض الكلابيين اشرب هذه الكأس سرورا بك فقال ارتجالا

اذا ما شربت الخمر صرفا مهنأ شربنا الذى من مثله شرب الكرم
الا حبذا قوم نداماهم القنا يسقّونها ريا وساقيهم العزم

وقال ايضا ارتجالا

لأحبق أن يملؤوا بالصافيات الأكوبا *
وعليهم ان يبذلوا وعليّ ان لا اشربا
حتى تكون الباترا ت المسمعات فأطربا

والابيات المتقدمة تشهد بان ابا الطيب لم يكن ممن يشحذون قرائحهم بالشراب ذلك الداء الذي تفشى في الاسلام في العصر العباسي خصوصا بعد ان انقسم العلماء الشرعيون فى تحريم بعض الانواع وظهرت آراء العراقيين وآراء غيرهم و بعد أن شرب الخلفاء فاقتدي بهم عامة الشعب « والناس على دين ملوكهم »

***

أما ترك الصلاة والصيام وقراءة القرآن فليس مما يستغرب على من يدّعى نبوة ويجيء بكتاب منزل ـ لان عقيدة ابي الطيب غير معروفة تماما الا أنه مع ذلك معدود من المسلمين و يدافع عنهم في شعره و يذكر سلالة أهل البيت بالتعظيم والتكريم

وقد ذكرت له في شعره الفلسفي بعض أبيات فيها استخفاف بالدين والعقيدة على العموم : واذكر هنا أبياتا تتجلى فيها العقيدة السليمة أو على الاقل تنبىء عن عاطفة دينية وثقة بالله

لست الملوم انا الملوم لانني ‏ أنزلت آمالي بغير (الخالق)(١)

ويقول عن نفسه

تغرّب لا مستعظما غير نفسه ‏ ولا قابلا الا (لخالقه) حكما

الى أى حين انت في زي محرم؟ ‏ وحتى متى في شقوة والى كم ؟

فثب (واثقا بالله) وثبة ماجد ‏ يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

يذم (٢) لمهجتي (ربي) وسيفي ‏ لذا احتاج الوحيد الي الذمام

وقوله يخاطب جواده

أي كبت كل حاسد منافق ‏ انت لنا وكلنا (للخالق)

وقال في مدح سلالة من أهل البيت النبوى

قد أجمعت هذه الخلائق لي ‏ انك يا ابن (النبي) أوحدها

هو ابن (رسول الله) وابن وصيه ‏ وشبههما شبهت بعد التجارب

فحييت خير ابن لخير اب بها ‏ لأشرف بيت في لؤي بن غالب

اما شهادة البصروي في مجموعها فيلاحظ عليها شيء من الاندفاع وعدم التروى والواقع ان المسائل الشخصية المحضة التي لا تتم الا في الخفاء كالزنا مثلا لا يستطيع الشاهد أن يقرر حقيقتها ولذلك كانت شهادة كثير من المتقدمين في مثل هذه الاحوال محاطة بشيء من التشكك فيقولون فلان مستور الحال لانهم لا يرون على ظواهره ما يريب ويقولون فلان متهتك لانه لا يبالي بما يفعل امام الناس

---

(١) تقدم هذا البيت محرفا في ص ٩٩

(٢) أذم له اذا أعطاه الذمة والجوار

وعلى كل حال فشهادة البصروى ليس لها كبير شأن في الحكم على خلق ابي الطيب في مجموعة فاننا نعلم ان كثيرا من الناس ممن يشتهرون بالاستقامة والصلاح ويؤدون كثيرا من الاعمال والتقاليد والرسوم الظاهرية التي ينخدع بها قليلو التحربة يكونون في الحقيقة ذوى اخلاق منحطة يرتكبون ما لا يرتكبه الفسقة المعربدون

واذا صح ان الرجل كان بخيلا مشغولا بطلب الدنيا منكبا على جمع حطامها حارما نفسه من مباحات الشريعة — على وفرتها — فلا عجب أن يحرم على نفسه محظوراتها اما حرصا على المال من الانفاق او حرصا علي الوقت أن يضيع في غير كنز وتحصيل

***

خاتمة

ليس الخلق نتيجة « الصدفة العمياء » كما يقولون وانما هو ثمرة الوراثة القريبة والبعيدة والوسط والتربية والتعليم في الصغر والحوادث الكبرى التي يصادفها الشخص في حياته الاولي حينما تكون النفس لا تزال في مرونتها قابلة للتشكل . ولئن انكر بعض المفكرين في القرون الماضية كل فعل للوراثة لاغراض اجتماعية أو دواع سياسية ترمي كلها الي المطالبة بالمساواة المدنية — وقالوا ان الطبيعة لا تلد امراء وان الناس اجمعين يولدون متساوين على السواء — فقد ثبت من دراسة النفس والاخلاق كما ثبت من التجارب أن الناس كما يولدون مختلفين في الخلق متباينين في الصورة منهم الصحيح والسقيم والجميل والقبيح والابيض والاسود الي غير ذلك من الفوارق والمميزات فكذلك يولدون مختلفين في الخُلق والطبائع منهم القوى والضعيف والثابت والمضطرب والكريم والخبيث وهلم جرا

اذن من اين جاء ذلك الخلق لشاعرنا ؟

الظاهر ان ابا الطيب قد تلقي هذا الخلق وراثة عن اصوله وقد تقدم القول بان شاعرنا وضيع الاصل فالراجح انه تلقى خلقه من منبته واذا كان ابوه سقاء فالوسط الذى نشأ فيه وسط حقير بالطبع تشوبه سفالات الطبقة المنحطة وتحيط به نقائص طائفة

معينة من الناس (١)

فعيوب ابي الطيب انما هى عيوب طبقته وقد تشبع بها الجو الذى نشأ فيه فهى من جهة مفروسة فيه بالوراثة ومن جهة اخرى قد نماها فيه الوسط المحيط به

ان هـذه العيوب عظيمة الخطر اذا صادفت كبار الرجال والقابضين على أزمة الامور الكبري والقائمين بالشؤون العـامة على الرغم من علمهم الواسع وذكائهم المفرط واستعدادهم للقيام بجلائل الاعمال ـ واياك ان تحسب أن العلم يتغلب على عيوب

---

(١) لا اقصد بذلك ان النقائص والعيوب مقصورة على الطبقة السفلى من الناس بل ان لكل طائفة ولكل طبقة من الناس معائب ورذائل وسيئات خاصة بهم كما ان لهم فضائل ومحامد وحسنات هي الصق بهم وهم احق بها وأهلها ألا ترى ان فضيلة المثابرة على العمل والصبر على الشدائد اعرق في الطبقة الدنيا منها في الطبقة العليا كما ان رذيلة الكسل والملل آصل في الثانية منها في الطبقة الاولى ـ أولا ترى ايضاً ان الحرص يغلب في سلالة المعدمين والفقراء وان الجود يكثر في اهل النعمة والثراء . ولكل من هذه الفضائل والنقائص أسباب لا تغيب عن فكر المدقق فحرص الفقير على ماله ناشيء من كونه قاسى كثيراً في الحصول عليه ولكن وارث المال الطائل الذى لم يعان أي مشقة في كسبه لا يجد في نفسه حرجا من تبديده فقد تناوله باليمين وهو يبذله الى غيره بالشمال

اولا تري ايضاً ان الضرورة هي التي تقضي على اولى العسر من الناس بمواصلة السعي لتحصيل مايقومون به اود حياتهم فيكتسبون فضيلة الجد والنشاط بفضل الحاجة والضرورة اما اولئك الذين توفرت لديهم كل اسباب النعمة والترف وليس ثمت مايدعوهم الي الكد والعمل فان رذيلة الملل والضجر تنمو فيهم من يوم الى يوم حتى تتأصل فيهم وتمد اعراقها في انفسهم فلا يستطيعون استئصالها بعد

انظر الى شهامة اهل البدو وشجاعتهم والى الجبن والاستكانة في اهل الحضر فما ذلك الا ان هؤلاء قد وجدوا انفسهم بين رجال الشرطة والقائمين بحفظ النظام بينهم يحمونهم ويسهرون على المحافظة على اموالهم وارواحهم وأعراضهم فتركوا شأن الدفاع عن انفسهم متكلين على من نيط بهم حفظ الامن في المدينة أما اولئك فانهم يرون انفسهم بمعزل من كل ناصر الا انفسهم فاعتمدوا عليها واعدوا لكل

الخلق ويهزمها بل انه على العكس من ذلك يمدّ لها السلاح و يمدها بمكتشفاته ومخترعاته و ينير لها الطريق حتى تصل الى أقصى الشر وتعود منه سالمة آمنة

الرجل يفخر بأنه أحرز العلم — وله الحق فى هذا الفخر — ولكن ان لم يكن تحت هـذا العلم ما يستند عليه من خلق قويم فالويل كل الويل لمن يصـادف هـذا الوحش الضارى — تعثر على مثل هذا الوحش في كل فن ومهنة فى كل حرفة وصناعة وتجد من أثره الجرائم الكبرى والفضائل الممزقة والرذائل الرافلة في حلل العزة والوقار(١)

طارىء ما يدفعونه به فادخروا السلاح وتعلموا الرماية وطرق الهرب من العدو الغازى الي غير ذلك من فنون المدافعة والمهاجمة .

يدلنا هذا على ان لكل طائفة من الناس صفات يعرفون بها تدعوهم اليهـا الضرورة رغم ارادتهم .

(١) اراني قد اندفعت على الرغم مني الى بحث خطير الشأن — قام الجدال وان شئت فقل كثر الخصام في حديث « لاتعلموا ابناء السفلة العلم .» والناس بين مصدق ومكذب واختلاف المصدقون به في تأويله — اما تحقيق نسبته وتقدير رجاله واسانيده وتفسير الفاظه وتأويل معناه وتحديد العلم وتعريف السفلة فمما لا اتطلع اليه بالذات وأما درسه من حيث انه قاعدة خلقية فهذا ما استعين الله على الخوض فيه .

العلم في الرجال على الخصوص من اسباب الرفعة وليس هو السبب الوحيد اليها فالمال والجـاه والحسب والنسب والخلقة الطبيعية وقوة البدن والسن ولا سيما عند كثير من الامم القديمة — وقد بقى لها أثر في مجالس الشيوخ اليوم — كل هذه أسباب للرفعة والتكريم وبواحدة منها يمكن للرجل ان يرقى الى أسمي المراتب ويتولي اعمالا ذات شأن خطير — فبالعلم مثلا يحق للرجل الوضيع الناشىء في المنبت السوء النامي في وسط النقائص والدنايا ان يرتقى من بؤرته الي اعلى المناصب وان يتربع في دست الحـكم ويوكل اليه الفصل في كبريات المسائل . . ولكن هل يستطيع ان يقف في حدود النزاهة مثل هذا الرجل الذي شب فرأى نفسه ماهنا في مطعم أو سائقاً للدواب أو كانساً للطرقات الي غير ذلك من المهن

والمرأة كالرجل لها ما تتطلع به الى الرفعة وهو الجمال وتزعم بهـذه النعمة وحدها انها أولى بملك الارض والسماء ولكن هـذا الدمى اذا كان قد دس فيـه سم الخلق السافل جاب الشر وسفك الدماء وأفني الطارف والتليد من المجد والثراء

وما قدمت هذه الكلمة عن المرأة الا لاستدرج الى الحديث ـ ان صح انه حديث ـ « اياكم وخضراء الدمن : المرأة الحسناء من المنبت السوء »

فلا يغررك علم الرجل ولا يغررك جمـال المرأة ولكن تحر الخلق واجعله مرمي بصرك وموضع ثقتك ـ وما أجمل ما أثنى به الله على نبيه الكريم تعليما لأمته وارشادا « وانك لعلى خلق عظيم » مع انه يقول ببالغ حكمته « وما اوتيتم من العلم الا قليلا »

***

(وبعد) فهلا كان الاجمل بنا ان نلجأ الى حسن الظن فى الحكم على أبي الطيب من وجهة الاخلاق فنقول انه يدخل فى دائرة من تشفع فيهم أبو تمام حيث قال :

التى لا يشوبها نقص خلق في ذاتها فقد يجوز ان يشتغل بها الرجل العفيف ويبقى على عفته وكرامته مع فقره وفاقته ولكن الضرورة والواقع يقضيان على المشتغل بها باحتمال الدنايا وارتكاب النقائص هذا يلطمه وهذا يصفع وجهه وذاك يسب اباه وامه . يمد يده بحكم التلقين والتقليد والعادة يستجدى هذا ويستمطر ذاك من اجل خدمة حقيرة يؤديها

قلت ان هذه اعمال ليس فيها وصمة عار في ذاتها وانما الاحتياج هو الذي يشوبها ويميـل باصحابها عن جادة النزاهة والتعفف ويقضى عليهم باحتمال الذل والمهانة والاقدام على ماتأباه الكرامة ـ هذا ما يقال في المهن التى لم تدنسها نقائص خلقية فكيف بالمهن الذليلة في ذاتها ؟ ماذا يكون حال الفتى الصغير الذى يشب في بيت موبوء من الجرائم والكبائر ؟ ما قولك في ابن الخمار أو القواد ما رأيك في ابن الراقصة أو البغى والأمثلة كثيرة ـ انظر الي واحد من هؤلاء الذين تحجرت نفوسهم ومات فيهم روح الشمم والاباء وانطفأت شعلة الكرامة وخمد صوت الضمير في بيته بين أهله وذويه وانظر الى المعاملة الجافية والقسوة المتبادلة بينهم الي غير ذلك مما تستطيع ان تصوره بنفسك ثم انظر اليه بعد ذلك وهو الرجل العظيم الذى رفعه العلم

لا رقـة الحضر اللطيف غذتهـم ... وتباعدوا عن فطنة الاعراب
فاذا كشفتهم وجدت لديهم ... كرم النفوس وقلة الآداب

و بناء على هذا الرأى نقول انه كريم الطبع ولكنه لم يتهذب ولم يكتسب آداب الحضر او اساليب المعاملة الراقية و بقي على خشونة البدوية وه من ذا الذي ماساء قط » ؟ . ولمَ لايبرر انفعالاته « اتقوا غضب الحليم » ؟

لو قلنا انه بدوى فظ بقي على خشونته وفطرته الجافيـة — على الرغم من تحضره والتحاقه منذ شبابه بحاشية الامراء حتي مات . لو فرضنا ذلك لقام امامنا دليل من سـيرة غيره الذين قضوا حياتهم فى البدو ولم يعرفوا المدنية الراقية التي وصلت اليها الدولة العباسية في أيام أبي الطيب ومع هذا فانهم قد حافظوا على كل الظواهر التى لم يحفل بها شاعرنا ببقائهم على مكارمهم الغريزية — هذا من جهة ومن جهة اخرى فان المكارم الخلقية تصادف فى البدو اكثر مما تصادف في الحضر

ولو قلنا ان لكل عالم هفوة وعددنا تلك السقطات التي سردناها من قبيل ما يقع لكل الناس غلبتنا كثرتها ووقوعها طول حياة الشاعر فلو انها كانت مما ارتكبه أيام

وحده الى اكبر الدرجات وملكه شؤون الخلق يقضى فيها بما يشاء — هل يستطيع ان يتخلى عن تلك النقائص التى غرست في طبعه وان ينتزع من نفسه تلك الاخلاق التى تأصلت فيه وأصبحت منه كالماء من الخمر؟ انه لا ينتهى عن عاداته الأولى ولا يتحول عن صفاته التي شب عليها وترعرع ففى كل عمـل من اعماله نقيصة تنم عليـه وفي كل حركه يبديها رذيلة تشهد عليـه وهو لا يستطيع ان يتخلص منها كما لو حاول الهرب من ظله . فمثل هذا اذا دققت الفحص فيه تجد الكبرياء لانه يجتهـد ان يخفي ماضيه الحقير تحت مظاهر العظمة وتجد الشح لانه يخاف العسر الذي نشأ فيه وتجده يحتمل الذل والمهانة ويجمد امام من هو اعلى منه املا في استبقاء مركزه الي غير ذلك مما لا يغيب عن المدقق الخبير . أفتري بعد هذا ان تكل اليه شؤون الناس وان تثق به في امورهم من مال وحياة وشرف ؟

اللهم ان العلم ليس كل شيء — انه السيف فتخير له الساعد الامين تنتفع به والا جلبت به الشر والأذي

صباه لقلنا نزق الشباب أو في آخر عمره لقلنا خرف الهرم مع انه لم يبلغ الى هذه السن

لو قلنا ان غضب الحليم شديد وان اباالطيب قد احرج حتى خرج عن طبعه لوجب ان يكون الرجل قد عاش طول عمره غضبانا . هذا اذا كان الغضب بالقول وغضب شاعرنا لم يكن الا على لسانه كجود كافور في قول شاعرنا

جود الرجال من الايدي وجودهم　　من اللسان فلا كانوا ولا الجود

والا لو غضب بيده لكان عرف كيف يغضب على ابن خالويه اوكافور اوغيرهما من خصومه الكثيرين لا سيما وهو البطل الذي لا يغيب عن لسانه ذكر السيف الذى « يستحل دم الحجاج فى الحرم » ولكنه لم يقل لنا اين كان ذلك السيف في ساعات غضبه

أجل . لو كنت ممن غلبهم الخيال علي أمرهم لتمثلت من الوهم صوتا حزينا ينبعث من اعماق البلاد النائية من الجانب الغربي من سواد بغداد هو صوت ابى الطيب يشكو عقوق المنتسبين الى الادب يقول والاسف آخذ منه مأخذه قوله لسيف الدولة يوم عاتبه عتابه المشهور : « ما كان اخلقنا منكم بتكرمة ! »

نسمع صوت أبي الطيب من ناحية . ونسمع صوت الحق من ناحية اخرى . فلنقل ما قاله تلاميذ الحكيم اليوناني : « ان افلاطون عزيز علينا ولكن الحق أعز علينا منه »(١)

ان قرائن الاحوال تشهد عليه وليس لنا الا الظاهر والله أعلم بالسرائر

---

(١) Amicus Plato , sed magis amica veritas

الباب الثالث

مقدمة في شعر ابي الطيب

(ما قيل عنه)

جزئيات الموضوع :

اختلاف أهل الادب في شعر المتنبي - أنصار الشعر القديم - خصوم أبي الطيب - وقفة بين خصومه وانصاره - اقوال بعض المستشرقين - ابو الطيب وأبو تمام والبحتري — نقد شعر المتنبي — السرقات — السرقة عند البيانيين — توافق الخواطر — بين المتنبي والفردوسي — نثر ابي الطيب

اختلاف أهل الأدب في قيمة شعر أبي الطيب

لا شيء أدل على عظمة الرجل من ان يختلف الناس في الحكم عليه . فاذا سمعت برجل قد قام لنصرته فريق وتعصّب عليه فريق آخر واحتدم الجدال بينهما حتى خرج كل فريق عن جادة الاعتدال فاعلم ان هذا الرجل عظيم من الوجهة التي قام من أجلها النزاع خصوصا اذا بلغ الخلاف الى عامة الناس وجمهور الامة . وهذا مشاهد في عظماء الرجال من ملوك وقواد ومصلحين وعلماء وشعراء وأهل فن وغير ذلك ممن يكونون في حياتهم منسوبين الي الجمهور أو متصلين به أو عاملين لأجله أو مدبرين لشؤونه أو قائدين لأفكاره

واقد كان أبو الطيب واحداً من هؤلاء الذين انشقت الجماعة في الحكم عليهم لا من وجهة الاخلاق مثلا أو الاخلاص في سبيل المصلحة العامة أو غير ذلك من الشؤون العليا التي تمس حياة الامة أو كيان المجموع ولكن من حيث شعره وقيمته من الوجهة الفنية

ولا أظن ان شاعراً من شعراء العربية منذ أول عهدها الى اليوم قد اختلف فيه جمهور المتأدبين كما اختلفوا في أبي الطيب المتنبي ولو كان الخلاف في جزئية من الجزئيات أو في فن من فنون الشعر مثلا لهان الخطب ولكن فريقا من اولى الرأى

ينكرون على أبي الطيب انكاراً باتاً انه شاعر و ينفون أقواله من ديوان الشعر ومن هذا الفريق ابن خلدون أو بالاحرى مشايخ ابن خلدون فى الادب واللغة[1] وفريق يقول بأن المتنبي وزميليه الطائيين هم أشعر شعراء العربية ومن هذا الفريق ابن الاثير الذى قال بأن باب اللام وباب الميم من شعر المتنبي قد تضمنا وحدهما من الجيدالنادر ما لم يتضمنه شعر أحد من الفحول من شعراء العرب[2]

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٢ (المطبعة الازهريه سنة ١٣١١) «ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعرالمتنبي والمعري لعدم النسج على الاساليب العربية فكان كلامهما كلاما منظوما نازلا من درجة الشعر»

(٢) نقله الصبح المبنى ص ١٢٤ وما بعدها ج ٢ عن ابن الأثير ــ ومنه : وكأني بسامع قولي هذا وقد ربا غيظاً ودارت عيناه ــ وليس ذلك الا محض تقليد وجهل بمعرفة اسرار الالفاظ والمعاني ــ ثم قال يشبه المتنبي بامرئ القيس او من كان في طبقته ؟ فاقول ان كان لاحدهم رأسان او لسانان او كان له اربعة ارجل او كان النظر انما هو في تقدم الزمان فلا شك ان اولئك اشعر وان كان النظر انما هو في الالفاظ والمعاني فلو عاش امرؤ القيس ثم مات ثم عاش لما اداه فكره الى تدقيق النظرفى هذا المعنى الذى اورده المتنبيفى قوله

لو قلت للدنف المشوق فديته   مما به لأغرته بفدائه

ولا انه يقول فى مرثية امراة

قد كان كل حجاب دون رؤيتها   فما قنعت لها يا ارض بالحجب
ولا رايت عيون الأنس تدركها   فهل حسدت عليها اعين الشهب

ولا ان يقول في مرثية امراة ايضاً

وما التأنيث لاسم الشمس عيب   وما التذكير فخر للهلال
ولو كان النساء كمثل هذى   لفضلت . النساء على الرجال

على انى ماتركت ديوان احد من الشعراء حتي طالعته وحفظت منه شيئاً فلم اجد لاحد منهم في مراثى النساء مايقرب من هذه الابيات التي للمتنبي وكذلك يجرى الحكم فى المحدثين فانهم لم يأتوا بمثلها ولا مايقرب منها ــ انظر الي قوله

هكذا كان الخلاف بين أهل الادب في قيمة أبي الطيب من الوجهة الفنية ولا شك أن هذا وحده دليل على مكانة الرجل من الفضل وعلو كعبه بين اقرانه وأظن أن هذه القرينة وحدها أقوى من غيرها من القرائن الاخرى التي يستدل بها الناس على مكانة أبي الطيب في الشعر مثل قولهم قال عنه فلان كذا أو شرح ديوانه فلان أو تصدى لنقد شعره فلان أو بلغ عدد شراحه اربعين أو خمسين شارحا

من هذه المقدمة ينبغي أن نستنتج ان شعر الرجل فيه الغث والسمين وكل من أراد أن يبرئه من كل عيب أو ينفي عنه كل حسنة فهو خارج عن حدود الانصاف لهوي في نفسه أولاختلال في حسه ولكن كثيرا ممن يتصدون للنقد يميلون مع فريق دون فريق و يستشهدون باقوال الزعماء الأصليين الذين يكونون فى الاصل اما من خصوم الشاعر أو من أنصاره ولو أنهم أنعموا النظر في حجج كل حزب وقدروا الظروف المختلفة التي أحاطت بالشاعر عند ما نظم و بالناقد عند ما أبدى رأيه لما كان هناك مثل هذا البعد الشاسع بين الاحكام

و يؤخذ على النقاد أيضا أنهم يرثون عداوات ثم يورثونها للناس بلا سبب ولا مبرر . اذا كان الصاحب بن عباد مثلا قد عادى أبا الطيب من أجل مسألة خاصة بينهما ثم اندفع الى تأليف رسالة في مساوى المتنبي انتقاما منه بالطبع فما الذى يبرر غضب النقادين الذين يميلون مع الصاحب ؟وما ذنب الجمهور في أن يتلقن العداوة

واستعار الحديد لوناً والقى لونه في ذوائب الاطفال

فان الشعراء كلهم قد كرروا هذا المعنى الا انهم لم يخرجوا عن معنى الخوف بقولهم « يشيب » واذا بالغوا قالوا « انه يشيب الطفل » والمتنبي لم يقل كما قالوا وانما تلطف في هذا المعنى فابرزه في صورة عجيبة كما ترى . وكذلك لا يستطيع الشاعر العربى ان يصف الجيش فيقول

صدمتهم بخميس انت غرته وسمهريته في وجهه غمم
فكان اثبت ما فيهم جسومهم يسقطن حولك والارواح تنهزم

و لو لم يكن للمتنبي سوى هذين البيتين لاستحق بهما فضيلة التقدم على الشعراء

لابي الطيب ؟ ولكن هذا شأن قادة الافكار ومعلمى الامم والجمهور في ذلك أعمى يسير أينما وجهه قادته

فامثالنااليوم ممن لا يرون في المتنبي الا أنه شاعر مثل الالوف من الشعراء الذين أخرجتهم لنا العربية لاينبغي أن يتلقنوا مثل هذه العداوات ولاأن يلقنوها الى غيرهم خصوصا وليس ثمت ما يدعوهم الى الانتصار لجماعة على جماعة أو التعصب لفريق دون فريق ولنقل « ربنا أغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل في قلوبنا غلا . . . »

واذ قدمت ان الخلاف عظيم في تقدير شعر ابي الطيب والحكم له أو عليه فقد حق لى العذر اذا شط بى البحث أو خرجت عن دائرة الاعتدال للمتنبي أو عليه فان المؤثرات المحيطة بالرجل تزل فيها الاقدام

ويخيل الىّ ان سبب الخلاف مسألتان : أنصار الشعر القديم وخصوم أبي الطيب بالذات

***

أنصار الشعر القديم

وخلاصة هذا الرأي موضحة أتم ايضاح فى الفقرة الآتية التي اقتطفها من كتاب « الوساطة » بين المتنبي وخصومه للقاضي عبد العزيز الجرجاني قال :

« ان خصم هذا الرجل فريقان أحدهما يعم بالنقص كل محدث ولا يري الشعر الا القديم الجاهلي وما سلك به ذلك المنهج واجري على تلك الطريقة ويزعم انساقة الشعر رؤبة وابن هرمة وابن ميادة والحكم الحضري . فاذا انتهى الى من بعدهم كبشار وابي نواس وطبقتهم سمى شعرهم ملحا وطرفا واستحسن منه البيت بعد البيت استحسان النادرة وأجراه مجرى الفكاهة . فاذا نزلت به الى ابي تمام واضرابه نفض يده واقسم واجتهد ان القوم لم يقرضوا بيتا قط ولم يقعوا من الشعر الا بالبعد » (١)

(١) ص ٤٥ و٤٦ طبعة صيدا سنة ١٣٣١

وجاءفي الجزء الثاني من كتاب (العمدة) لابن رشيق في باب السرقة : « واما ابن وكيع فقد قدّم في صدر كتابه على أبي الطيب مقدمة لا يصح لاحد معها شعر الا الصدر الاول ان سلم ذلك لهم وسماه كتاب (المنصف) مثل ماسمي اللديغ سليما وما أبعد الانصاف منه » (١)

***

لا أحسب أنصار هذا الرأي الا من الغلاة المتطرفين الذين لا يريدون ان يعترفوا بان كل ما في هذا الوجود نسبي اعتباري . فما جمال الشعر الجاهلي الا جمال نسبي باعتبار عصره ولا يصلح في مجرعة الا لتلك الايام ولولا ذلك لبقي الي هـذا الوقت متداولا بين الناس . واني أظن أن المعروف المشهور من شعرالجاهلية قد بقى لسبب آخر غير حسنه وملاءمته لذوق العصور المتأخرة ذلك أنه أصل من اصول اللغة ومرجع من أهم مراجعها يستند عليه في كافة علوم الامة والدين على الاخص . فالشعر الجاهلي يدرس اذن كأنه شيء من الآثار القديمة وطلاب تلك العلوم التي أشرت اليها مضطرون لمعرفته مجبورون على تحصيله لانه طريق لا بد من قطعه وهذا لا يمنع ان يكون في الطريق ما يروق الناظر و يستوقف السائر من أنواع الجمال

ان ذلك الشعر قد نظم في أغراض معيـنة و بين قوم معروفـين قد بلغت بهم الحضارة الي درجة معلومة فكان الشعر الذي يقوله الجاهليون مناسبا لحالتهم وعلي قدر مداركهم وبالفاظ يعرفونها ومعان في متناولهم . فالذي يريد أن يجعل ذلك الشعربكل صفاته ومميزاته والفاظه ومعانيه قالبا للشعر العربي في كل زمان ومكان لا يصب بيت الا عليه فانما يطلب رابع المستحيلات أو سابع الجهات كما يقولون

ما الذي يراه شيوخ ابن خلدون في مثل « الرأي قبل شجاعة الشجعان » مما يخالف الاساليب العربية ؟ آلالفاظ ؟ أم المعاني ؟ أم التراكيب ؟ وكلها هنا عربية بلا نزاع . ثم اذا كان المتنبي قد أخطأ في بعض مواضع وخرج عن اصول اللغة فانه في مواضع

(١) ص ٢١٦ ج ٢ مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ ـ سنة ١٩٠٧ م

لا تعد قد أجاد وأحسن هذا مع اشتهاره بالتضلع في اللغة وحفظ غريبها واجتهاده في مواقف كثيرة في تقليد الشعر القديم

اما المعانى فلا ينبغي أن تقف عند حد بل يجب أن تتجدد كل يوم ـ اذا كان البدوى يرى حصر المكارم في مثل قول الجاهلى « وبات على النار الندى والمحلق » لانه يعبر عن معارفه وغاية مايتصوره . فلماذا ننكر على المتنبي الحضرى تعبيره بما يعرف وبما اعتاد . ما الذي يعيب شعره اذا عدل عن « عراف اليمامة » الي « بقراط » «وجالينوس» اذا كانا اعرف منه بالطب أو ترك « النار والندى » من اجل رسوم الكتابة في قوله :

كتبت فى صحائف المجد « بسم » ثم « قيس » وبعد قيس « السلام »

كانت الآداب في تحرير الرسائل أن يفتتح الكتاب باسم الله ويختم بالسلام وبينهما موضوع الرسالة . فعلى هذا النحو سار الشاعر في معناه الجديد . ولا أظنه أحقر من « بعر الآرآم » ومن تراشق العذارى باللحم والشحم ولعب الاعراب بالتراب وغير ذلك من معاني البداوة والجاهلية التى جاءت في شعر امرئ القيس (١)

---

(١) قال امرؤ القيس سيد شعراء الجاهلية — على رأي جمهور المؤلفين — فى معلقته المشهورة

ترى بعر الآرآم في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

ثم يذكر يوما من أيام لهوه ومجونه

ويوم عقرت للعذارى مطيتى فياعجبا من كورها المتحمل
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل

هذه حادثة معتادة فى الصحراء ولا أظنها الا مستنكرة في بغداد مثلا دار الحضارة الاسلامية ايام الدولة العباسية وان لهو العذارى وهن يترامين بلحوم الابل وشحومها طول النهار لما يذكرنا بمداعبة الجزارين فيما بينهم ولا ازيد على ذلك وصفا ولا حرفا .

وطرفة (١) وغيرهما

وخير ما يستشهد به في هذا المقام ما يروى من أن عليا بن الجهم حين قدم من البدو ودخل على الخليفة مدحه بقول استنكره أهل عصره وأوهم الخليفة الممدوح الذى امر بتحضير ذلك الشاعر . و بعد أن تحضر قال قصيدته المشهورة

عيون المها بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدري

والحكاية فى نفسها — وان لم تصح — فانها تدل على الفارق الطبيعي بين الشعر البدوي والشعر الحضرى — فالشعر الجاهلي في جملته كالثوب المفصل على صاحبه لا يحسن في غالب الاحيان الا عليه ولا يصلح لغيره من الناس الا فيما ندر من الاحوال فلو ان الامة العربية بقيت على حالتها كما كانت فى العصر الجاهلى لما انكر احد ان يبقي الشعر الجاهلى كما كان ولكن وقد تغيرت كافة الظروف والاحوال التى كونت ذلك العصر فقد وجب ان يتغير الشعر بتغيرها ويتبعها في تحولها من دور الي دور



يجب ان اشير الى موضوع جليل يتعلق بالبحث الذى نحن بصدده — يتحتم على طالب الادب ان يدرس الشعر القديم والنثر القديم ولا يكتفي بما جاء به المتأخرون

(١) قال طرفة بن العبد الذى ارى انه زعيم اصحاب المعلقات وحامل لواء الشعر في الجاهلية ولولا ان الاجل قد سارع اليه في مقتبل العمر فاختطفه فى العشرين لترك لنا خير ميراث يخلفه الشعراء — قال يصف السفينة فى معلقته

عدولية او من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طورا ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها   كما قسم الترب المفايل باليد

فالفيال ضرب من اللعب وهو ان يجمع التراب فيدفن فيه شىء ثم يقسم التراب نصفين ويسأل عن الدفين فى ايهما هو فمن اصاب قمر ومن اخطأ قمر .
فالتشبيه هنا محكم والوصف صادق والتمثيل بهذا النوع من اللعب المعروف عند كافة اهل الوبر من الاجادة بمكان ولكنه لا يحسن عند المتحضرين الذين يريدون التمثيل بما يعرفون وما يحبون

من منظوم ومنثور والسبب في ذلك ان اللغة لا ينبغي ان تتغير من آن لآن بل يجب ان تحافظ على كيانها وتبقى على ممر الزمان . فلو كان اهل الصدر الاول من الاسلام قد خرجوا باللغة عن طريق الجاهلية وجاءت الدولة الاموية فخرجت عن طريق الصدر الاول ثم تجاوزت الدولة العباسية ما رسمته الدولة الاموية وهكذا كلما جاء عصر غير ما قبله لما استطعنا اليوم أن نفهم ما قاله الجاهليون ولا المتقدمون من المسلمين ولكان الفرق بين كلامهم وكلامنا كالفرق بين لغة اهل الصين ولسان اللاتين . ولكن اذا كان للغة أصل معترف به يعد اساسا لها وجب الرجوع اليه حتى اذا توالت العصور وكل عصر يتشبع بهذا الاصل فلا يبلغ التغيير في اللغة الى جوهرها ولا ينال الا من قشورها فتبقى جديدة على الدوام يفهمها المتأخر كما فهمها المتقدم

هذا مبدأهم قد سار عليه اهل المغرب في تلقين لغاتهم للمبتدئين ـ فالفرنسيون مثلا يصرفون جهدهم اولا فى دراسة « الكلاسيك » اي الشعر والنثر المتفق على انه اللغة الاصلية ـ وما دام كل الناس قد درسوا الاصل وهو مرجعهم على الدوام فصميم اللغة لا يتأثر مهما تعددت مذاهب المجددين والمبتدعين

اذا كان هذا رأى انصار القديم من ادباء العربية فانعم به واكرم ! فانهم يكونون بذلك قد سبقوا امم الغرب الى طريقة حفظ اللغة واستبقائها نضرة فتية رغم تقادم الزمان

***

خصوم ابي الطيب بالذات

هناك فريق يعجب بشعر المتأخرين ولكنه لا يقر لابي الطيب بفضل ـ هذا الفريق هو الذى عناه الجرجاني بقوله « يسابقك الى مدح ابي تمام والبحترى ويسوّغ لك تقريظ ابن المعتز وابن الرومي حتى اذا ذكرت ابا الطيب ببعض فضائله واسميته في عداد من يقصر عن رتبته امتعض امتعاض الموتور ونفر نفار المضيم فغض طرفه وثني عطفه وصعّر خده واخذته العزة بالاثم » (١)

(١) الوساطة ص ٤٩

ويغلب على ظني ان هذا الفريق انما يعبر عن رأى خصوم ابى الطيب من امثال الصاحب ابن عباد والشعراء البغداديين الذين سبقت الاشارة اليهم في ترجمة حياة المتنبى

***

وقفة بين خصوم ابى الطيب وأنصاره

تقرأ الرسالة الحاتمية ، فتصل الي ساعة ملاقاة الكاتب بالشاعر فيقول الاول في نفسه بعد أن رأى من اعراض الثانى : « وفي الممشي اليك عليّ عار » ثم ينفجر ما في نفسه من الغضب فيقول له بعد تأنيب شديد : « لو قدرت نفسك بقدرها . لما عدوت ان تكون شاعرا متكسبا » ولا يستمع الآخر وهو يعتذر اليه قائلا . خفض عليك . اكفف من غربك . اردد من سورتك . استأن فان الاناة من شيم امثالك » اذا وصلت الي هذه النقطة من القصة الا تحدثك نفسك بانك امام خصمين ؟ — ولكن اذا انتهيت الى آخرها وقرأت قول الحاتمى : « وشاهدت من فضيلته وصفاء ذهنه وجودة قدحه ماحداني الى عمل الحاتمية [١] وتأكدت بيني وبينه الصحبة وصرت اتردد اليه احيانا » الا تحسب انك بين صديقين» ؟

واليك حادثة أخرى في هذا المعني :

« كان (ابو على الفارسى) [٢] بشيراز وكان ممر المتنبي الى دار عضد الدولة على دار ابى على الفارسى فكان اذا مر به ابو الطيب يستثقله على قبح زيه وما يأخذ به نفسه من الكبرياء . وكان لابن جنى هوى فى ابى الطيب كثير الاعجاب بشعره لايبالى بأحد يذمه أو يحط منه وكان يسوءه اطناب ابى على فى ذمه . واتفق أن قال ابو على يوما : « اذكروا لنا بيتا من الشعر نبحث فيه » فبدأ (ابن جني) وانشد :

حلت دون المزار فاليوم لو زرت لحال النحول دون العناق

فاستحسنه ابو علي واستعاده وقال لمن هذا البيت فانه غريب المعني ؟ فقال ابن

---

(١) لعله يقصد الرسالة التى قارن فيها بين معانى ابى الطيب الّتي تتوافق مع افكار ارستطاليس دون ان ينسبه الى السرقه . وسنعرض لها فى موضعها — (توفى الحاتمي سنة ٣٨٨) (٢) من كبار النحاة واللغويين ولد سنة ٢٨٨ وتوفى سنة ٣٧٧

جنى للذى يقول :

ازورهم وسواد الليـل يشفع لى　　　وانثني وبياض الصبح يغرى بى

فقال والله وهذا أحسن ، بديع جدا . فلمن هذا ؟ قال للذى يقول :

امضى ارادته فسوف له قد　　　واستقرب الأقصى فثم له هنا

فكثر اعجاب ابي على واستغرب معناه وقال لمن هذا؟فقال ابن جنى الذي يقول:

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى　　　مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

فقال وهــذا أحسن ، والله لقد أطلت يا أبا الفتح فاخـبرنا من القائل . قال هو الذى لا يزال الشيخ يستثقله ويستقبح فعـله وزيه . وما علينا من القشور اذا استقام اللب ؟ قال ابو على اظنك تعني المتنبي . قال نعم . قال والله لقد حببته اليّ . ونهض ودخـل الى عضـد الدولة فأطال في الثناء على ابي الطيب . ولما اجتاز به استنزله واستنشده وكتب عنه ابياتا . (قال الربعى)(١) كنت يوما عند المتنبي بشيراز فقيل له ابو علي الفارسي بالباب ، وكانت تأكدت بينهما المودة قال بادروا اليه فانزلوه . فدخل ابو علي وانا جالس عنده فقال يا ابا الحسن خذ هـذا الجزء واعطاني جزءاً من كتاب (التذكرة) وقال اكتب عن الشيخ البيتين اللذين ذكرتك بهما وهما :

سأطلب حـقي بالقنا ومشايخ　　　كأنهمو من طول ما التثموا مرد

ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعوا　　　كثير اذا شدوا قليل اذا عـدوا (٢)

فمثل ابي علي الفارسي قد يعد في اول أمره من خصوم ابى الطيب ولـكنه قد صار فيا بعد في عداد الأنصار . وأمثاله كثير في كافة العصور يتشيعون للرجل لمجرد مظهره أو يعادونه لكلمة تنقل عنه دون أن يكلفوا انفسهم مؤنة الاستفسار عن الحقائق ويكون ذلك بين المعاصرين على الاكثر لأن التحاسد فيما بينهم يضلهم فى كثير من احكامهم

---

(١) قرأ على أبى على الفارسى عشرين سنة وشهد له أبو على في النحو بقوله لو سرت من الشرق الي الغرب لم تجد أنحى منك : ولد سنة ٣٢٨ وتوفي سنة ٤٢٠

(٢) العرف الطيب لليازجي ص ٦٦١ والصبح المنبى ص ٢٠٩ ـ ٢١٣ ج ١

فتعيين مركز الخصوم والأنصار مهمة شاقة — وأنا نكتفي باثبات بعض الشهادات التي من شأنها ان تغض من قدر المتنبي ، تحت عنوان خصومه ، والشهادات التي تدافع عنه في باب أنصاره وان لم يكن هؤلاء ولا هؤلاء خصوماً ولا أنصاراً لشاعرنا بالمعنى المعروف

***

خصوم أبي الطيب

من معاصريه (أبو فراس الحمداني)[١] شاعر مجيد من بيت الامارة و(ابن سكّرة الهاشمي) [٢] خليع ماجن من أبناء الخلفاء العباسيين — وهو صاحب « كافات الشتاء » — و(ابن حجّاج البغدادي) [٣] « يمد يد المجون فيعرك بها أذن الحزم ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل » كما يقول صاحب اليتيمة و(ابن لنكك البصري)[٤] هجّاء طعّان و (الصاحب ابن عبّاد) أحد حماة الأدب المعدودين

---

(١) يتهم المتنبي بسرقة معاني غيره وتقدم ذلك في الباب الاول

(٢) توفي سنة ٣٨٥ (٣) أو ابن الحجاج ذكره « ابن رشيق » في « العمدة » في باب « من رغب من الشعراء عن ملاحاة غير الاكفاء » اذ سكت المتنبي عن الردعليه قال ابن رشيق : « . . . وكذلك فعل المتنبي حين بلي بحهقات ابن حجاج البغدادي . سكت عنه اطراحا واحتقارا ، ولو أجابه لما كان هو بحيث هو من الانفة والكبر لانه ليس من أنداده ولا من طبقته » . ولهمع ابن سكرة أهاجي مشهورة وشعره مملوء بالفكاهات المجونية والسخف والرفث وكان يقال ببغداد ان زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخي جداً — وهما من صنائع الوزير المهلبي. للحط من كرامة المتنبي (راجع يتيمة الدهر ٨٥ ج ١)

(٤) تقدمت أهاجيه في الباب الاول . روى عنه (الجرجاني) كثرة تحامله على المتنبي حتى قال عن شطرة من شعره انها تسقط دواوين عدة شعراء — ويظهر من تعبير صاحب اليتيمة ان هـذا الخصم هو الذي زعم ان أبا الطيب كان ابن سقاء بالكوفة

وصاحب « الكشف عن مساوى شعر المتنبي »

ومن جاء بعد هؤلاء (محمد بن وكيع)(١) شاعر بارع وصاحب « المنصف » في سرقات أبي الطيب و (السيد المرتضى) (٢) نقيب الطالبيين والامام المشهور في علم الكلام والأدب والشعر و (أبو سعيد العميدي) أحد من تولوا ديوان الانشاء

---

(١) توفي سنة ٣٩٣ . — قال علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القادح كان محمد بن وكيع متأدباً ظريفاً يقول الشعر وقد عمل كتاباً في سرقات المتنبي وحاف عليه كثيراً . وسألني يوماً أن أخرج معه واستصحب مغنياً وأمره أن لا يغني الا بشعره فغنى

لو كان كل عليل يزداد مثلك حسنا
لكان كل صحيح يود لو كان مضنى
يا أكمل الناس حسنا صل أكمل الناس حزنا
غنيت عني ومالي وجه به عنك أغنى

فقلت له تثقل عليك المؤآخذة : قال لا . فقلت أبياتك مسروقة الاول من قول بعضهم

فلو كان المريض يزاد حسنا كما تزداد أنت على السقام
لما عيد المريض اذن وعدت شكايته من النعم الجسام

والثاني من قول رؤبة

سلم : ما أنساك ما حييت لو أشرب السلوان ما سليت
مالي غني عنك ولو غنيت

فقال والله ما سمعت بهذا . فقلت اذا كان الامر على هذا فاعذر المتنبي على مثله . . . والمعاني يستدعي بعضها بعضاً (الصبح المنبي ص ٤١٦ — ٤١٨ ج ١)

(٢) توفي سنة ٤٣٦ . يقول « الاستاذ الاسكندري » في كتابه عن الآداب في العصر العباسي عند الكلام على أبي العلاء المعري : « ودخل بغداد . . . وأقبل عليه السيد المرتضى اقبالا عظيما ثم جفاه وأبعده من مجلسه . قيل لانه جرى ذكر المتنبي بحضرته فغض منه فقال أبو العلاء لو لم يكن له الا قوله

لك يا منازل في القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

لكفاه — فأمر بطرده : ثم قال . أفطنتم لما يريد هذا الأعمى ؟ قالوا كلا .

بالديار المصرية (١) وصاحب « الابانة عن سرقات المتنبي » والمؤرخ الاجتماعي (ابن خلدون) (٢) ومشايخه وكثير ممن ضاعت تصانيفهم .

ومن أهل هذا العصر شيخ اللغويين (الأستاذ المرصفي) (٣) وتلاميذه ، وطائفة من الأدباء والشعراء يتذاكرون مثل هذه الآراء فيما بينهم ولكنهم لايعلنونها للجمهور

قال يريد قوله في هذه القصيدة

واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

فتعجب الناس من كلتيهما

(١) يقول في كتابه « ولقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الابيات التي يفتخر بها اصحابه وتعتبر فيها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة . ومعانيها من معانيهم مسلوخة . . . وأنا أورد ماعندي من أبيات أخذ الفاظها ومعانيها . وادعى الاعجاز لنفسه فيها . ليشهد بلؤم طبعه في انكار فضيلة السابقين . ويوسم بما نهبه من اشعارهم بسمة السارقين » (توفي سنة ٤٤٣) .

(٢) ينكرون شعره جملة لأنه خارج عن الاساليب العربية نازل عن طبقة الشعر — ولكن ابن خلدون (المتوفي سنة ٨٠٨) لم يسم هؤلاء الشيوخ

(٣) يقول الاستاذ طه حسين أحد تلاميذه (في مقدمة ذكري أبي العلاء) :

« مسلم بن الوليد وحبيب بن أوس وأبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعرى قوم تكلفوا البديع وأخضعوا المعنى للفظ وتعمقوا في درس مذاهب الفلاسفة ولم يخل كلامهم من يونانية تباعد بينهم وبين مذاهب العرب البادين فدرسهم خطل والعناية بهم حمق والاعراض عنهم الي الشعراء المطبوعين اصابة وتوفيق

« كنا نسمع ذلك من استاذنا الجليل في كل يوم سماعا موصولا غير مقطوع فلم نكتف بالطاعة والاذعان بل غلونا في مقت هؤلاء الشعراء حتى رأينا بغضهم علينا حقا والنعي عليهم لأدبنا مكملا وحتي كنا نسمع البيت من الشعر لايعجبنا فاذا اردنا المبالغة في ذمه وتقبيحه قلنا : ما أشبهه بشعر المتنبي وما أظهر أسلوب أبي العلاء فيه — وأنا لنجهل المتنبي وأبا العلاء الجهل كله — »

أنصار أبي الطيب

قال (أبو العباس أحمد بن محمد النامي)(١) ـ أحد شعراء سيف الدولة ـ كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي . وكنت أشتهي ان أكون قد سبقته الى معنيين قالها ما سبق اليهما أحدهما قوله :

رماني الدهـر بالارزاء حتى   فؤادي في غشـاء من نبال
فصرت اذا أصـابتني سهام   تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله :

في جحفل ستر العيونَ غباره   فكأنما يبصرن بالآذان

وهذا القول على قلته كثير لأنه صادر عن شاعر معاصر يتنافس مع أبي الطيب ويزاحمه على مكانته وكانت له معه وقائع ومعارضات في الاناشيد

ومن معـاصريه (أبو الفتح عثمان بن جنيّ) (٢) شارح ديوانه و (القاضي

(١) ابن خلكان ص ٥١ ج ١ (توفي سـنة ٣٧٠ وقيل ٣٧١ وقيل ٣٩٩)

(٢) (ولد سنة ٣٣٠ ومات سنة ٣٧٢) وهو صاحب « كتاب الخصائص » — وكان المتنبي اذا اغلق معنى من معاني شعره على أحد سامعيه يقول اسألوا الشارح : يعني أبا الفتح . وقد عرض (الواحدي) بشرح ابن جني — ويسمى « الصبر » — فقال « وأما ابن جني فانه من الكبار في صنعة الاعراب والتصريف والمحسن في كل واحد منهما بالتصنيف غير انه اذا تكلم في المعاني تبلد حماره ولج به عثاره . . . ثم اذا انتهى به الكلام الى بيان المعاني عاد طويل كلامه قصيرا وأتى بالمحال هزؤا وتقصيرا » . ـ وعرض به مرة اخرى عند ما اشار الى مؤلفى ابي علي بن فورجة البروجردى اذ قال : واما ابن فورجة فانه كتب مجلدين لطيفين على شرح معاني هـذا الديوان (ديوان المتنبي) سمى احـدهما « التجني على ابن جني » والآخر « الفتح على ابي الفتح » (من مقدمة شرح الواحدى)

ويعجبني قول (ياقوت) في (معجم الادباء) عن الواحدى بعد ان ذكر مؤلفاته ومكانته من العلم « وكان حقيقاً بكل احترام واعظام لولا ما كان فيـه من غمزه وازرائه على الأئمة المتقدمين وبسط اللسان فيهم بغير ما يليق بمناصبهم

الجرجاني) صاحب «الوساطة» بين المتنبي وخصومه (١) وقد حكم في قضية

عفا الله عنا وعنه »

ولعل تعريض الواحدي بابن جني كان من قبيل غمزه الذي اشار اليه ياقوت

(١) توفي سنة ٣٦٦ وقيل سنة ٣٩٢ — كاتب شاعر وفقيه عالم افضى محله الي قضاء القضاة فلم يعزله عنه الا الموت — ومن حكمه

يقولون لي فيك انقباض وانما رأوا رجلا عن موقف الذل احجما

وقالوا توصل بالخضوع الي الغني وما علموا ان الخضوع هو الفقر

الف كتاب « الوساطة » حينما الف الصاحب ابن عباد كتاب « المساوى » وقد تقدمت بعض فقرات من كتابه الجليل الشأن واليك خلاصته :

« خبرني عمن تعظمه من اوائل الشعراء ومن تفتتح به طبقات المحدثين هل خلص لك شعر احدهم من شائبة وصفاً من كدر ومعابة ؟ فان ادعيت ذلك وجدت العيان حجيجك والمشاهدة خصمك واستعرضنا الدواوين فأريناك فيها مايحول بينك وبين دعواك . . . فان قلت كثر زلله وقل احسانه واتسعت معايبه وضاقت محاسنه قلنا هـذا ديوانه حاضراً وشعره موجوداً ممكناً هلم نستبرئه ونتصفحه ونقلبه ونمتحنه ثم لك بكل شيئة عشر حسنات وبكل نقيصة عشر فضائل فاذا أكملنا لك ذلك واستوفيته وقادك الاضطرار الى القبول أو البهت ووقفت بين التسليم والعناد عدنا بك الى بقية شعره فحاججناك به والي ما فضل بعد المقاصة فذا كمناك اليه . . . وانت لاتجد لابي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ومعان تستفاد والفاظ تروق وتعذب وابداع يدل على الفطنة والذكاء وتصرف لا يصدر الا عن غزارة واقتدار . ولو تأملت شعر أبي نواس حق التأمل ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه وعددت منفيه ومختاره لعظمت من قدر صاحبنا ما صغرت ولأكبرت من شأنه ما استحقرت . . . وانما خصصت أبا نواس وأبا تمام لأجمع لك بين سيدي المطبوعين وامامي أهل الصنعة وأريك أن فضلهما لم يحمهما من زلل واحسانهما لم يصف من كدر فاذا انصفت فلك فيهما عبرة ومقنع وان لججت فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون — . . . ولكن الذي اطالبك به والزمك اياه ان لا تستعجل بالسيئة قبل الحسنة ولا تقدم السخط

على الرحمة وان فعلت فلا تهمل الانصاف جملة وتخرج عن العدل صفرا . . .
وليس من شرائط النصفة ان تنعى على أبي الطيب بيتاً شذ وكلمة ندرت
وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ولفظة قصرت عنها عنايته وتنسى محاسنه وقد ملأت
الاسماع ولا من العدل ان تؤآخذه بالهفوة المنفردة ولا تقدمه بالفضائل المجتمعة
. . واعلم اني رسول مبلغ وسامع مؤد واني كما اناظرك اناظر عنك وكما اخاصمك
اخاصم لك فان رأيتني جاوزت لك موضع حجة فردني اليها ونبهني عليها فما أبرى
نفسي من الغفلة ولا ادعي السلامة من الخطأ . . . وكما لا احكم على خصمك
بالخطأ في كل ما يذكره فكذلك لا أبعدك من الصواب في أكثر ما تصفه —
ولن تجد شاعراً اشمل للاحسان والاصابة والتنقيح والاجادة في شعره اجمع بل قلما
تجد ذلك في القصيدة الواحدة والخطبة الفردة . ولابد لكل صانع من فترة
والخاطر لا تستمر به الاوقات على حال ولا يدوم في الاحوال على نهج . . . وليس
بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة ولا مرادنا ان نبرئه من مقارفة زلة وانما
غايتنا فيما قصدناه ان نلحقه بأهل طبقته ولا نقصر به عن رتبته وان نجعله رجلا
من فحول الشعراء ونمنعك من احباط حسناته بسيئاته ولا نسوغ لك التحامل على
تقدمه في الاكثر بتقصيره في الاقل والغض من عام نبريزه لخاص تقصيره . .
ولقد حدثني بعض اهل الادب انه حضر عند ابي الحسن بن لنكك البصري
وكان على فضله في العلم وتقدمه في الادب شديد التحامل على أبي الطيب —
وهو يذكر شيئاً من شعره حتى انتهى الى قوله : « بقائي شاء ليس هم ارتحالا
جعل يعجب من هذا المصراع من حضره ويقول هل رأيتم اشد تعقيدا واظهر
تكلفاً واسوأ ترتيباً من هذا الكلام ؟ قال فقلت له هب الامر على ما ادعيت
وانا سلمنا لك مازعمته اين انت من قوله في اثر هذا البيت :—

كأن العيس كانت فوق جفني مناخات فلما ثرن سالا

قال فاستشاط غيظا ثم قال هذا المصراع يسقط دواوين عدة شعراء — فما
كان هذا الحكم سائغاً وكان ماقاله مقبولا فان احدابيات الفرزدق يسقط شعر

ومثل العرب بين أبناء الاعاجم [١] والوزير الجليل (ابن العميد) [٢]

ومن جاء بعدهم (ابن رشيق القيرواني) [٣] صاحب الكلمة المأثورة التي حلينا بها صدر هذا الكتاب : « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل النـاس » و (أبو منصور الثعالبي) صاحب « يتيمة الدهر » [٤] و (أبو العلاء المعرى) [٥] اختار من حسنات شعر المتنبي مجموعة سماها « معجز أحمد » وشرح ديوانه وسماه « اللامع العزيزى »

بني تميم جملة . . . فان قالوا لسنا نسامح المتقدمين بالخطأ ولا نحتمـل لهم هـذا الاغراق الفاحش قلنا أولستم قد سامتم لهم بالاحسان في غير ذلك ولم تسقطوهم من عداد الشعراء لاجله؟ فاجروا هذا الرجل مجراهم والحقوه في الحكم بهم »

(١) ولد والمتنبي في سنة واحدة (٣٠٣) فلعل ابا الطيب هو الذي ادعى ذلك حباً في اميره وتقرباً اليـه — ومات سنة ٣٥٦ في السنة الثانية بعد وفاة المتنبي — وللامير ملاحظات وشهادات حسنة في حق شاعره تعثر عليهما في شرح الديوان.

(٢) توفي سنة ٣٦٠

(٣) كتاب العمدة ص ٦٤ ج ١ (توفي ابن رشيق سنة ٤٦٣)

(٤) ص ٧٨ و ٧٩ ج ١ : « . . . . خرج نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر ... فليس اليوم مجالس الدرس اعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس ولا اقلام كتاب الرسائل اجرى به من السن الخطباء في المحافل ولا لحون المغنيين والقوالين اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين وقد الفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه وتكلم الافاضـل في الوساطة بينه وبين خصومه والافصاح عن ابكار كلامه وعيونه وتفرقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه والنضح عنه والتعصب له وعليه وذلك ادل دليل على وفور فضله وتقدم قدمه وتفرده عن اهل زمانه بملك رقاب القوافي ورق المعاني فالكامل من عدت سقطاته والسعيد من حسبت هفواته . . . »
(الثعالبي ولد سنة ٣٥٠ ومات سنة ٤٢٩ هـ)

(٥) توفي سنة ٤٤٩ هـ . يقول ابن خلكان : « ولما فرغ من تصنيف كتاب

و (الامام الواحـدى) (١) المصـنف المفسر النحوى كما يقول ياقوت فى معجمه

اللامع العزيزي في شرح شعر المتنبي وقريء عليه وأخذ الجماعة في وصفه فقال ابو العلاء كأنما نظر المتنبي الي بلحظ الغيب حيث قال :

انا الذى نظر (الاعمى) الى ادبى واسمعت كلماتى من به صمم "

(١) توفي سنة ٤٦٨ ويقول عنه ابن خلكان « وشرح ديوان ابى الطيب المتنبي وليس في شروحه مع كثرتها مثله " — جاء في مقدمة الشرح :

« إن الناس منذ عصر قديم قد ولوا جميع الاشعار صفحة الاعراض مقتصرين منها على شعر أبي الطيب المتنبي نائين عما روي لسواه وان فاته وجاز في الاحسان مداه وليس ذلك الا لبخت اتفق له فعلا فبلغ المدي وقد قال هو

هو الجد حتى تفضل العين اختها وحتى يكون اليوم للامس سيدا

على انه كان صاحب معان مخترعة بديعة ولطائف ابكار منها مالم يسبق اليها دقيقة . . . ولهذا خفيت معانيه على اكثر من روى شعره من اكابر الفضلاء والائمة العلماء حتى الفحول منهم والنجباء كالقاضى ابى الحسن على ابن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب الوساطة وأبى الفتح عثمان بن جني النحوي وأبى العلاء المعرى وأبى على ابن فورجة البروجردي رحمهم الله تعالى وهؤلاء كانوا من فحول العلماء وتكلموا في معانى شعره مما اخترعه وانفرد بالاغراب فيه وأبدعه وأصابوا في كثير من ذلك وخفى عليهم بعضه ولم يبن لهم غرضه المقصود لبعد مرماه وامتداد مداه »

وقد علق (اليازجي) على هذا الرأى بقوله : « والمعانى الشعرية ليست من قبيل الاسرار الصوفية أو القضايا التعليمية التى تقتضى دقة نظر وجهد ذهن في فهمها وانما هي معان طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز . والاختراع من حيث هو لا يقتضى الخفاء والا لخفى أكثر شعر المتقدمين ممن سبقوا الي ابتكار المعانى مع انك لا تكاد ترى في كلامهم ما غاص في الابهام وحسرت من دونه الافهام الي الحد الذى تراه فى بعض شعر المتنبي ولكن ماذكر للمتنبي من خفاء

و (الخطيب التبريزى) (١) الامام اللغوى صاحب الشروح الممدودة لخلاصة الشعر العربي و (ياقوت الحموى)(٢) صاحب المعاجم الختامة و (مجدالدين العكبرى الضرير)(٣) صاحب « التبيان في شرح الديوان » — وهو مجموعة شروح لشعر

المعانى وغموضهـا وارد على الغالب من قبيل الابهام في اللفظ والتعمية في صور التراكيب والباس المعنى غير ثوبه الذى تظهر به تقاطيعه وانزاله غير منزله الذى يقرع عليه بابه » (العرف الطيب ص ٦٥٤)

(١) ولد سنة ٤٢١ ومات سنة ٥٠٢ — له شرح ديوان المتنبي وروينا منه بعض حوادث في الباب الاول

(٢) ولد سنة ٥٧٤ ومات سنة ٦٢٦ — له كتاب « اخبار المتنبي » (رواه ابن خلكان ص ٣١٣ ج ٢)

(٣) توفي سنة ٦١٦ — يقول عنه ابن خلكان : « ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله في فنونه » — اما الشارح نفسـه فيقول في مقدمة شرحه (اما بعد) فاني لما اتقنت الديوان الذى انتشر ذكره في سائر البلدان . وقرأته قرآءة فهم وضبط على الشيخ الامام ابى الحرم مكي ابن ريان الماكسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائه . وقرأته بالديار المصرية على الشيخ ابى محمد عبد المنعم ابن صباح النيمي النحوي . ورأيت الناس قد اكثروا من شرح الديوان واهتموا بمعانيه فاعربوا فيه بكل فن واغربوا . فمنهم من قصـد المعانى دون الغريب ، ومنهم من قصد الاعراب باللفظ القريب . ومنهم من أطال فيه واسهب غاية التسهيب . ومنهم من قصـد التعصب عليه . ونسبه الي غـير ما كان قد قصد اليـه . وما فيهم من اتى فيه بشيء شاف . ولا بعوض هو للطالب كاف : فاستخرت الله تعالى وجمعت كتابي هذا من اقاويل شراحه الأعلام معتمدا على قول امام القول المقدم فيـه . الموضح معانيـه . المقدم في علم البيـان . ابى الفتح عثمان (يقصد ابن جنى) ، وقول امام الادباء وقدوة الشعراء احمد بن سليمان أبى العلاء (المعرى) . وقول الفاضـل اللبيب امام كل اديب ابى زكريا يحيي بن على الخطيب (التبريزي) ، وقول الامام الارشد . ذى الداي المسدد ابى الحسن

المتنبي – و (ابن الاثيرالجزرى)[١] صاحب « المثل السائر » و (ابن خلكان)[٢] مؤرخ الاعيان و (البديعى الدمشقى)[٣] صاحب « الصبح المنبى » الذى أطلنا الاستشهاد به والرجوع الى مروياته

ومن أهل هذا الزمان شيخ الشعراء المرحوم (البارودى) [٤] والسيد توفيق (البكرى) [٥] و (اليازجيان ناصيف وابراهيم) [٦] وحامل لواء الشعر في هذا العصر صاحب « الشوقيات » [٧]

على بن احمد(الواحدى) : وقول جماعة كأبي على بن فورجة وابى الفضل العروضى وابى بكر الخوارزمى وابى الحسن بن وكيع وابن الافليلى وسميته بالتبيان فى شرح الديوان وجعلت غرائب اعرابه اولا . وغرائب لغاته ثانيا . ومعانيه ثالثا . . . . . "

(١) من سنة ٥٥٨ الى ٦٣٧ تقدم رأيه في الشعر القديم والشعر الحديث

(٢) من سنة ٦٠٨ — ٦٨١ يقول عن المتنبى " اما شعره فهو في النهاية ولا حاجة الى ذكر شيء منه لشهرته "

(٣) اسمه يوسف توفي ببلاد الروم سنة ١٠٧٣

(٤) اثبت له حوالى ثلثمائة والفى بيت في " مختاراته "

(٥) جعل المتنبى ضمن " فحول البلاغة " وله بحث عن المتنبى تقدمت الاشارة اليه – وهو كثير الاستشهاد بشعره وكذلك الاديبان اللذان شرحا كتابه " صهاريج اللؤلؤ "

(٦) شرع الاب في شرح ديوان المتنبي واتمه الابن وختمه ببحث جليل وابي عليه البر والوفاء الا ان ينسب الكتاب لأبيه وسماه " العرف الطيب "

(٧) يقول شوقى بك في مقدمة ديوانه : " ولا اري بدأ من استثناء المتنبي مع علمى انه المداح الهجاء . لأن معجزه لايزال يرفع الشعر ويعليه ويغري الناس به فيجدده ويحييه . وحسبك ان المشتغلين بالقريض عموما والمطبوعين منهم خصوصا لا يتطلعون الا الى غباره . ولا يجدون الهدى الا على مناره . . . هذا مع اعترافي بأن المتنبي صاحب اللواء ، والسماء التى ماطاولتها

أقوال بعض المستشرقين

قامت في أوروبا وأمريكا نهضة علمية لدرس الشرق ولغاته وآدابه وشعوبه وكل ما يتعلق به من فلسفة وأديان وأنظمة ومناخات وغير ذلك. وابتدأت هذه النهضة في مفتتح القرن التاسع عشر فما أتى القرن العشرون الا والمستشرقون قد ملأوا العالم بجمعياتهم العلمية ونشراتهم الدورية ومدارسهم ومطابعهم يكشفون عن الشرق ، عن ماضيه وعن حاضره : هذا يبحث عن العاديات المصرية ولغة الفراعنة وذاك عن أهل آشور وما كان من أمرهم وذاك عن بلاد العربية وآثارها ناهيك بمن انصرفوا الى درس آثار الهند والصين وفارس ومن تخصصوا في أدق لمسائل الشرقية . وقد عرفنا من غامض تاريخ الشرق ما يشهد لهؤلاء الباحثين بدقة النظر وطول الاناة في الدرس مع المثابرة واحتمال المصاعب والتعرض للهلاك في كثير من الاحوال

ولا أريد في هذه الرسالة ان أشير الى المستشرقين عامة من مستمصريين ومستأشرين ومستعربين ومستهندين ومستفرسين ـ ان صحت هذه التسميات ـ وانما أقصد الاشارة الى المستعربين الذين تكلموا عن أبي الطيب

لقد لقيت اللغة العربية من أعاجم الشرق في القرون الأولى للاسلام من خدموها خدمة صادقة بما ألفوا من الكتب في سائر العلوم والفنون كالقيت من أعاجم الغرب في العصر الأخير من ينشرون لباب آدابها وثمرة أفكار أبنائها ـ فبعد الاصفهاني والفسوي والبخاري والنيسابوري والجرجاني والتبريزي والشهرستاني وغيرهم جاء دور الفرنسي والانجليزي والالماني والطلياني والهولاندي والاسباني وأقوام وأقوام

ذكر (الأب لويس شيخو اليسوعي) في كتابه « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » بياناً مفيداً عن المستشرقين وما ألفوا ونشروا عن اللغة العربية وآثارها ـ تجد هذا البيان منتشراً في جزئي الكتاب بحسب تواريخ المترجمين ـ أما ما جاء عن

في البيان سماء ، ولو سلم من الغرور وسلم الناس من لسانه لاجللته اجلال الانبياء »

المتنبي على الخصوص فقد قال :

« ومن تلاميذ دي ساسي[١] المسيو دوبن جرنجره دى لاغرانج ... [٢] وله منتخبات من شعر المتنبي .... » (فرانسي) — البارون جوزف دى هامر بورغستال[٣] ... تاريخ لآداب العربية فى سبع مجلدات ضخمة من عهد الجاهلية الى آخر الدولة العباسية ضمنه عشرة آلاف ترجمة من كتبة العرب وشعرائهم وكبار علمائهم (والمتنبي بالطبع من ضمنهم) ونظم بالشعر الالمانى كل ديوان المتنبي » (نمساوى) — « ثاودور يونبول ....[٤] ومن آثاره انه نشر قصائد المتنبي وشعراء زمانه فى مدح سيف الدولة واضاف اليه ترجمة لاتينية » (هولاندى)

ويقول جرجى زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية : « وانتقد المتنبي جماعة من المستشرقين أيضاً أشهرهم رايسكي[٥] ودى ساسى وبولين[٦] وبروكلمن[٧] وهمر ونيكلسن وغيرهم » ثم قال بعد ذلك : « وكتب عنه أكثر المستشرقين مقالات انتقادية ولا سيما ديتريشي وهامر ويونبول وقد عني هذا بترجمة بعض أشعاره الى اللاتينية وطبعت سنة ١٨٤٠ » وقبل هذه العبارة قال : وقد عني المسيو غرانجرية بنقل بعض أشعار المتنبي الى الفرنسية وطبعت فى المجلة الاسيوية سنة ١٨٢٤ (وله أيضاً مقالة فى المجلة المذكورة سنة ١٨٣٢ — تقدمت الاشارة اليهما في هذا الكتاب)

وقد طبع المسيو فريدرخ ديتريصي[٨] سنة ١٨٦٨ شرح الواحدى على ديوان أبي الطيب وقدم له مقدمة باللغة اللاتينية لم أوفق الى من ينقلها الي العربية

وتكلم هووار الفرنسي[٩] عن المتنبي فى صحيفتين من القطع الصغير ليس فيهما

(١) Silvestre de Sacy (١٧٥٨—١٨٣٨)

(٢) G. de la Grange (١٧٩٠—١٨٥٩)

(٣) Hammer Purgstall (١٧٧٤—١٨٥٦)

(٤) T. Juynboll (١٨٠٢—١٨٦١)

(٥) Reiske (٦) Bohlen (٧) Brockelman (٨) Fr. Dietrici

(٩) الف المسيو هووار Huart الاستاذ بمدرسة اللغات الشرقية

رأى خاص المؤلف وغاية ما قال انه حرّف معنى بيت المتنبي

في جحفل ستر العيون غباره　　فكأنما يبصرن بالآذان

فبعد ان كان الحديث عن الخيل جعله عن العسكر .

وكتب (نيكلسن) الانجليزي(١) عن المتنبي ثمان صحائف من القطع الكبير لخص فيها حياته واستوقفته حكاية ظريفة فنقلها(٢) الى الانجليزية وكذلك نقل

الحية بباريس كتابا عن تاريخ الآداب العربية طبع سنة ١٩٠٢ بباريس قال في مقدمته مامعناه . « لا يوجد في اللغة الفرنسية تاريخ لآداب اللغة العربية . وكل ما يمكن ان يرجع اليه الانسان ليكون لنفسه فكرة عما خلفه كتاب العربية فى ثلاثة عشر قرنا لا يتعدى خلاصة موجزة مترجمة عن الانكليزى بقلم برينجتون Joseph Berington « ١٨٢٣ » وبضعة صحائف عن بلاد العرب تاليف نويل ديفرجيه Noel Duvergers « ١٨٤٧ » وعن تاريخ العرب تأليف سيديو Sedillo « ١٨٥٤ » وفي انكلترا كتاب ناقص جدا بقلم المستر اربوثنوت Arbuthnot عن « المؤلفين العرب » طبع في لندره سنة ١٨٩٠ وفى الروسيا كتاب « الآداب العربية » تأليف جرجاس Guirgass وفى ايطاليا « تاريخ الآداب العربية في الخلافة عهد » تأليف دي باردى Ph de Bardi « ١٨٤٦ » وانما ظهر بالالمانية كتاب المستشرق النمساوى همر بورجستال طبع فى فينا فى سبعة اجزاء من سنة ١٨٥٠ الى سنة ١٨٥٦ . وكذلك ظهر بالالمانية كتاب بروكلمن عن « الآداب العربية » ايضا في جزئين الاول سنتى ١٩٩٨ — ١٨٩٨ والثاني سنة ١٩٠٢ »

(١) R. A. Nicholson في كتابه التاريخ الأدبي للعرب ص ٣٠٤

(٢) لما انشد سيف الدولة قصيدته التى أولها

اجاب دمعي وما الداعي سوى طلل　　دعا فلباه قبل الركب والابل

وناوله نسختها وخرج . فنظر فيها سيف الدولة فلما انتهى الى قوله

يا ايها المحسن المشكور من جهتي　　والشكر من قبل الاحسان لاقبلي

أقل . أنل . أقطع . احمل . عل . سل . أعد　　زد . هش . بش . تفضل . أدن . سر . صل

قصـيدة « وآحر قلباه » وأشار الى اشتهار ديوان أبي الطيب وكثرة شراحه وكتب النقد . ونقل عن ابن خلكان أن أبا العلاء المعرى حاول مرات عدة ان يبدل كلمة بغيرها في شعر المتنبي فلم يستطع - الا انه يلاحظ ان الاوربيين ، ما عدا فون همر ، لا يشاركون المعرى فى هذا التعصب كما يظهر من أقوال رايسكي وده ساسي وبوهلن وروكامن وغيرهم وهولا يشك - بحسب قواعد الذوق الاجنبي - ان يؤخر المتنبي فى المكانة عن شعراء الجاهلية المشهورين بل وعن أبي نواس وأبي العتاهية من المحدثين واذ رأى ان عشاق الشعر عندهم ينفرون من حسنات أبي الطيب أكثر مما ينفرون من غلطاته التي يعدها عليه النقادون من أهل العربية وما ذلك الا لأن الشرقى وحده هو الذى يستطيع ان يقدر المتنبي - من أجل هذا رجع نيكلسن الى أحكام الثعالبي في يتيمة الدهر فنقل طائفة من المحاسن والمعايب وقال اذا كان الانجليز يدعون أنهم خير من يستطيعون الحكم على « شكسبير » والطليان خير من يقدرون قيمة « دانتي » فلا عجب ان نسلم بشبه الاجماع الصادر من أهله القاضى بأن يكون المتنبي على رأس شعراء الاسلام - ثم قال يصح ان نسمى المتنبي « فيكتورهوجو » الشرق - وذكر رأى رايسكي في تشبيهه بالشاعر اليوناني الحكيم « اوريبيدس » وعقبه بجعله زعيما من زعماء النزعة الحكمية التي مبناها العبر والامثال وكان رأسها فى دورها الحديث أبو العتاهية

وقع تحت اقبل قد اقبلناك . وتحت انل يحمل اليه من الدراهم كذا . وتحت اقطع قد اقطعناك الضيعة الفلانية . ضيعة ببلاد حلب . وتحت احمل يقاد اليه الفرس الفلاني . وتحت عل قد فعلنا . وتحت سل قد فعلنا فاسل . وتحت اعد أعدناك الى حالك من حسن رأينا . وتحت زد يزاد كذا . وتحت تفضل قد فعلنا . وتحت أدن قد ادنيناك . وتحت سر قد سررنا — قال ابن جنى فبلغنى عن المتنبي انه قال انما اردت سر من السرية فأمر له بجارية — وتحت صل قد فعلنا - قال وحكى لى بعض اخواننا ان العقلى وهو شيخ كان بحضرته ظريف قال له - وحسد المتنبي على ماامر له به - يامولاى قد فعلت به كل شيء سألكه فهلا قلت له لما قال لك هش . بش هه هه هه يحكى الضحك. فضحك سيف الدولة

ولو ان هذا المذهب كان له من غرس مبادئه في الشعر القديم من أمثال زهير

***

أبو الطيب وأبو تمام والبحترى

هؤلاء الثلاثة يعدون طبقة قائمة بذاتها هى آخر طبقات الشعر الناضج الذى يقل فيه تمحل المتأخرين وتكلفهم وتغلب فيه الروح العربية السليمة ـ الا ان أنصار الشعر القديم ينفون هؤلاء من ديوان الشعراء ولا سيما أبا الطيب المتنبي .

قال ابن خلكان في ترجمة المعري (ص ٤٧ ج ١) : « واختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه « ذكرى حبيب » وديوان البحترى وسماه « عبث الوليد » وديوان المتنبي وسماه « معجز أحمد » وتكلم عن غريب أشعارهم ومعانيها ومآخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع عليهم والتوجيه في أماكن خطئهم »

على ان المعجبين بشعر المحدثين قد اختلفوا في هؤلاء الثلاثة وأيهم أولى بالزعامة على زميليه فتجد فى كتب التراجم مثلا : « وعلماء الادب مختلفون فى شعره فمنهم من يرجحه علي أبى تمام والبحترى ومنهم من يرجحهما عليه »(١) فاذا عدنا الي كتب الادب رأينا أحكاما موجزة لا تفيد ترجيحا ولا تفضيلا ولا نجد لهذه الاحكام أسبابا ترتكن عليها لأن المقارنة لم تعقد بينهم في فنون الشعر المختلفة ـ الا انه يوجد كتاب واحد وضعه الآمدى في الموازنة بين أبي تمام والبحترى ـ وبما انه لا يتكلم عن أبى الطيب فلا وجه للتعرض له هنا

ترى في كتاب (العمدة) فى باب « المطبوع والمصنوع »(٢) : « قال بعض من نظر بين أبي تمام وأبي الطيب : « انما حبيب كالقاضى العدل يضع اللفظة موضعها ويعطى المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة او كالفقيه الورع يتحري فى كلامه

وقال له ولك أيضا ماتحب وأمر له بصلة » (يتيمة الدهر ص ٨٣ ج ١)

(١) مقدمة الديوان وابن خلكان ص ١ ٥ ج ١

(٢) العمدة ص ٨٧ ج ١

ويتحرج خوفا على دينه وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع »

ونقل صاحب الصبح المنبي : (١) : قال الشريف الرضي « أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحتري فواصف جؤزر ، وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر » ...
وقال ابن شرف القيرواني في مقاماته التي ذكر فيها الشعراء (٢) : « وأما أبو تمام الطائي فمتكلف الا انه يصيب ، ومتعب لكن له من الراحة نصيب ، وشغله المطابقة والتجنيس ، جزل المعاني ، مرصوص المباني ، مدحه ورثاه ، لا غزله وهجاه ، فهما طرفا نقيض ، وسماء وحضيض ، وفي شعره علم جم من النسب ، وجملة وافرة من أيام العرب ، وطارت له الامثال ، وحفظت له الاقوال ، وديوانه مقرو وشعره متلو ـ وأما البحتري فلفظه ماء ثجاج ، ودر رجراج ، ومعناه سراج وهاج ، على أهدى منهاج ، يسبقه شعره ، الى ما يجيش به صدره ، بيسير مراد ، ولين قياد ، ان شربته أرواك ، وان قدحته أوراك ، طبع لا تكلف يعنيه ، ولا العناد يثنيه ، لا يمل كثيره ، ولا يستنكره غزيره ـ وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن ، وسهرت في أشعاره الاعين ، وكثر الناسخ لشعره ، والغائص في بحره ، والمفتش عن جمانه ودره ، وقد طال فيه الخلف ، وكثر عنه الكشف ، وله شيعة تغلو في مدحه ، وعليه خوارج تتعب في جرحه ، والذي أقول ان له حسنات وسيئات وحسناته أكثر عدداً ، وأقوى مدداً ، وغرائبه طائرة ، وأمثاله سائرة ، وعلمه فسيح ، وميزه صحيح ، يروم فيقدر ، ويدري

(١) ص ٢٥٢ و٢٥٣ ج ١

(٢) كانت له وقائع مع ابن رشيق ـ وهو غير الشريف أبي السعادات هبة الله المعروف بابن الشجري البغدادي — صاحب « الأمالي » وهو أكبر تآليفه وأكثرها افادة املاه في أربعة وثمانين مجلساً . . . وختمه بمجلس قصيره على ابيات من شعر ابي الطيب المتنبي تكلم عليها وذكر ما قاله الشراح فيها وزاد من عنده ماسنح له . توفي سنة ٥٤٢ (ابن خلكان ص ٢٧١ ج ٢)

ما يورد ويصدر »

وقال ابن الاثير في أول كتابه « الوشي المرقوم » وكنت حفظت من الاشعار القديمة والمحدثة ما لا احصيه كثرة ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب ابن أوس يعني أبا تمام وأبا عبادة البحتري وشعر ابي الطيب المتنبي فحفظت هذه الدواوين وكنت أكرر عليها بالدرس حتى تمكنت من صوغ المعاني . — وله مجموع اختار فيه من شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبي وهو في جلد واحد كبير وحفظه مفيد (ابن خلكان ص ٢٣٣ و ٢٣٥ ج ٢)

وله مقارنة مطولة نوعاً ما عقدها في كتابه المثل السائر (١)

وللعميدي صاحب « الابانة عن سرقات المتنبي » شبه مقارنة خرج منها أبو

---

(١) ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع . وانفدت شطرا من العمر في المحفوظ منه والمسموع . فالفيته بحرا لا يوقف على ساحله . وكيف ينتهى الى احصاء قول لم تحص اسماء قائله ؛ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده . ولم اكن ممن اخذ بالتقليد والتسليم . في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم . اذ المراد من الشعر انما هو ابداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل اللطيف فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فيه فهو بابل وقد اكتفيت في هذا بشعر ابي تمام حبيب بن أوس وابي عبادة الوليد وابي الطيب المتنبي وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته . الذين ظهرت على ايديهم حسانه ومستحسناته . وقد حوت اشعارهم عذوبة المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الامثال السائرة وحكمة الحكماء — اما « ابو تمام » فانه رب معان . وصيقل الباب واذهان . وقد شهد له بكل معنى مبتكر . لم يمش فيه على اثر . فهو غير مدافع عن مقام الاغراب . الذى برز فيه على الاضراب . ولقد مارست من الشعر كل اول واخير . ولم اقل ما اقول فيه الا عن تنقيب وتنقير . فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه . وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام ؛ وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام . فخذ مني في ذلك قول حكيم . وتعلم ففوق كل ذي علم عليم .

— * —

الطيبَ صفراً ـ قال : « ولا أرى ان أجعله وأبا تمام رب المعاني ومسلم بن الوليد وأشباههما في طبقة واحدة ،ولا الحقه في عذوبة الالفاظ وسهولتها ورشاقة المعرض ومجانبة التصنع والتكلف بالبحتري،ولا أقيسه في امتداد النفس وعلم اللغة والاقتدار على ضروب الكلام وتصوير المعاني العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارعة والآداب الواسعة بابن الرومي،ولا أتهالك في مدحته لك مع من يتعصب له تقليداً ويغلو فيجعل بينه وبين هؤلاء الفضلاء أمداً بعيداً »

« واما ابو عبادة البحترى » فانه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى .واراد ان يشعر فغنى .ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الاطلاق . فبينا يكون في شطف نجد اذ تشبث بريف العراق . وسئل ابو الطيب المتنبى عنه وعن ابى تمام وعن نفسه فقال انا وابو تمام حكيمان والشاعر البحترى .ولعمري انه انصف في حكمه. واعرب بقوله هذا عن متانة علمه فان ابا عبادة اتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء . في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء .فادرك بذلك بعد المرام. مع قربه الى الافهام .وما اقول الا انه اتى في معانيه باخلاط الغالية. ورق في ديباجة لفظه الى الدرجة العالية . وأما « ابو الطيب المتنبى » فانه اراد ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه. ولم يعطه الشعر من قياده ماعطاه. لكنه حظي في شعره بالحكم. والامثال واختص بالابداع في وصف مواقف القتال · وانا اقول قولا لست فيه متأثما. ولا منه متلثما ؛ وذاك انه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها. واشجع من ابطالها. وقامت اقواله للسامع مقام افعالها .حتى تظن الفريقين قد تقابلا. والسلاحين قد تواصلا. فطريقه في ذلك تضل بسالكه. وتقوم بعذر تاركه؛ ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان فيصف لسانه ماادي اليه عيانه؛ ومع هذا فاني رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط .فاما مفرط فى وصفه واما مفرط. وهو وان انفرد بطريق صار ابا عذره.فان سعادة الرجل كانت اكبر من شعره. وعلى الحقيقه فانه خاتم الشعراء ،ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء »

نقد شعر ابي الطيب

أبو الطيب يدعو الى نقد شعره : — من محاسن الصدف ان يجيء في شعر ابى الطيب بيت يطلب فيه الشاعر من ممدوحه ان ينقد شعره لأنه رأى المدلسين والمقلدين قد كثروا ويخاف ان يضيع شعره الصحيح بين أشعارهم المزيفة . قال

انى نثرت عليك دراً فانتقد كثر المقلد فاحذر التدليسا

ومن اتبع مبدأ الاصوليين فى قولهم « عموم اللفظ لا خصوص السبب » جاز له ان يتذرع بهذا البيت ليعطى لنفسه الحق فى نقد شعر ابى الطيب ، حتى لكأن الرجل قد أباح لكل مطلع على ديوانه أو بعبارة أصح قد طلب منه ان يبدى رأيه في شعره ويظهر مواضع الكمال والنقص من أبياته

فبعد الاستئذان من أبى الطيب أو بناء على أمره هذا نشرع بحول الله في عرض الانتقادات جملة لا تفصيلا



هل شعره حى في جملته ؟

قد يجوز ان يكون فى شعر أحد الشعراء بعض العيوب ومع هذا فان الشعر يعيش وتتناقله الافواه ويسير فى الناس — وقلما يخلو الشعر من عيب لفظي او معنوى او لغوى او بيانى او عروضى او غير ذلك — وقد ترى بعض الشعر سالما من العيوب بريئاً من العلل ولكن ليس له من حظ الوجود الا انه مدفون في بطون الكتب — فهلا تسائل نفسك أمام هذا الفرض الغريب كيف يعيش عليل ويموت سليم ؟ فهل من سبب لذلك ؟ نعم . هناك سبب لا يصعب الاهتداء اليه بقليل من التفكير .

إن العلة لا تقتل الانسان فقد يعيش العليل رغم أدوائه مادامت فيه حياة وما دامت الروح متصلة ببدنه سارية في أجزائه — فاذا مازهقت تلك الروح وفارقت جسم الانسان لم تغن عنها سلامة الاعضاء ولا قوة البدن

هذا ما يقال عن الانسان وهو نفس ما يقال عن الشعر أيضاً فالعنصر الاول الواجب توفره في الشعر انما هو الروح ولا حياة للشعر بدونها . فاذا ثبت ان الشعر

حتى سار في الناس و بقى فيهم على الرغم من تشوهاته وعاهاته — حتى ولو كان يمشي مشية العرج — وأما اذا ولد الشعر ميتا فلا تحاول استبقاءه وقل عليه العفاء

تنظر الى بعض الشعر فكأنه خلاء قفر او طال بال أو منزل خرب لا تشعر فيه بدبيب الحركة ولا تحس منه بأثر من آثار الحياة بينما ترى شعراً آخر وكأنه الربع المأهول والبيت المقصود المعمور تعرفه بحركة سكانه وتكاد تسمع منه نغمانهم التى تتردد بين جوانبه

والفرق بين الشعرين ان الاول ميت بلا روح أما الثانى فقد أعاره صاحبه بعضاً من نفسه ووهبه جزءا من روحه الحساسة .. فاذا مات الشاعر بقيت روحه تتلألأ في شعره يعرفه بها الناس ويذكرونه كلما أشرقت عليهم من خلال أقواله — ومن النوع الثانى كان غالب شعر ابي الطيب كما أظن. ولولا ذلك لما سار بين الناس مسيره الغريب

***

هل كان أبو الطيب من المقلين او المكثرين ؟

هذا أول ما يجب ان نتساءل عنه . يبلغ شعر ابي الطيب حوالى الستة آلاف بيت وقد ذكر عدتها بالضبط أحد شراح ديوانه وهو العالم الكبير « الواحدى » في آخر كتابه فقال : « هذا آخر ما اشتمل عليه ديوانه الذى رتبه بنفسه وهو خمسة آلاف وأربعمائة وتسعون قافية » — ولم يذكر هذا البيان في شرح الواحدي المطبوع في أوروبا وانما عثرت عليه في آخر احدى النسختين الخطيتين المحفوظتين في المكتبة الازهرية. واذا عرفنا ان أبا الطيب قال الشعر قبل ان يبلغ العشرين ومات بعد الخمسين فيكون متوسط ما قاله في السنة ١٨٠ بيتاً (أى نصف بيت في اليوم) فاذا راعينا ان أبا الطيب لم يشتغل الا بالشعر وليس له شيء من النثر ولم يتول عملا من الاعمال يشغله عن النظم بل كان منقطعاً له حكمنا عليه بأنه من المقلين من جهة كمية الشعر ولكن اذا لاحظنا ان أبا الطيب كان شغوفا باللغة منكباً على درسها يكثر المطالعة ليلا وان الشخص الذى يكثر من الدرس لا يجد في نفسه كبير ميل الى الكتابة لا سيما وان شعر أبى الطيب غالبه تفكير عقلي — اذا لاحظنا ذلك شهدنا لأبي الطيب بأنه من المكثرين

على أني لم أعثر على حكم أحد من أهل الادب في هذه النقطة

ويلاحظ أيضاً من جهة مقدار الشعر ان الشاعر فى غالب أوقاته نديم للامراء يمضى جزأ عظيما من زمنه فى محرمهم فهو ليس منصرفا تمام الانصراف الى النظم كأبى العلاء المعرى مثلا الذى كان منقطعاً للدرس والتأليف

***

هل كان صحيح البديهة سريع الخاطر؟

يقول ابن رشيق في كتابه « العمدة » « وقد كان أبو الطيب كثير البديهة والارتجال الا ان شعره فيهما نازل عن طبقته جداً وهو امرىء في سعة من العذر. (١) »

وفي ديوان أبي الطيب أشعار كثيرة قيلت على البديهة وأحسن ما يستدل به على بديهة أبى الطيب قوله بعد ان أنشد بعض أبيات ولم يظهر معني البيت الاول لقوم كانوا فى المجلس (عند سيف الدولة)

أتيت بمنطق العرب الاصيل وكان بقدر ما عاينت قيلى

فعارضه كلام كان منه بمنزلة النساء من البعول

وهذا الدر مأمون التشظى وأنت السيف مأمون الفلول

وليس يصح في الافهام شيء اذا احتاج النهار الى دليل

والبيت الاخير قد سار بين الناس مسير الامثال حتي استشهد به المناطقة في أبحاثهم

وشعر أبي الطيب المرتجل كثير خصوصاً عند ما كان فى حاشية بدر بن عمار — ودخل عليه ابو على هارون بن عبد العزيز الاوراجى الكاتب فقال له وددنا ياأبا الطيب لو كنت اليوم معنا فقد ركبنا ومعنا كلب لابن ملك فطردنا به ظبياً ولم يكن لنا صقر فاستحسنت صيده. فقال أنا قليل الرغبة فى مثل هذا. فقال أبو على انما اشتهيت ان تراه فتستحسنه فتقول فيه شيئا من الشعر. قال أنا أفعل. أفتحب ان يكون الآن. قال أيمكن مثل هذا؟ قال نعم وقد حكمتك فى الوزن والقافية. قال لا بل

(١) ص ١٢٨ و ١٢٩ ج ١

الامر فيهما اليك . فأخذ أبو الطيب درجا وأخذ أبو علي درجا آخر يكتب فيه كتابا فقطع عليه أبو الطيب الكتاب وأنشد : « ومنزل ليس لنا بمنزل » وهي أرجوزة مطولة تعد من حسنات أبي الطيب

الا ان هذه البديهة قد خانته وهو في حاشية سيف الدولة وله قصيدة يشير فيها الى ذلك وعنوانها في الديوان : « وقال وقد استبطأ سيف الدولة مدحه وتنكر لذلك » وفيها يقول

كفرت مكارمك الباهرا ت ان كان ذلك مني اختيارا
ولكن حمى الشعر الا القليـل هم حمى النوم الا غرارا

***

هل كان من المتكسبين بالشعر ؟

بلا نزاع . وقلّ في تاريخ الادب عندنا ـ بعد متقدمي الجاهلية ـ ان يوجد شاعر لم يؤجر على شعره وهذا مما أضاع كثيراً من قيمة الشعراء وحط من منزلتهم في نظر الناس

روى صاحب الصبح المنبي انه وصل الى أبي الطيب من صلات عضد الدولة أكثر من مائتي ألف درهم . وقال بعض الرواة الذين أخذ عنهم المؤلف المذكور على ذكر مقتله : « وافاني المتنبي ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة الخ .... » فهو اذن ممن أثروا من صناعة الشعر ـ وقليل ما هم ـ

ولا ينبغي ان ننسى ان « أسعار » قصائده كانت في أول الامر أقل من هذا بكثير ـ فقد أعطاه ابن منصور الحاجب ديناراً واحداً على قصيدة «بأبي الشموس» فسميت الدينارية

***

هل كان كل شعره من طبقة واحدة ؟

يطمع كثير من الناس ان يروا شعر الشاعر او نثر الناثر من طبقة واحدة طول حياته ويستنكرون التفاوت الذي يلاحظونه بين أجزاء الشعر اوالنثر ويخيل الي

نه يتعذر على الشـاعر ان ينظم طول حياته على نمط واحد خصوصا الشـعراء الذين يتصلون بحاشية الامراء فقد يفاجؤون بطلبات من امرائهم في ساعات لا يتوقعون فيها مثل تلك الطلبات. أضرب لذلك مثلا: الشاعر في لهوه مع أصحابه يحتسون الكؤوس بين لهو وطرب وسماع ثم يفاجأ بخبرِ موت عزيز على الامير فيطلب من الشـاعر ان ينظم في الرثاء. ففي هذه الحالة لا يستطيع الشاعر ان ينظم الا شعراً نازلا عن طبقته يظهر فيه التصنع والتكلف وهذا ما يجب ان ينظر اليه في الحكم على شعر المأجورين ـ او المتكسبين ـ من الشعراء فينبغي التلطف في مؤاخذتهم لأنهم مضطرون في مثل هذه الظروف ان يقولوا على خلاف ما في أنفسهم اذ يطلب منهم البكاء وهم فرحون او ان يفرحوا وهم محزونون الى غير ذلك مما يوقع الشعراء في الحيرة فيجيئون بشـعر رديء يعد عليهم سيئات فيما بعد

يقول ابن الاثير في المثل السائر: «ولما تأملت شعره بعين المعـدلة البعيدة عن الهوى وعين المعرفة التي ما ضل صاحبها وما غوى وجدته أقساما خمسـة: خمس في الغاية التي انفرد بها دون غيره وخمس من جيـد الشعر يساويه فيه غـيره وخمس من متوسط الشعر وخمس دون ذلك وخمس في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها وعدمها خير من وجودها ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها فانهـا هي التي ألبسـته لباس الملام وجعلت عرضه شارة لسهام الاقوام» (١)

***

هل كان أبو الطيب شاعراً مطبوعا او كان من أصحاب الصناعة؟

الاحظ هنا ملاحظة على تسمية الشاعر بالمطبوع لأن الشـعر في ذاته صـناعة وتكلف غير طبيعي في الانسان ولا أظن هذه التسمية الا نسبية فقط ففلان يعد من الشعراء المطبوعين بالنسبة لفلان الآخر ولكنه صاحب صناعة بالنسبة لنفسه. أليس الوزن تكلفاً؟ أليست القافية تصنعاً؟ وكفى

مما لا نزاع فيه ان كل المتأخرين من أصحاب الصناعة يجتهدون في ادخال

---

(١) ص ٤٧١

المحسنات في نظمهم على خلاف شعراء الجاهلية وصدر الاسلام الذين لم يكونوا يعنون بهذه المحسنات ولو انها كانت تأتي عفواً في أشعارهم ولكن الشاعر اذا لم يكن قد فطر فطرة شاعرية وطبع هذا الطبع فان الصناعة لا ترفع من شأن شعره ولا تزيد على انه كلام موزون مقفى

فالمتنبي شاعر من المتأخرين وهو بلا شك من أصحاب الصناعة وصناعته ظاهرة جلية في شعره وسنرى أسرارها ومميزاتها فيما بعد وهذا لا يفيد أنه نظام فقط بل انه مطبوع طبعا شعريا جعل أقواله الحكمية تسير في الناس بفضل روحه الشعرية التي تشرب بها الشعر الا انه قد تتغلب عليه الصناعة في بعض الاوقات فيظهر تكلفه وفي بعض الاحيان يستسلم للطبع ولا ينظر الى التنميق طمعا في ان يجيء بشعر بدوي صميم مذهبه في الصنعة :

مما لا شك فيه ان المتنبي من أصحاب الصنعة وهو يشبه في بعض الاحوال أبا تمام وفي بعضها ابن الرومي وفي بعض المطالع يكاد يكون من مقلدي دعبل في اسلوبه وفي باب الحكم ما عدا الزهد يقرب كثيراً من أبي العتاهية

وللقاضي الجرجاني حكم في صنعة أبي الطيب يحسن ايراده هنا . قال : « وانما أنت أحد رجلين اما ان تدعي له الصنعة المحضة فتلحقه بأبي تمام وتجعله من حزبه او تدعي له فيه شركا وفي الطبع حظا فان مالت به نحو الصنعة فضل ميل صيرته في جنبة مسلم وان وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلا نحو البحتري . وأنا أرى لك اذا كنت متوخيا للعدل مؤثراً للانصاف ان تقسم شعره فتجعله في الصدر الاول تابعا لأبي تمام وفيما بعده واسطة بينه و بين مسلم ... » (١)

الا ان المتنبي قد أكثر من التكلف في مواضع وأعفى طبعه لكي يحسن فأساء مع ان له مبدءاً جاء عرضا في شعره يحض فيه على ترك التعمل والانقياد للطبع لأن ذلك خير كفيل بالنجاح — قرر المتنبي هذا المبدأ في قصيدته التي قالها في بدر بن عمار « وقد فصده الطبيب فغاص المبضع فوق حقه فأضر به ذلك » :

---

(١) الوساطة ص ٦٤

يقول عن الطبيب :

جاز حدود اجتهاده فأتى غير اجتهاد لأمه الهبل !

أبلغ ما يطلب النجاح به الطبـ ـع وعند التعمق الزلل

يعترف البازجي لأبي الطيب بما « ركب في طبعه من السلاسة وقوة البادرة والنزاهة عن التكلف »(١) وما عدا ذلك من تعمل أو تقليد فمرض طارئ لأسباب

---

(١) العرف الطيب ص ٦٧٠ — واليك بعض أحكام مقتطفه من ذلك البحث الممتع : « وما أدري كيف يقع من يأتي بامثال هذه البدائع الباهرة والروائع الساحرة التى انفرد بها عن مواقف الاشباه وعجزت قرائح المتحدين عن بلوغ مداه أن ينشط بعدها لمثل تلك السفاسف التي لا يتصور في أضعف الشعراء ان تصدر منه ... وكأني بالمتنبي على طول باعه في صناعة الأدب وفضل علمه بمواقع الاساءة والاحسان كان قليل النقد لشعره حريصا على كل مايبدر من خاطره لا يسمح بشيء منه مع طول قصائده واستقلالها بعد حذف كثير من أبياتها لو اقتصر منها على الجيد وحده وما كان اجدره ومنزلته من الأدب ماهي ولا صنعة له غير الشعر ان يتوفر على تنقيح ديوانه وينفي منه كل بيت لا يطرد على مكانته ولو فعل لساد امراء الشعر بلا مدافع ولم تجد في نقدة الكلام وجهابذة الأدب من يقدم شاعرا عليه ... على انك اذا تفقدت تلك المعجمات من ابياته فأكثر ماتجدها في اوائل شعره حين لم تستحكم فيه ملكة النظم ... بل ربما ركب مثل ذلك عمدا لحينه ذاك . اذ المرء في أول قرعه لباب الشعر والانشاء وتسليمه على محضر الأدب قد يدفع نفسه الى ماهو وراء موقفها ويكلف سجيته ماليس في مطبوعها تأنقاً في الخطاب وتواخيا لمواقع الاحسان والاعجاب وربما نزع الي تقيل بعض الكبراء من أهل خطته ومن وقع في نفسه منهم موقعا جليلا فيخطو على آثاره ويطبع على غراره تدرجا الى مماثلته وتبوء مثل مقامه في الصدور وهذا انما ينجح حيث يوافق شبها من الذوق وميلا من الطبع فيتلبس بمنتحله حتى يصير مع التكرار ملكة راسخة

« وما احسب المتنبي الا كان في صدر أمره يتوخي طريقة ابي تمام اعجاباً

وقتية ثم لا يلبث ان تتغلب عليه فطرته الاولى ـ

به واستعظاماً لأمره وشهرة ابي تمام يومئذ ملء المسامع ومنزلته في اللغة والأدب مطمح عيون المطامع الا ان المتنبي لم يكن في طبعه من أهل هذا المذهب ولا في سجيته قبول هذا المسلك لما كان عنده من « بداهة الخاطر وحدة البادرة والبعد عن التكلف والتعمل » ولذلك كان هذا في أوائل شعره وقبل ان تستوسق ملكته وتستقل طريقته أكثر واظهر . فكان ينحو نحو أبي تمام في الحوم حول موارد الاغراب والتنقيب عن الوحشي من كلم الجاهلية والتورك على الصيغ الشاذة والتراكيب الجافية والتحذلق في اسلوب الخطاب حتى كأنه يدفع في صدر السامع ...

« ومن تفقد أوائل ديوانه رآها كذلك الوانا تبعاً لمقامات الكلام ومراتب المخاطبين وكلما امعن فيها وراء ذلك وجد هذا التلون فيه أخفى آثاراً وأقل عروضا الي ان استقلت طريقته وأقلع عن موقف التقليد الا انه لم يزل في ملكته شيء من ذلك القديم أشبه بعداد السليم يعاوده حيث يحتفل ويقصد الاغراب والمبالغة في الاحسان فيأتي كلامه معقداً بادي التكلف . . . ولهذا تري شعره في أبي العشائر مثلا أسهل أسلوبا وأظهر أغراضاً من بعض شعره في سيف الدولة مع أنه ولا شك كان أيام اتصاله بسيف الدولة أغزر مادة وأقدر على التصرف بأزمة الكلام ... وذلك انه عند اتصاله بسيف الدولة وقف منه بباب حافل بالشعراء والعلماء ... ولذلك لم يكن للمتنبي بد من حشد القريحة في مدائح سيف الدولة والاكثار من التحري والتنطس في ألفاظه ومعانيه والامعان في الاحتفال الى ما وراء طبعه حتى تنقلب قريحته صنعة وبادرته تكلفاً »

« ثم اذا انتقلت الى شعره في كافور وجدته قد عاد الى السهولة والرشاقة فاشبه شعره في أبي العشائر ومن قبله . وشعره في ابن العميد متأخر عن شعره في كافور لكنه أشبه بشعره في سيف الدولة لان ابن العميد كان من مشاهير علماء الأدب وأمراء النقد وله على المتنبي مآخذ ... أما شعره في عضد الدولة فأنزل رتبة من ذلك لانه كان يرسل الكلام من فضل القريحة لقلة المزاحمين والنقاد فلم يكن يتوخي الاحتفال ولا الاختراع الا ما ساقته القريحة عفواً .

ولصاحب الصبح المنبي اشارة في هذا الموضوع (١)

***

النقد البياني ـ نقد الجزئيات

الاحظ هنا من باب التذكرة ان النقد عندنا يتناول الجزئيات ولا يتعدى الى الموضوع في جملته . تجد الناقد يتعرض لبعض الفاظ خرجت عن قواعد اللغة أو بعض تراكيب لا تناسب الذوق العربي الاصلي أو يؤاخذ على غلطة نحوية أو سقطة بيانية الى غير ذلك . ولكننا لا نرى ناقداً ينظر الى القصيدة ويقدرها في مجموعها بنظرة اجمالية من حيث تناسب اجزائها وارتباط بعضها ببعض وقيمتها من حيث موضوعها ومرماها وأسلوب انشائها وموافقته لموضوع القصيدة الى غير ذلك من الاعتبارات التي لا دخل لها في الالفاظ والتراكيب . ولهذا قال كثير ممن عنوا بدرس آداب العرب من الاجانب بأن النقد العربي نقد بياني محض (٢) ـ ولكن النقد العربي قد وقف في طريقه منذ

لكنه لما نظم فيه أرجوزته « ما أجدر الايام والليالي » عاد الى دأبه الاول من الاغراب والتكلف لانه كان في أراجيزه يقصد محاكاة البدويات . ولذلك ترى كل ماله من هذا النوع معقداً جافي اللفظ والتركيب لا يشبه سائر شعره ولا عليه شيء من طلاوته وانسجامه » (ص ٦٦٥ ـ ٦٧١)

(١) ص ٨٧ ج ١ « وأحسن قصائد ابي الطيب في سيف الدولة . وتراجع شعره بعد مفارقته . وسئل عن سبب ذلك فقال : قد تجوزت في قولي وأعفيت طبعي واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان وفيهم من يقول ... (يعني ابافراس وابا زهير وابا العشائر) »

(٢) لذلك رجع (نيكولسن) الانجليزي الي الانتقادات البيانية التي جاءت في (اليتيمة) ليحكم على قيمة المتنبي في نظر الشرقيين لا في نظر الغربيين ـ وفي دروس الاستاذ (نللينو) الايطالي التي القاها بالجامعة المصرية على تاريخ الآداب العربية ملاحظات كثيرة على النقد البياني عندنا وانصراف النقدة العرب الي هذا النوع دون غيره ـ واليك خلاصة ماقاله الثعالبي في يتيمة الدهر

العصور الأولى للاسلام فلو أنه سار سيره الأول لكان فناً كاملا لا يعيبه عائب ولا ينتقصه منتقد

(ص ٩٥ ـ ١٦٢) في نقد شعر المتنبي ـ وهو منقول برمته تقريباً في الصبح المنبي. وانا نقتصر هنا على ذكر رؤوس المواضيع. قال : « والآن أذكر ماينعي على أبي الطيب من معايب شعره ومقابحه . . . . فنها قبح المطالع . اتباع الفقرة الغراء بالكلمة العوراء . استكراه اللفظ وتعقيد المعنى . عسف اللغة والاعراب الخروج عن الوزن . استعمال الغريب الوحشي . الركاكة والسفسفة بالفاظ العامة والسوقة ومعانيهم . ابعاد الاستعارة والخروج بها عن حدها . الافراط في المبالغة والخروج فيها الى الاستحالة . تكرير اللفظ في البيت الواحد من غير تحسين اساءة الادب بالأدب . استكراه التخلص . قبح المقاطع ... هـذا آخر المقابح والمعائب وأول المحاسن والروائع والبدائع والقلائد والفرائد التى زاد فيها على من تقدم وسبق بها جميع من تأخر : فنها حسن المطلع : حسن الخروج والتخلص النسيب بالاعرابيات . حسن التصرف في سائر الغزل . حسن التشبيه بغير اداة التشبيه . الابداع في سائر التشبيهات والتمثيلات . التمثيل بما هو من جنس صناعته . المدح الموجه . حسن التصرف في مـدح سيف الدولة بجنس السيفية . الابداع في سائر مدائحه . مخاطبـة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق مع الاحسان والابداع : استعمال الفاظ الغزل في أوصاف الحرب والجد : حسن التقسيم . حسن سياقة الاعداد . ارسال المثل في انصاف الابيات : ارسال المثلين فى مصراعي البيت الواحد : ارسال المثل والاستملاء والموعظة وشكوي الدهر والدنيا والناس وما يجرى مجراها . افتضاضه ابكار المعانى فى المراثى والتعازى : الايجاع في الهجاء . ابراز المعانى اللطيفة فى معارض من الالفاظ الرشيقة والرمز بالطرف والملح . حسن المقطع »

لقد عرض الثعالبي شعر المتنبي على الابواب المختلفة فى علم البلاغة كما يفعل ناقد المعادن والاحجار الكريمة . عند ما يعرض الجوهر على محكه أو يغمره في سوائله الكشافة أو ينفخ عليه في كيره فاستوفي بذلك كل مافي الشعر من

وأهم نقطة تستوقف النظر في نقد أبي الطيب هي السرقة ولذلك أطلنا عليها الكلام نوعاً ما

***

سرقات أبي الطيب (١)

لا تتصفح كتابا من كتب الأدب أو البيان أو النقد الا وتجد مؤلفه قد تكلم فيه على سرقات المتنبي . وكل الأمثلة تقريباً في كتب البلاغة على أنواع السرقة مأخوذة

البحث وتناوله بالتحليل الدقيق بقدر ما تصل اليه طاقة النقد في عصره : فاذا ما وجه أي اعتراض الى ماجاء في نقد الثعالبي وأمثاله فانما يوجه الى طريقة الانتقاد نفسها والى عدم نضج الانتقاد لا الي الناقد نفسه اللهم الا ان يطلب منه ان يكون مبتدعا أو مجدداً في الادب وهذا لا يطالب به أحد لانه في الغالب توفيق فوق الاجتهاد .

(١) التعيير بالسرقة بين الشعراء :ـ

كانت السرقة شر ما يعير به الشعراء ـ ان صدقا وان كذبا ـ وهذا الايلام القاتل قد عرفه الشعراء وما أصدق أبا الطيب حين استعاذ من عداوة الشعراء بقوله« وعداوة الشعراء بئس المقتنى » انظر الي الفرزدق كيف يقول في البعيث :

اذا ماقلت قافيـة شروداً تنحلها ابن حمراء العجان

وجرير في الفرزدق :

سيعلم من يكون أبوه فينا ومن عرفت قصائده اجتلابا

والفرزدق في جرير:

ان استراقك ياجرير قصائدي مثل ادعاك سوي أبيك تنقل

والى قول ابن الرومي في البحتري :

قد قلت اذ نحلوه الشعر «حاشله» ان البروك به أولى من الخبب

الي ان يقول بعد ان سخر كثيراً من لحية البحترى

قبحاً لاشـياء يأتى البحترى بها في شعره الغث بعد الكد والتعب

وقـد يجيء بخلط فالنحاس له وللاوائل ما فيـه من الذهب

سمين ما نحلوه من هنا وهنـا والغث منـه صريح غير مجتلب

من شعر أبي الطيب . وأعجب من هذا ان يفرد لسرقاته فصل مطول يستغرق معظم الكتاب الذى يدرس فيه ابوالطيب كما تجد ذلك في « الوساطة » و « الصبح المنبي » وأغرب من هـذا وذلك ان يخصص لسرقات المتنبي كتاب على حدته لايدور البحث فيه الا على استقصاء تلك السرقات وردها الى أصحابها مثل كتاب العميدى الموسوم «بالابانة عن سرقات المتنبي» أوكتاب «المآخذ الكندية من المعاني الطائية» لابن الدهان (١)

يسيء عفاً فان ا كدت وسائله — أجاد لصاً شديد البأس والكلب
ان الوليـد لمغوار اذا نكلت — نفس الجبان بعيد الهم والسرب
عبـد يغير على الموتى فيسلبهـم — حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما ان تزال تراه لا بساً حللا: — أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب
شعر يغير عليـه باسلا بطلا — وينشـد النـاس اياه على رقب
يقول مستمعوه الجاهلون به — أحسنت يا أشعر الحضار والغيب
حتى اذا كف عن غاراته فله — شعر يئن مقاسيه من الوصب

ثم وجه الحديث للوزير أبى عيسى العلاء بن صاعد يطلب اليه ان ينكل بالسارق حسنات الاوائل القاتل سامعيه بشعره الرديء

أيسرق البحتري النـاس شعرهم — جهراً وانت نكول اللص ذي الريب
وتارة يبتز الارواح منطقه — فالخلق مابين مقتول ومغتصب

فهذا البحترى أيضاً قد انتظم في سلك اللصوص ولا لوم على هؤلاء والشعراء ولا تثريب فقد قال من هم أحق منهم بالعطف والمرحمة « ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل » هكذا قال أبناء يعقوب في يوسف وأخيه ... — الا ان عشاق اللغـة العربية يتمنون لو ان هذه اللغة الكريمة تبلى كل يوم بلص أو لصين من امثال البحتري والمتنبي لانها فى حاجة الى هؤلاء الاشرار وقد كفاها بكم الاخـيار أجيالا طوالا

(١) هو ابن الدهان النحوى البغدادى (ولد سنة ٤٩٤ وتوفى سنة ٥٦٦ وقيل ٥٦٩) له كتاب « المآخـذ » ويسميه ابن خلكان « الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية » ويسميه الصبح المنبي « المآخذ الكندية من المعاني الطائية » مآخذ المتنبي (الكندى) من معاني أبي تمام والبحتري (الطائيين)

حتى لكأن أبا الطيب لم يعرف في عالم الأدب الا بلصوصيته . وسواء صحت فكرة السرقة في شعر المتنبي أم لم تصح فان تلك التسمية في ذاتها شديدة الوقع على النفس ولو أنها تمثل الحقيقة تمثيلا صادقا . وقد أحسن القلقشندي صاحب كتاب « صبح الأعشى » في تسمية هذا الباب بالتقليد . وهذا التعبير أخص من السرقة . وأعم من هذين اللفظين « الأخذ » وهو أخذ الشعراء بعضهم عن بعض . ويظهر ان خصوم أبي الطيب اختاروا تلك التسمية المؤلمة تحقيراً لخصمهم وتشنيعاً عليه — أما الثعالبي فانه أنصف أبا الطيب فى هذا الباب كما أنصفه في غيره من الابواب وذكر أخذه عن الشعراء كما ذكر أخذ الشعراء عنه — وهذا هو العدل المطلوب من كل ناقد

ولعل أهل الأدب أرادوا بهذه التسمية المؤلمة ان يدفعوا الطامعين عن مد أيديهم الى ثمرة أفكار الغير وعصارة عقولهم (١)

يقول صاحب «الابانة» عن سرقات المتنبي : « ولقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الابيات التى يفتخر بها أصحابه ، وتعتبر فيها آدابه ، من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم مسلوخة — فان صحت هذه الدعوى من « العميدى » فماذا الذي بقى من اسم المتنبي الضخم ؟

أجل لقد بقى له فضل آخر لاينكره المؤلف المذكور فقد قال : « ولست — يعلم الله — أجحد فضل المتنبي وجودة شعره وصفاء طبعه وحلاوة كلامه وعذوبة ألفاظه ورشاقة نظمه » ولكنه بيّن بعد ذلك موضع الضعف فقال « ولا أنكر اهتداءه لاستكمال شروط الأخذ اذا لحظ المعنى البعيد لحظا ، واستيفاءه حدود الحذق اذا سلخ المعنى وكساه من عنده لفظا »

وأقرب ما نشبه به رأى العميدى ان المتنبي لم يكن « مهندسا » بل كان « بناء » لا يستطيع ان يخطط بنفسه وانما هو يبني على ما رسمه غيره من قبل الا انه بناء ماهر

---

(١) يقول الصاحب ابن عباد فى أديب انتحل شعره

سرقت شعري وغيري يضام فيه ويخدع
فسوف أجزيك صفعا يكد رأسا وأخدع
فسارق المال يقطع وسارق الشعر يصفع

بشهادة العميدى حيث يقول : « ولا أشك في حسن معرفته بحفظ التقسيم الذى يعلق بالقلب وقعه ، وايراد التجنيس الذى يملك النفس سمعه ، ولحاقه في أحكام الصنعة ببعض من سبقه ، وغوصه على ما يستصفى ماؤه ورونقه ، وسلامة كثير من أشعاره من الخطأ والخلل والزلل والدخل ، والنظام الفاحش الفاسد، والكلام الجامد البارد ، والزحاف القبيح المستبشع ، واللحن الظاهر المستشنع ، وأشهد انه عن درجة غيره غير نازل ولا واقع ، وأعترف انه مليح الشعر غير مدافع »

***

السرقة عند البيانيين

يخيل الى ان ألذ باب في البلاغة هو هذا الباب وما ذلك الا لأن السرقة لا تكون الا في المعانى الغالية النادرة .وفي هذا الباب نرى تدرج المعانى وترقيها فنجد المعنى القديم فى بداوته وخشونته وقد أخذه شاعر حديث هذبه قليلا ثم يأتى شاعر أحدث يزيد في تجميله وتحسينه وهكذا حتى كأننا نستعرض أدوار الارتقاء والتقدم فى الافكار الشعرية المهمة وننظر اليها وهى صاعدة تتخطى درج ذلك السلم حتى تصل الى ناصيته وقد كساها كل جيل ثوبا أبهى وأجمل

وهذا الباب على ما فيه من اللذة المطلع كثيراً ما يوحى الى النفس احكاما ظالمة وكثيراً ما حاد علماء البلاغة عند وضع قواعده عن جادة الانصاف حتى وصلوا فى مواضع الى التحكم الممقوت والاجحاف المعيب

واني أكتفى بمثال واحد هو (الالتقاط والتلفيق) جاء في الجزء الثانى من (العمدة) فى باب السرقة : « أما الالتقاط والتلفيق فمثل قول يزيد بن الطثرية :

اذا ما رآنى مقبلا غض طرفه ... كأن شعاع الشمس دونى يقابله

فأوله من قول جميل :

اذا ما رأونى طالعا من ثنية ... يقولون من هذا وقد عرفونى

ووسطه من قول جرير :

فغض الطرف انك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وعجزه من قول عنترة الطائي :

اذا أبصرتني أعـرضتَ عني كأن الشمس من حولي تدور»

أليس هذا حجراً على الناس في استعمال الالفاظ والتراكيب ؟

ربما يتبادر الى الذهن انى أبرر السرقة — كلا فانى أعتقد ان ذلك اللص الذى يخرج تحت جنح الظلام من خلال البيوت يتسور الجدران و يتخذ المفاتيح المصطنعة و يسلب أموال الناس ثم يعود بها الى مأواه و يجعلها لنفسه و يتمتع بها الى ما شاء الله — ليس أكبر جرماً ولا أعظم مسئولية من ذلك الاديب الذى يجلس بين الدفاتر والمحابر يسطو على ثمرة مجهود غيره و يلتقط من هنا ومن هناك يأخذ ملح هذا و ينهب طرائف ذاك و يسلب مبتدعات ذلك و ينتحلها كلها لنفسه و يطبعها بطابعه و يسجلها باسمه والله يعلم واولى العلم يشهدون بأنها دعوى عقيم تدعي ولدا

أما الرأى الخاص الذى أستنتجه فهو ان البحث في السرقة لم يكن ولا ينبغي ان يكون الا مباراة في الحفظ ورياضة عقلية وتنبيهاً للذاكرة كي تستحضر ما يتراكم في خزائنها من المعـانى وتحريضـاً للعقل على مقارنة الافكار بعضها ببعض — أما تلك الشحناء والمخاصمة وتحقير هذا وانكار فضل ذاك كل ذلك لا أراه من مرامي هـذا البحث الجليل (١)

---

(١) انى أشبه الناقد عندنا ـ (والنقد قد وقف عن الترقى والتقدم منذ مئات السنين) — أشبهه برجل يشرف من موضع استطلاع على بناء كبير ولا يبدى أي رأى عن ذلك البناء فلا يقول من أى طرز هو . وعلى أي طريقة بنى . وهل هو حسن التقسيم . متناسب الاجزاء . جميل الوضع . يؤدى الى الاغراض التى قصدت من تشييده الى غير ذلك من الاعتبارات التى تعد حكما كليا على الشيء في مجموعه — ولكنه ينتظر ريثما يصل الى ذلك البناء فيدقق النظر فى قطعة من الخشب أو الحديد يقول هذه مسروقة من منزل فلان ثم ينظر الي شباك فيقول هذا يشبه شباك فلان ولعله تقليد له الى غير ذلك من الملاحظات الجزئية التى لا

سرقات أبي الطيب من معاني أرسطو

لم يكتف بعض النقدة بادعاء السرقة على المتنبي من المعاني العربية كما فعل العميدي « المدعي العمومي ! » بل قال بعضهم ان أبا الطيب أخذ كثيراً من معاني اليونان في حكمه وأمثاله — ففي شرح العكبري :

« والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهو من كلام الحكيم : الظلم من طبع النفس وانما يصدها عن ذلك احدى علتين اما علة دينية او علة سياسية »(١)

وفي صبح الأعشى :

« واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

أخذه من قول ارسطاطاليس : اذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة »(٢)

ومن أهل الأدب من أحسن الظن بأبي الطيب في هذا الموضوع — وقد أشار الى ذلك جورجي زيدان فقد ورد في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية »(٣) :

« وأبو علي محمد بن حسن الحاتمي بيّن ما توارد من المعاني بين أبي الطيب وأرسطو ولم يتهم المتنبي بالسرقة بل قال : لما رأيت أبا الطيب قد أتى في شعره على أغراض فلسفية ومعان منطقية أردت الموافقة بين ما توارد به شعره مع أرسطو في حكمه لأنه ان كان ذلك عن فحص ونظر فقد أغرق في درس العلوم وان يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة في ذلك وهو في الحالين على غاية الفضل — ثم أورد بعض أقوال أرسطو وما يقابلها من أشعار المتنبي في نحو عشرين صحيفة اطلعنا عليها

يمكن ان يعرف منها شخصية الشيء بكماله وهل لصانعه فضل في عمله أم لا واني أخشى ان اسمي هذا التصرف قصراً في النظر

(١) التبيان ص ٣٦٠ ج — (٢) صبح الاعشى للقلقشندي طبعة مصر ص ٢٩١ ج ٢ — (٣) ص ٢٤٨ ج ٢

في كتاب اسمه « راشد سوريا » مطبوع في بيروت سنة ١٨٦٨ »

ولم أعثر على كتاب راشد سوريا ولكني عثرت على نفس المأخذ كما أظن وهو الرسالة الحاتمية التي أشرت اليها في صحيفة ١٣٥ من هذا الكتاب المطبوعة ضمن مجموعة الجوائب الموسومة بالتحفة البهية والطرفة الشهية(١)

***

توافق الخواطر

على ذكر أخذ المتنبي من معاني اليونان اعرض بعض الامثلة لا لقى الشك (وهو غاية ما أصل اليه) في أذهان المتشبعين بفكرة السرقة الواقفين تحت ظلال الالفاظ الذين اذا ما رأوا تشابهاً بين عبارتين صاحوا بملء أفواههم «سرقة ! اللص !» ولكن لا تلبث دعواهم ان تصبح « بلاغا كاذباً »

قال فيكتور هوجو فى قصيدته المشهورة : « بعد الموقعة » يصف جريحا فقال « Mort plus qu' à moitié » ويقابل هذا التعبير قول أبي الطيب (حتي رجعت « بنفس مات أ كثرها »)

فهل ينبغي فى هذا المقام ان نقول أن فيكتور هوجو الفرنسى الذى مات سنة ١٨٨٥ ميلادية قد سرق المعنى المتقدم من أبي الطيب العربي المتوفي في منتصف القرن الرابع الهجرى أى سنة ٩٦٥ ميلادية ؟ كان الواجب ان تقول ان الشاعر الفرنسى قد سرق ذلك المعنى من الشاعر العربي لأن هذا متقدم علي ذلك في الزمن ولان حركة الترجمة والنقل من اللغات الشرقية الى اللغات الأوروبية كانت عظيمة جداً في القرن الماضى حتى ان المستشرقين أحاطوا بكل دقائق الآداب والعلوم والفنون التى كان يحسبها الشرق انها ليست في متناول أحد غير أهله — هذه القرائن الضعيفة التى ذكرتها هى التى أباحت لمن ادعوا السرقة علي المتنبي ان يثبتوا انه سرق معانيه الحكمية من اليونان لأنهم متقدمون عليه في الزمن ولأن حركة النقل في عصره وقبل عصره كانت عظيمة

(١) الرسالة الحادية عشرة طبع القسطنطينية سنة ١٣٠٢

ان المثال الذى ضربته على معني واحد مشترك بين أبي الطيب وفيكتور هوجو ربما لا يكفي لاثبات السرقة ولكني سأذكر مثالا آخر نرى من خلاله كثيراً من معاني أبي الطيب وأفكاره الاساسية في شعر « الفريد ده فيني » A. de Vigny الشاعر الفرنسي المتوفي سنة ١٨٦٣ ميلادية

من غريب المصادفات ان يظهر في القرن التاسع عشر من الميلاد بين أهل فرنسا مهد المدنية الحديثة في الغرب رجل من بيوت المجد والشرف هو الفريد ده فيني يضرب على نغمة شاعرنا العربي أبي الطيب المتنبي ويشاركه في كل أفكاره الكبرى مع ان هذا الاخير قد تقدمه في الزمن بتسعمائة سنة ونشأ في بيت حقير وترعرع في البادية ثم عاش في وسط المدنية الشرقية في ظل حضارة تختلف من جميع وجوهها ومظاهرها عن حضارة الغرب

أجل من غريب المصادفات ان يتلاقى هذان الشاعران في مبادئهما الأساسية على ما بينهما من بعد المدى التاريخي وتنائي المنبت واختلاف المنشأ والحضارة واللسان

أول ما يتفق فيه الشاعران أنهما حكيمان والشاعر الحكيم قليل جداً في كافة الأمم لاختلاف مجال الشعر عن مجال الحكمة كما بينت في موضع آخر . وكما أننا لا نعرف من بين تلك الوجوه النضرة التي يفخر بها تاريخ آدابنا العربية الا أفراداً قليلين استطاعوا ان يؤلفوا بين هذين الفنين المتنافرين قد بزهم أبو الطيب وأحرز قصب السبق عليهم فكذلك الأدب الفرنسي لم يرزق في هذا الباب الا عدداً قليلا كان الفريد ده فيني حامل لوائهم وزعيمهم المشار اليه بالبنان

يقول الكاتب الكبير والناقد الشهير « اميل فاجيه » (١) عضو الاكادمية الفرنسية فى « أبحاثه الأدبية عن القرن التاسع عشر » عن أفكار ذلك الشاعر بأن النبوغ أو العبقرية هبة سامية ولكنها تسجن الانسان بين العظمة والعزلة والكآبة — ولم يقتصر الناقد على العبقرية وحدها ولكنه قال بأن كل عظمة أياً كانت فانها تخالف الطبيعة

(١) Emile Faguet-Etudes Littéraires. xix siècle, pp 132 et suiv.

ونحرم السعادة الخ . - أليست هذه الفكرة هى بعينها قول أبى الطيب

واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الاجسام

أو قوله

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

والمرحلة الثانية - على رأى فاجيه - حقده على الدنيا وعلي الأقدار وعلى المظالم التى يذهب فيها البرئ مع الجانى بل ان البرئ هو الذى ينال من العقاب أكثر مما ينال الأثيم . - وتلك هى أفكار أبى الطيب المنتثرة في ديوانه من أمثال قوله

فاضل الناس أعراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وقوله في موضع آخر

وحقد على الايام كالنار في الحشا ولكنه حقد الأسير على القد

والدرجة الثالثة كما يقول ذلك النقادة هى فكرة الجلد الذى قال به أصحاب الرواق من فلاسفة اليونان فقال ده فينيي شبه قولهم وعاب كل من يظهر الجزع والألم والبكاء وهذا هو رأى أبي الطيب حين يقول.

. . . . ومن شر السلاح الأدمع

واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخدك تقرع

يقول ده فينيي عن المرأة انها الطفل المريض وانها ملوثة بالادناس المضاعفة وانها خائنة غادرة الى غير ذلك من الصفات الممقوتة. وهذا أيضا رأى أبي الطيب في قوله

ومن خبر الغواني فالغواني ضياء في بواطنه ظلام

أو قوله

اذا غدرت حسناء وفّت بعهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد

والشاعران قد اتفقا على حب العزلة والهرب من شرور الناس واتفقا أيضا على سوء الظن بهم

كان يجب - على رأى أصحابنا - ان نقول حيال هذه الموافقات الغريبة بين الشاعرين بأن المتأخر قد أخذ عن المتقدم او سرق منه وتكون السرقة هنا أكبر

لأنها ليست في لفظ أو معنى بيت ولكنها في رأى بأكمله.ولكن الذين يعتقدون بأن « العقول الكبرى تتلاقى » كما يقول الفرنسيون يربؤون بأنفسهم عن مثل هذه التهم وينظرون الى أفكار كل شاعر بأنها له ولو انها تشابه أفكار غيره حتى ولو كانت هى هى بذاتها لأن توافق الخواطر واشتراك الناس في العواطف وغيرها مما لا سبيل الى انكاره

***

في كتاب « الوساطة » للجرجاني فصل مستفيض فى ما ادعى على أبي الطيب السرقة فيه (ص ١٦٧ ـ ٣٠٥) وهو بحث يشفي غلة طالب الأدب لما حواه من دقائق الاخذ والمقارنة بين المعاني المتقاربة . ولكني بهذا الفصل أشهد لأبي الطيب بسعة الاطلاع وفضيلة الصبر على انتقاء المعانى والتقاطها من أشعار المتقدمين ـ اذ كان قد فعل ذلك عمداً ـ انظر الى أسماء الشعراء المختلفين الذين وردوا في هذا الفصل وأخذ منهم أبو الطيب معانيهم . ندع المشهورين جانبا من أمثال البحترى وأبى تمام والنابغة الذبيانى والفرزدق والعباس بن الاحنف وأبى نواس وعنترة وغيرهم ونشير الى المجهولين أو الذين لا يعرفهم الا غواة الشعر : بكر النطاح ، محمد بن وهيب ، أحمد بن أبى فنن ، عروة بن عشبة الكلبي ، الجلاح ، عقيل بن غلفة ، عين بن مالك ، ابن المعذل ، شمعلة ابن قايد ، الخزين الدؤلى ، على بن الخليل ، علاقة بن عربى ، كعب بن الاجذم ، الابيرد ، ابن الناصر ، الخزيمى ، الاعور الشني ، المؤرج ابن عمر ، الحادرة ، عنترة بن الاخرس ، سويد بن أبى كاهل ، ابو جويرية العبدى ، أبو جبلة ، هدبة بن حشرج ، الجانى ، أبو بكر العرزمي ، خداش بن زهير ، حمزة بن بيض ، الطرمي ، سالم ابن وابصة ، مزرد ، أسحق بن خلف الخ ...

ان مدعى السرقة على أبي الطيب يجيؤون بأمثلة نرى فيها الاستشهاد متكلفاً أو لا محل له بالمرة : انظر بعض ماجاء في الوساطة « الطرمى فى رطازانه (أى خرافاته)

ورأسى مرفوع الى النجم كنما قفاى الى صلبي بخيط مخيّط

(كنما أى كأنما) ـ فتبعه بعض الرطازين

ورأسي مرفوع اليه كأنما　　برأسي مسمار الى النجم موتد

أبو الطيب وهو من فرائده

بعيدة ما بين الجفون كأنما　　عقدتم أعالي كل هدب بحاجب »(١)

مثال آخر ـ « دعبل :

هى النفس ما حسنته فمحسن　　لديها وما قبّحته فقبيح

أبو الطيب :

وما الخوف الا ما تخوّفه الفتي　　وما الأمن إلا ما رآه الفتي أمنا »(٢)

فانظر الي أى حد يبلغ تفتيش الادباء عن أوجه الشبه بين معاني الشعراء . فخصوم أبي الطيب يريدون منه ان يقول مالم يسبق اليه معني ولفظاً وأسلوبا . . . ـ وهذا علىّ رضى الله عنه يقول : « لولا ان الكلام يعاد لنفد »(٣)

من أجل ذلك أري ان الكلام في بابَ السرقة مما لا طائل تحته ، وسنري فى أسلوب أبي الطيب انه يأخذ المعاني المتداولة بين الجمهور وينفخ فيها من روحه ويكسوها ثوبا من عنده فتصبح أفكاراً جديدة تنسب اليه وينقلها الناس عنه ويستشهدون بها في كتاباتهم كأنها حكم وضعها أبو الطيب والحقيقة انها أفكار شائعة او كما يقول أهل الفقه ملك على الشيوع . . وأظنني بذلك قد أرضيت القائلين بالسرقة في شعر أبي الطيب ولكنني من جهة أخرى قد خالفتهم لأنى لا أرى لتهمتهم التى يرمون بها أبا الطيب وجها تحط من قدر الرجل او ينقص من كرامته لأن الافكار والخواطر والالفاظ والمعانى قدر مشترك بين الناس . وما أصدق الشاعر الجاهلي عنترة العبسى حين يقول « هل غادر الشعراء من متردم »؟ ـ وله الحق فى هذا التساؤل لأنهم لم يتركوا له معني ينظمه ـ ولو فتشنا دواوين كل الشعراء وحققنا نسب كل قول قاله أحدهم لرأينا ان غالب ما ورد فى شعره من المعانى قد ورد في شعر من تقدموه ـ وكما ان هذا القول يحكم به على الشعراء فكذلك يحكم به على الناثرين الا ان لكل ناظم أوناثر طريقة وأسلوبا ومميزات قل ان تصادف عند غيره من أهل فنه ومنها تظهر شخصيته

---

(١) ص ٢٨٧ (٢) ص ٢٩٧ (٣) العمدة ص ٥٧ ج ١ باب المحدثين والقدماء

وتتجلى أسرار صنعته

***

نثر أبي الطيب

نثر المتنبي قليل . فلا يعرف له الا بعض قطع صغيرة وغالبها كانت محادثات نقلت عنه في ظروف مختلفة ولم يشهر عنه انه كان كاتبا ولا انه راسل اوناظر أحداً من معاصريه الا ان ادعاء النبوة المنسوب اليه والقرآن المزعوم انه أنزل عليه مما يدعو الى الظن بأنه كتب في أيام صباه شيئا من النثر على طريقة « العبر » التي سبق الكلام عليها في ترجمته ومثل هذا النثر محادثته مع اللاذقي ، ونثره مسجوع تكثر فيه المقابلات كما سنرى ذلك في مميزات شعره — وقد تقدمت تلك الحادثة فى باب ادعاء النبوة

وروى له ابن خلكان خطاباً كتبه لأحد أصحابه : وها هي الفقرة التي ذكرها ذلك المترجم الشهير : « ولما كان بمصر مرض وكان له صديق يغشاه في علته فلما أبلّ انقطع عنه فكتب اليه « وصلتني ، وصلك الله ، معتلا ، وقطعتني مبلا . فان رأيت ان لا تحبب العلة اليّ ولا تكدر الصحة عليّ فعلت ان شاء الله تعالى »

من نثره أيضاً مخاطبته لأبي نصر محمد الجبلي التي أوردناها عند الكلام على مقتل المتنبي . وهي أشبه شيء بخطب الجاهليين فيها النعرة العربية او بعبارة أخرى الغرور الذى أدى الى هلاكه . وللشعراء والمتأدبين كلمات مأثورة ولكني لم أعثر على شيء منها للمتنبي اللهم الا ما رواه صاحب الصبح المنبي وهي كلمة موجزة ولكنها شعرية رقيقة : « حكي عبد العزيز بن يوسف الجرجاني وكان كاتب الانشاء عند عضد الدولة عظيم المنزلة منه قال لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه أتبعه بعض جلسائه وقال له سله كيف شاهد مجلسنا وأين الامراء الذين لقيهم منا قال فامتثلت أمره وجاريت المتنبي فى هذا الميدان وأطلت معه هذا القول فكان جوابه عن جميع ما سمعه مني ان قال « ما خدمت عيناى قلبي كاليوم » ولقد اختصر اللفظ وأطال المعني وأجاد فيه وكان ذلك أوكد الأسباب التى حظي بها عند عضد الدولة »(١)

(١) ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ج ١

الباب الرابع

تقسيم شعر ابي الطيب ودرسه

جزئيات الموضوع

نظر المتقدمين في التقسيم — رأي خاص — شعر وجداني وشعر وصفي وشعر حكمي —

(١) الشعر الوجداني : عموميات - (الغزل) - مواقف المتنبي فيه - حكمه وقواعده في العشق - تصوير العشاق - جمال المرأة - الكآبة والكبرياء (المراثي) - وجدان ضعيف - وصف وحكمه - خاتمة -

(٢) الشعر الوصفي : (الطبيعة) - مناظرها - حيوانها - الالوان والاضواء - (الحرب) - لوقائع - الخيل - الحركة والتمثل في الموصوفات -

(٣) الشعر الحكمي : الشعر والحكمة - مآخذه الفلسفية - العبر والامثال - الفاظ المناطقة والفلاسفة - الحكمة العملية - الاخلاق والنفس - ضرب الامثال وطريقته - صحيفة الاتهام - الشكوى - خطته في الحياة - حالات النفس —

تقسيم شعره

اعتاد الأدباء والنقاد ان يقسموا شعر من يريدون ان يتكلموا عنه الى الابواب المعروفة التي تسمى بفنون الشعر تلك الابواب التي كانت قليلة العدد في أول الامر حسب أقوال المتقدمين من أهل الأدب لاتخرج عن الوصف المديح والهجاء والفخر والتشبيب والرثاء . وبعض من لهم الكلمة المسموعة في الأدب يظنون ان الابواب الأصلية في الشعر أقل بكثير مما تقدم . وبعضهم يعد المديح والرثاء باباً واحداً خلا ان الاول يقال في الأحياء والثاني في الاموات(١)

ولقد اشتقت من هذه الأصول فروع عدة . فكلما تقدم الزمان ظهر باب جديد في الشعر لم يكن يعرف من قبل واجتهد النقاد في رده الى أحد الابواب الأصلية واستشهدوا عليه بأقوال الجاهليين . فزادت تقاسيم الشعر زيادة مستفيضة حتى عرفت أبواب جديدة تربو بكثير على الانواع القديمة . فمن ذلك الاعتذار والعتاب والتهاني

(١) العمدة ١١٧ ج ٢

والخمريات والزهريات والمداعبات والوصايا والحكم والزهد الى غير ذلك من التقاسيم التي بني أساسها في الحقيقة على الغرض الذى قيل فيه الشعر — وهذا الاساس الذى اعتمده المتأخرون هو نفس الاساس الذى وضعه المتقدمون وهذا محض تقليد من أولئك فانهم اتبعوا رأى هؤلاء بلا تصرف ولا اجتهاد. فالأولون والآخرون ينظرون في التقسيم الى الغرض او بعبارة أخرى الى الحامل الذى بعث الشاعر على القول فان كان يريد ان يمدح سمى شعره مدحا وان كان يريد ان يذم سمى شعره هجاء. ويعيب هذه الطريقة فى التقسيم انها غير ممدوحة وانها تتغير بتغير الزمان وتزداد من آن الى آن كأنها دفتر احصاء وانها كما يقول الاصوليون غير جامعة ولا مانعة

من أجل ذلك رأيت ان أقسم شعر أبي الطيب بحسب مافهمته الى أقسام ثلاثة :

القسم الأول — أبحث فيه عن شعره الصميم او « الشعرى » الذى أوحاه اليه شعوره وأملته عليه عواطفه . أقول العواطف بمعناها العام ولا أخوض في تقسيمها الى بسيطة ومركبة فان المقام لا ينفسح لهذا البحث — تلك العواطف قد يكون منها الأنانية وحب الذات ثم تترقي الى حب الأهل والاقربين والعشيرة والجنس فيصدر عنها الفخر وقد يكون منها الحب او توافق الشعور أو الانفعال الجنسي فيصدر عنها التشبيب والنسيب والغزل والمداعبات بأنواعها بين عفيف ومبتذل مما يجمعها باب النسائيات وغزل الذكور عند المتأخرين وهو وصمة من وصمات الشعر العربي — على ان شاعرنا والحمد لله قد سلم من هذا العيب الممقوت — وقد يكون من تلك العواطف الحقد والكراهة والبغضاء فيصدر عنها الهجاء وقد تكون تلك العواطف مختلفة جامعة بين طرفى الحب والبغض فيصدر عنها الاعتذار وقد تكون حزنا وكآبة فيصدر عنها الرثاء والشكوى وغير ذلك

هذا القسم أولى به ان يسمى وحى الخاطر الى الخاطر اوشعر الوجدان والعواطف أو حديث النفس لأن شعره نفسانى محض تجد فيه ترجمة ما تؤديه النفس الحساسة وهو ينم عن طبيعة تلك النفس وهو مقياس الحساسية فيها ولا يحتاج الى علم واسع ولا دراسة محققة ولا نظر دقيق ولا تفكر في الأمور مما تحتاج اليها أنواع أخرى من الشعر

هذا القسم هو لب الشعر وصميمه واليه تأوى الشاعرية وفيه تسكن ومنه تنبعث اسرار الشعراء وأحاديث قلوبهم وخطرات نفوسهم مما لايحويه حصر ولا يقيده ضابط من خيالات وأحلام وتصورات وأوهام غايتها الآمال الضاحكة والاماني الخادعة والوساوس السوداء والآلام القاتلة

أما النفوس الجامدة التي لاتحس ولا تتأثر بالمؤثرات المختلفة فلا تستطيع أن تجود بالشعر الحقيقي أو « الشعرى » كما سميته ولكنها تعطينا شعراً من نوع آخر قد يكون فيه نوع من الحسن سنعرض له عما قليل في بحثنا . وأما النفوس الحساسة فانها قادرة على الاجادة في هذا الصنف من الشعر على ان تلك الحساسية قد تكون قوية في باب من الابواب وضعيفة أو معدومة بالمرة في باب آخر . اضرب لذلك مثلا الشعراء الفرسان والشعراء العشاق فان الاولين قد تغلب فيهم عاطفة الغضب على ماسواها بخلاف الآخرين فان حساسية أنفسهم قد وجهت الى الحب وانصرفت عن غيره من العواطف . فهذا عنترة العبسى مثلا لا يستطيع ان يعطينا في شعره «الغضبي» مثل ما أعطانا العباس بن الاحنف من شعره « الغرامي » ولا يستطيع هذا ان يرد مورد صاحبه فكلاهما ذو حساسية قوية ولكنها منصرفة عند كل منهما الى جهة معينة

عرفنا من هذا ان حساسية النفس ركن لازم في الشعر ولكنها ليست الركن الوحيد اذ لابد لها من شريك هو الخيال وهو مادة هذا الشعر كما ان الحساسية هي روحه فان لم يجتمع هذان الركنان ظهر الشعر ضعيفا ذاويا أو بدا عليه شيء من السذاجة المذرية والحقارة التي تقضى عليه شر قضاء

أقول ان الشاعر لا يستطيع ان يكتفي بحديث نفسه ليبرز للناس شعراً خالداً تتداوله الامم والأجيال بل انه في حاجة كبرى الى مادة لا تنفد . تلك المادة هي كل ما عدا الشاعر من وسط وأقوام وحوادث ومعلومات وغير ذلك فهذه المادة هي قوام الشعر وهي الكفيلة ببقائه ولذلك فهي كلما كثرت واستطاع الشاعر ان يستخدمها في شعره ولم يقطع الصلة بينها و بين نفسه كلما جادت عليه بالمبدع والمغرب وفتحت أمام عينيه أسراراً مكنونة وعرفته أنواعاً من الجمال لا تنفد وكان شعره أضمن رواجا

وأطول بقاء وأفيد في المطالعة والمداولة وهذا الركن هو الذي يتطلب كثرة الاطلاع والاحاطة بمعلومات شتى من كل فن .

هـذا القسم من الشعر كان لأبي الطيب فيه نصيب وافر كما سنرى بعد حيث نبين حساسيته النفسية وجهة انصرافها وقوة خياله التي استطاع بها ان يؤلف بين فنون مختلفة متنافرة . ـ أقول ان نصيب أبي الطيب في هـذا القسم نصيب وافر في ذاته ولو انه قليل بالنسبة الى نصيبه من القسمين الآخرين

***

القسم الثاني ـ أبحث في هذا القسم عن شعر أبي الطيب « المادى » الذى لا دخل فيه لتأثر النفس وانفعالاتها .

هذا القسم يحوى ما يدركه الشاعر بنظره فيؤديه بقوله . وهذا هو باب الوصف الذى لا يجيد فيه الا من رزق استعداداً خاصا في ادراك المبصرات فيرى في النظرة العجلى صورة خارجية يجد لها من فوره ما يقابلها في خياله من الأمثال والنظائر فتنقاد له التشابيه الغريبة يستخرجها من ذهنه بلا مشقة ولا عناء لأن الصورة الخارجية قد أدركها الشاعر في لحظة قصيرة وقد وجد لها أشباهها ونظائرها فى خزائنه فما عليه الا ان يخرجها من ذهنه ويقابل بين الأصل والمثال فتجد الوصف صادقا شاملا لدقائق الموصوف وخصائصه مشفوعا بالتشابيه والصور التى تزيد في ايضاحه وتقريبه الى الافهام .

على ان هـذا الشعر لا ترتاح اليه النفس كثيراً وأحيانا تمل منه سريعا لأنه لا يخاطبها الا عرضا ولا يحادثها الا من بعيد فكأنها لا تسمعه الا من وراء حجاب .

قد يظن بعض الناس ان شعر الوصف في متناول كل من يطلبه فاذا جاء واصف بشئ بدع قالوا اننا نستطيع ان نأتى بمثله فاذا عالجوا هذا الصنف من الشعر لم يوفقوا الى الاجادة وذلك لأحد سببين : اما ان تكون أداة الادراك المبصرة غـير سليمة وليس لها ذلك الاستعداد الفطرى من كثرة الملاحظة مع سرعة التأثر والانفعال للالوان والاضواء والاشكال والحركات وغير ذلك واما ان تكون مادتهـم الخيالية ومجموعة ما في أذهانهم من الصور قاصرة على شئ نذر لا يكفى لتمثيل الموصوفات الخارجية .

كل المبصرين يرون السحاب والماء والشفق والجيوش وأنواع الحيوان ومناظر الكون المختلفة وغير ذلك من المبصرات ولكنهم لا يدركونها كما يدركها الوصافون لأنهم في الغالب لا يكلفون أنفسهم مشقة التدقيق فيها للوقوف على أسرار أشكالها وألوانها وحركاتها ولو حاولوا ذلك فانهم لا يصلون الى شيء يستحق الذكر لأنهم لم يخلقوا له ولم يرزقوا تلك الهبة النادرة.

ولست في حاجة الي الكلام على وصف مدركات الشم والذوق واللمس لعدم توفر شاعرنا على قسط منه ولكني سأعرض فيما بعد انوع من الشعر ترتاح اليه الاذن وبالجملة فالشاعر الوصاف مصور من هذه الوجهة محتاج لا محالة الى عين سليمة — بالمعنى الذى قدمته — لا بالمعنى الطبي بالطبع — ويحق لى فى هذا المقام ان أنبه على مغالطة بشار بن برد « الضرير » حين زعم من طريق الاستفهام الانكاري انه وصاف :

عجبت فطمة من نعتى لها … هل يجيد النعت مكفوف البصر
بنت عشر وثلاث قسمت … بين غصن وكثيب وقمر
أيها النوام هبوا ويحكم … واسألونى اليوم ما طعم السهر

فهذا ليس من الوصف الحقيقي في شيء وانما هو نوع من الشعر الوجدانى جاء فيه الشاعر بنعت مبهم غامض لا يخرج عن تشبيه مشهور يجرى على كافة الألسنة .

فالوصاف لا بد وان يكون قد خلق مصوراً ولكن هذا الاستعداد لم يخرج الى حيز الوجود وقبر فى نفس الشاعر علي ان يظهر في الشعر كلما جاءت مناسبة تستدعيه.

ولأبي الطيب في هذا القسم الثاني من الشعر نصيب أوفر من نصيبه فى القسم الأول ولكنه يعدل نصيبه في القسم الثالث .

***

القسم الثالث — وهو الأخير وأبحث فيه عن الشعر الذى أملاه عليه عقله وتفكيره فيما يتعلق بالحكم والتجارب وقواعد هداية النفس ومبادئ الحياة في هذه الدنيا وما وراءها وأصول السياسة وطرق النقد والاصلاح وما شابه ذلك من الاغراض التى يحتاج فيها القائل الى اجهاد منطقي وعناء فكرى ، ذلك هو الشعر « الفلسفى »

وهـذا القسم ليس في الحقيقة من لباب الشعر بل ان بينه و بين الشـعر الصميم هاوية لا يسبر غورها لأن أحدهما جد محض بطبيعته والآخر هزل محض بطبيعته .
ولكن القالب الشعري ، ـ ولا ينبغي ان نستهين بتأثير هذا القالب في النفس ـ هو الذى رفع هذا الجد الى منزلة الهزل أعني انه روج الحكمة الخاملة الذكر الخشنة الملمس المرة المذاق وجعلها تسير مسير الشعر رشيقة خلابة أخاذة .

وفي هذا القسم كان لأبى الطيب النصيب الأوفر والقدح المعلى قدراً ومقداراً حتى عرفته الأجيال الماضـية وستعرفه الاجيال المقبلة بأنه الشاعر الحكيم وقد يرجح شعره في هـذا القسم على مجموع ما قاله شعراء عديدون عرفوا بالانكباب على هـذا الضرب من الشعر بين جاهليين واسلاميين ومخضرمين ومحدثين .

هـذه هى الاقسام الثلاثة التى عزمت على درس شعر أبي الطيب على مقتضاها وبحسب ترتيبها ـ

القسم الأول

الشعر الصميم (الوجدانى)

سمّ هذا القسم شعر العواطف والوجدان او حديث النفس الى النفس او وحى الخاطر الى الخاطر او مهبط الشاعرية او الشعر الحساس او سمه كما تشاء مادمنا قد اتفقنا على معناه وطبيعته ومصدره

***

الشاعرية

عرفنا مما تقدم في ترجمة أبي الطيب أنه طرق باب الشعر وتعاطى هذه الصناعة بعد ان تأدب وتعلم وتلقى اللغة من أفواه البدو والعارفين بها من أهل الحضر و بعد ان تردد على أسواق الوراقين وانكب على الحفظ ليلا ونهاراً وروى شعر ابن الرومي واتخذ أبا تمام إماماً بخلاف الكثيرين ممن وصلوا الى التبريز في الشعر والابداع فيه سليقة وسجية وفطرة دون ان يحفلوا بمناقشات النحويين او يكلفوا أنفسهمّ مشقة الاطلاع

على مباحثات البيانيين وكان كثير منهم من الأميين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون. فكان شعرهم أقرب الى السلامة وأبعد عن الغموض وأسلم من التعقيد وأولى باقبال الجمهور واستحسانه ذلك لأنه شعر أملته عليهم عواطفهم الحساسة. ولم يتصدوا فيه الى تعمق في العلم او تفوق على نظراء مادتهم فقه اللغة او ما شا كلها . من أجل ذلك خلت أشعارهم من تلك الاشارات الخفية ورموز الاصطلاحات وغريب المنقول وشاذ اللغة الى غير ذلك من المسائل التي لا يفطن لها الا أهل الصناعة و يضطر السامع في تفهمها الى اعمال فكره واجهاد عقله .

وللعامة والاطفال والنساء أقوال يترقرق فيها ماء الشاعرية ولولا أنها ليست من البحور العربية وانها غير خاضعة للقواعد النحوية لكانت من أرق الشعر وأروجه. تسمع في الطرقات والبيوت الى أنواع كثيرة من الغناء والاناشيد وما يلقيه النساء في الجنائز من الاقوال المرجمة وغير المرجمة وما تترنم به الامهات في مداعبة أطفالهن فانك تسمع كلاما يكون تارة منظوماً أو مسجوعاً وتارة غير موزون ولا مسجوع لو وفق شاعر ذو حساسية قوية لجمعه وتهذيبه لأخرج منه ديواناً حافلا بالشعر الحقيقي أي شعر العواطف والوجدان

سئل حماد الراوية عن شعر عمر بن أبي ربيعة فقال: «ذلك الفستق المقشر»(١) هذا حكم عادل فى حق ذلك الشاعر وأمثاله . لأن شعرهم لا يروى الا على سبيل التفكه كما تتناول الفاكهة بعد الطعام وهو لا يغذى الفكر ولا يملأ المخ ولا يجد فيه طالب الأدب الا استراحة قليلة عقب المجهودات العقلية . نعم انه صنف واحد لذيذ الطعم سهل التناول ولكنه لا يكفى لغذاء الروح المتشوقة الى المعرفة — ولو جاز لى ان أحكم على شعر أبي الطيب كما حكم حماد الراوية على شعر عمر بن أبي ربيعة لقلت انه « مائدة كاملة » وما أحق تلك المائدة بوصف السيد توفيق البكرى في فنزجه(٢)

---

(١) ص ٤٩ ج ١ « رنات المثالث والمثاني في روايات الاغاني »

(٢) الفنزج : البالو — أنظر صهاريج اللؤلؤ ص ٤٨

حيث ابتدأ احدى فقراته بقوله « .... سماط المعز في قاعة الذهب، وجفنة ابن جدعان في العرب » وانتهى منها بقوله « موائد لا يفنى ما عليها ولا ينفذ ، كأنه نعيم أهل الجنة كلما فني تجدّد ».

واني أشبه الشاعرية — وهي تلك الحساسية النفسية وانفعال العواطف — برخامة الصوت فى المغنين — فكما ان جمال الصوت وحده لا يكسب صاحبه درجة الاجادة في الغناء فكذلك لا تكفي الشاعرية وحدها للنبوغ في الشعر و بقاء ذكرى الشاعر على مدى الايام وتداول شعره بين الناس وتنقله بين الاسماع والافواه .

لو أردنا ان نعقد المقارنة في الشاعرية وحدها بين عمر بن أبي ربيعة والمتنبي لرجحت كفة عمر على كفة أبي الطيب لأن الأول شاعر بلا وصف آخر — فجهده محصور في تنمية الشاعرية فى نفسه واستخراج ما تخترعه له من الأبواب المشهورة عند الجمهور . أما أبو الطيب فليس كذلك لأن فكره مقسم بين مطالب شتى وأغراض عدة فهو على الدوام فى حيرة بين شواذ النحو وغريب اللغة ومستغلق الاعراب ودخيل المعاني الحكمية والاساليب البيانية وتصوير الاخلاق وتحليل الحالات النفسية الى غير ذلك من المطالب والاغراض وهو وان ضعفت فيه الشاعرية وجمدت فيه الروح الحساسة الى حد معلوم لأنه لم ينقطع لها ولأنه اشتغل بغيرها الا انه قد قوي في نفسه ملكات أخرى رجحت شعره في مجموعه على شعر كثير من الفحول المعدودين وضمنت له البقاء الى ما شاء الله .

أجل ان أمثال عمر بن أبي ربيعة قد أسرفوا في احتجابهم داخل نفوسهم بحيث لا يرون غيرها مما في هذا الوجود . فالمطالع على شعرهم يمل هذا النوع الوحيد من القول فيزهد فيه سريعاً كأنه يسمع غناء موقعاً على نغمة واحدة و يحس من نفسه الاشتياق الى أنواع أخرى يتنقل بينها — فمادة الخيال فى هذا الشعر قليلة ومجاله ضيق واذا تكرر وقعه في النفس شعرت بخلوه من تنوع الفوائد المطلوبة : (١)

ومن هذا النوع شعر النساء في جملته . نغمة واحدة وصوت واحد مهما كثر الشعر،

(١) راجع كتاب اميل فاجيه المتقدم ذكره (ص ٢٦٥ وما بعدها)

ومن هنا تظهر الحكمة — على ما أظن — في عدم تداول شعر النساء وبقائه على مدى الايام مع ان شعرهن أعرق في الشاعرية من شعر الرجل وأقرب منها رحماً لامتيازهن بتلك الحساسية من جهة ، ومن جهة أخرى لأنهن ينمين في أنفسهن ملكة التخيل أكثر مما يربين قوة التفكير — وبالجملة فانهن خلقن شواعر .

وبهذا الدليل — الذي جاء عرضا — أخالني قد أزلت بعض ما عاق بأفكار أنصار المرأة من الشكوك والريب عن ظلم الرجل لها حقها في الشعر . لأن حجة هؤلاء المستنصرين للنساء ان الرجال قد افتاتوا على حقوق النساء وظلموهن أيما ظلم وأنكروا عليهن كل فضل حتى تفوقهن في الشعر ولم يروجوا شعرهن كما روجوا شعر الرجال . والحق ان شعر النساء على ما فيه من الروح الرقيقة ليس فيه من قابلية الحياة والتزاحم ما في شعر الرجال — وقد وصفهن الكتاب العزيز بقوله « أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » — والحياة كلها تزاحم وتسابق — وهن « قوارير » كما قال الرسول الامين وشعرهن من هذا النوع أيضاً . فاذا دخل شعرهن الى ميدان التزاحم مع شعر الرجال حق عليه قول بشار بن برد « قوارير حجام غداً تتكسر » . — ولقد كان أبو الطيب أكثر الشعراء رجولة في شعره فلا عجب ان تغلب شعره الذكر على أشعار المؤنثين

***

أما الحساسية الشعرية في اقوال أبي الطيب فما لا يستطيع أحد ممن ضربوا في هذا الفن بسهم ان ينكرها عليه — وانما غاية ما يقال أنها لا تصادف كثيراً في شعره وهي في الغالب أينما وجدت زاحمتها الصنعة وكان للتفكير العقلي نصيب وافر بجانبها — فلا تظهر في الشعر تلك الروعة التي تؤثر دفعة واحدة في العواطف قبل ان يستيقظ العقل وينكر وتفعل في القلب فعلها قبضاً وبسطا حتى تدعه وهو كالعصفور يثب في قفصه حيران مضطربا .

أجاد أبو الطيب في أبواب شتى من الشعر وانفرد بفنون قل ان يزاحمه فيها مزاحم ولكنه في باب الحساسية النفسية لا يستطيع ان يعطينا مثل ما أعطانا في الابواب الاخرى

والسبب في احتجاب الحساسية عن شاعرنا ونفورها منه ان المصادفات لم ترم به في المواقف التي تبعث على ايقاظ هذه الروح حتى كاد طبعه ان يتحجر ولا يتقبل التأثرات لكي يستطيع ان يؤديها في شعره بنفس القوة التي اندفعت بها الى قلبه — ويظهر أنه اعترف بهذا الجمود حين قال :

أصخرة أنا ؟ مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الاغاريد ؟

هذه أشعاره في الغزل والرثاء مثلا — والحساسية في هذين البابين أظهر فيهما من غيرهما — فاننا لا نجد روحه الشعرية أو عواطفه فيهما الا ضعيفة متكلفة والا نافرة مستعصية ولولا قوة تفكير الشاعر واتقان صنعته ومهارته في التأليف لما بقي لكثير من أشعاره في هذين الفنين رونق ولا ديباجة — لانه حينما ينبغي أن يحادث العواطف تجده يخاطب العقل المفكر فيغيب عنه الشعر الوجداني.

قدمنا ان وجدانه لا يهيج الا في مواضع معلومة — ولكل شاعر ما يهيج به وجدانه — قال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سمية «هل تقول الآن شعراً ؟ قال ما أشرب ، ولا أطرب ، ولا أغضب ، ولست أقول الشعر الا بواحدة من هذه » (١)

ان شاعرنا لا يتحرك للشراب ولا للغناء ولا يكاد يعرف الحب ولا يحن الى الاوطان النائية ولا يبكي على عزيز مضى ولكنه يعرف فنونا اخرى . إنه كالوحش الضاري اذا اثرت غضبه . فاغضبه ان شئت ثم انظر اليه كيف يجيد القول ، أحزنه بالحرمان ثم دعه يشعر ، أخر عنه العطاء ثم استمع لشكواه ، عده الولاية وتغافل عنه قليلا ثم أتركه يلهب غيظ على الزمن ، ثم انظر اليه وقد تولته الكآبة واخذت عليه جميع المسالك فيزهد في الدنيا ثم لا يلبث ان يبرق له بارق الامل فيفيض في استعطافك ، ثم يستريبك في وعدك فيصب عليك نقماته صباً

وفي هذا الباب سأقتصر على الغزل والرثاء وسأشير في خلال البحث الى فنون الشعر التي ظهر فيها وجدان أبي الطيب كلما جاءت المناسبة

---

(١) مجلة « أنس الجليس » ح ٦ سنة ٤ « ١٩٠١ » : الشعر العصري لاحمد محرم

الغزل (١)

يلاحظ على مواقف الغزل في شعر المتنبي أربع ملاحظات :

الاولى ان غالب مواقفه مع النساء انما هي مواقف فراق وتوديع ـ الثانية ان

(١) ان شاعر الغزل او كل من يكتب في هذا الباب لا بد وان يفتات على الحياء بصورة ما — نعم ان حديث اللهو بالنساء وذكر محاسنهن والأخذ والرد معهن وما يكون من اعترافاتهن أو اعترافات الغير لهن وبالجملة كلما يسمى غزلا سواء كان عفيفاً أو غير عفيف — كل ذلك يدعو الشاعر او الكاتب اوّ الناقد لأن يتجرد عن نفسه الحيية ويخلع العذار كما يقولون

الا ان المتأدبين يتكلمون في الغزل كما يتكلمون عن أي أمر عادي لادخل فيه للخلق يتكلمون عنه كما يتكلمون عن ثمن الملابس مثلا ويتناقشون في المعنى الغزلي كما يتناقشون في نص فقهي سواء بسواء —

وليس شأن الغزلي هنا بأعجب من شأن الجراح مثلا . ألا تراه يشمر عن ساعديه ويشق بمديته جثث الأموات وأجساد الاحياء لا ينبض له عرق من الخوف أو الاشفاق كأنه يعبث بما يتلهى به الناس — فهل تراه في موقفه دليلا على ان عمله في ذاته ليس مما يثير العواطف ويوقع الرعب في القلوب .

أنظر اليه يوم انضم الى أهل هذه الصناعة وأخذ يتلقى فنونها . لقد كان مثل كل واحد من جمهور الناس اذا ألقى ببصره الى تلك المناظر المخيفة لا يلبث ان تضطرب أحشاؤه فلا يسيغ طعاماً ولا شراباً مدة من الزمان ويرى الاحلام والرؤى المفزعة في نومه ولكنه مع الزمن يطمئن شيئاً فشيئاً الى صناعته ويروض نفسه عليها قليلا قليلا فيعتادها بالتدريج بعد ان كان يأنف منها ويستثقل ظلها وينال منه الرعب كلما فكر فيها ـ فالعمل في ذاته مريع الا انه تعوده فجمدت نفسه بحكم العادة او بحكم الضرورة .

وكذلك الغزل فانه في ذاته مدعاة للخجل في أول أمره ـ أنظر الى المبتدئين في الأدب كيف يخفون في ثنايا ثيابهم ما يختارون من الاقوال الغزلية . فاذا فاجأتهم وهم يتناقلونها بدا عليهم الاضطراب كأنهم يرتكبون جرماً . ولكنهم

تلك المواقف تصادف ساعات الرحيل ـ الثالثة ان رحيل تلك المحبوبات لايكون الا علي العيس كأنهن ينوين سفراً بعيداً الى ما وراء البيد والقفار ـ الرابعة ان هواه لا يصيب الااعرابيات والبدويات ـ وقد يجمع أحيانا بين بعض هذه الحالات : ـ (١)

قد كنت نهزأ بالفراق مجانة   ونجر ذيلى شرة وعرام.
ليس القباب على الركاب وانما   هن الحيـاة ترحلت بسلام

كلما زادوا في الدرس زادت فيهم الجرأة على الاقبال على مثل هـذه المعانى وتقليدها وابتكار ما يفوقها حتى ينالوا درجة الاجادة والاتقان .

أما أثر ذلك الفن في النفوس من وجهة الاخلاق فهو مما يجب ان أستأنس في اثباته بأحكام ذوي الكلمة المسموعة في الادب .

- لا أظن ان امرأ القيس سمي بالملك « الضليل » الا من جراء هـذا الفن . وقـد قيل عن شعر عمرو بن أبي ربيعة « مادخل على العواتق في حجالهن شئ أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة ـ وقيل « لا ترووا فتياتكم شعر عمر ابن أبي ربيعة لا يتورطوا في الزنا تورطاً » وقيل عن شعر بشار بن برد « ما شئ أدعى لأهل هذه المدينة الى الفسق من أشعار هذا الاعمى »

(١) أمثلة أخرى :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا   فلم أدر أى الظاعنين أودع
أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس   تسيل من الآماق والسم أدمع
(السم بمعنى الاسم)

لما تقطعت الحمول تقطعت   نفسى أسى وكأنهن طلوح
وجلا الوداع عن الحبيب محاسناً   حسن العزاء وقد جلين قبيح

وتوقدت أنفاسنا حتى لقد   أشفقت تحترق العواذل بيننا
أفدي المودعة التى أودعتها   نظراً فرادي بين زفرات ثنا

في الخد ان عزم الخليط رحيلا   مطر تزيد به الخدود محولا
يانظرة نفت الرقاد وغادرت   في حد قلبي ما حييت فلولا

ولم أر كالالحاظ يوم رحيلهم بعثن بكل القتل في كل مشفق
أدرن عيونا حائرات كأنها مركبة أحداقها فوق زئبق
عشية يعدونا عن النظر البكا وعن لذة التوديع خوف التفرق

رعى الله عيسا فارقتنا وفوقها مها كلها يولى بجفنيه خده
بواد به ما بالقلوب كأنه وقد رحلوا جيد تناثر عقده
اذا سارت الاحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده
وحال كأحداهن رمت بلوغها ومن دونها غول الطريق وبعده

سوائر ربما سارت هوادجها منيعة بين مطعون ومضروب
وربما وخدت أيدي المطى بها على نجيع من الفرسان مصبوب

أتظعن يا قلب مع من ظعن ؟ حبيبين ؟ اندب نفسى اذن !

ليالى بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل
يبن لى البدر الذي لا أريده ويخفين بدراً ما اليه وصول
وما عشت من بعد الأحبة سلوة ولكنني للنائبات حمول
وان رحيلا واحداً حال بيننا وفي الموت من بعد الرحيل رحيل

تنفست عن وفاء غير منصدع يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

ان كنت ظاعنة فان مدامعي تكفى مزادكم وتروى العيدا

لقيننا والحمول سائرة وهن در فذبن أمواها
كل مهاة كأن مقلتها تقول اياكم واياها
فيهن من تقطر السيوف دما اذا لسان المحب سماها

يا حادبي عيرها واحسبني اوجد ميتا قبيل افقدها
قفا قليلا بها على فلا أقل من نظرة أزودها!
ففى فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ما أوجه الحضر المستحسنات به　　كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية　　وفى البداوة حسن غير مجلوب

والمستقصى لما قدمت من الامثلة لا يسعه الا ان يستنتج أحد فرضين : اما ان يكون الشاعر قد أراد بقوله هذا أن يعبر عن ذكري حقيقة أثرت فى نفسه أثراً بليغاً ولم تنتزعها الايام من مخيلته، ولعلها ذكرى حادثة مهمة في حياة الشاعر، فهو كلما أراد أن يشبب بالنساء تمثلت له تلك الحادثة فيصفها كما وقعت وكما رآها — هذا فرض مقبول، معقول الا ان الدليل النقلى التاريخى ينقصنا فلا نستطيع اثباته وترجيحه وغاية مافي الأمر انه جائز محتمل الصحة . — الفرض الثاني ان تلك الأقوال متخيلة لا حقيقة لها وانما هي أثر ما بقى فى نفس الشاعر من طبعه البدوى وما نقش في ذهنه من صور البيداء وما يقع في نواحيها — فاذا ما تخيل لم يتمثل أمام عينيه الا ما انطبع فى ذاكرته من المناظر الاولي فأقواله انما تنم عن فطرته وطبعه وأمياله وذوقه الاول وما اكتسبه في حياته الاولي

ولو صح هذا الفرض لكان أبو الطيب بقى على غريزية البدوية على الرغم من تحضره ولم يزل متمسكا بعصبيته الفطرية للعربية والبداوة — هذا وانى لم أعثر فى شعر المتنبي الا علي اسمين من اسماء النساء وهما « جمل » و « ريّا » وكلاهما بدوى صميم لم يعرف أبو الطيب باللهو والمجون ولم يذكر له فى تاريخه حوادث نسائية من أمثال

بالواخدات وحاديها وبى قمراً　　يظل من وخدها في الخدر غشيانا
قد كنت أشفق من دمعي على بصري　　فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

عدوية بدوية من دونها　　سلب النفوس ونار حرب توقد

هام الفؤاد باعرابية سكنت　　بيتا من القلب لم تمدد له طنبا

في مقلتى رشأ تديرهما　　بدوية فتنت بها الحلل

من الجآذر في زي الاعاريب　　حمر الحلى والمطايا والجلابيب
كم زورة لك في الأعراب خافية　　أدهي وقد رقدوا من زورة الذيب؟
أزورهم وسواد الليل يشفع لي　　وانثنى وبياض الصبح يغري بي

ماذكر للشعراء العشاق والغزليين والمجانين بل كانت حياته كلها من أولها الي آخرها سلسلة مجاهدات يرجو من ورائها ان يرضى مطامعه التي لا تقف عند حد . من أجل ذلك شغل عن النساء واللهو بهن بما هو أكبر وأشق كما أن حوادث الدهر وتقلبات الزمن ـ في نظره ـ قد أخذت عليه المسالك ولم تترك له من نفسه ما يلبي به نداء الحب اذا دعاه . وقد أصاب في الحكم على نفسه حين قال

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدى   شيئاً تتيمه عين ولا جيد

فلا غرابة اذاً ان رأى الناقد قلة شعر أبي الطيب في باب النسائيات بالنسبة لوفرته في أبواب أخرى وكذلك روحه في الغزل فانها روح ضئيلة غير حساسة قليلة الانفعال ضنينة بالشكوى والاعتراف لا تفضى الى الشعر بسرها حتي كأن لا سر لها تفضى به الي أحد ـ والمطلع علي شعره لا يعثر فيه علي قدر كبير مما يعد فى الحقيقة من صميم الحب وبابه كلواعج العشق المبرحة والتعبير عن الوله الذي يستولى على قلب المغرم فيسد فى وجهه الطرق و يضله ضلالا بعيداً : ـ وما أحكم أبا الطيب وأبعد نظره حين يقول تعريضا بالحب المتصنع في شعر زملائه الذين يبدؤون قصائدهم بالغزل:

اذا كان مدح فالنسيب المقدم !   أكل فصيح قال شعراً متيم ؟

فالحقيقة ان شعر المتيمين آثر في النفس من شعر الفصحاء مهما اجتهد هؤلاء في اتقان الصنعة ومهما تبسط اولئك في ابداء ما تكنه نفوسهم . ـ ولا عجب في ذلك فمن لم يعرف تلك الحالات التى تنتاب الموهين لا يستطيع أن يؤديها و ينقلها الى غيره . ولقد ألم رجال الجدل والمناظرة عندنا بهذا المعني في قولهم الموجز «فاقد الشيء لا يعطيه» فالفقير مثلا لا يعطيك غني والجاهل لا يعطيك علما

أضف الى ما تقدم أن أبا الطيب سيء الظن بالنساء قد حكم عليهن احكاما قاسية من أجل ذلك كان شعر أبي الطيب فى النوع الذى أشرت اليه قليلا لا يشفى الغلة فلا تطمع عند قراءة ديوانه أن تقع على شيء كبير من محادثة النساء أو مداعبتهن أو حكاية ماوقع له معهن الى غير ذلك مما تعثر على كثير منه في مثل أشعار امرىء القيس وعمر ابن أبى ربيعة وأبى نواس والعباس بن الاحنف ممن اذا ذكروا لا يخطر

بالبال الا وقائع اللهو وحوادث النساء وما شابهها — ولقد أفصح المتنبي عن مكنون ضميره وكشف عن قلبه في مسألة النساء وحظه منهن فقال

ولِلخود مني ساعة ثم بيننا فلاة الى غير اللقاء تجاب
وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لاطراف القنا كل شهوة فليس لنا الا بهن لعاب

انه لا يعرف كيف يحادث النساء محادثة العشاق المغرمين وانما تراه يخاطب المرأة بشدة وعنف وغلظة وكبرياء فلا يقول كما قال جميل

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

انظر اليه وقد ابتدأ قصيدته يخاطب عاذلته قائلا : «أيتها المجنونة .. أيتها الجاهلة الحمقاء..»

كدعواكِ كل يدعي صحة العقل ! ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل ؟

فما هذا من خلق المجاملة مع النساء ولا من آداب المحادثة مع الجنس الذى لقبه العصريون باللطيف. . . وقال في مطلع قصيدة أخرى يفضل الجياد على النساء

ألا كل ماشية الخيزلي فدى كل ماشية الهيذبى

وفي قصيدة أخرى يدعو على الحسان بدل الدعاء لهن :

أيا خدَّد الله ورد الخدود وقدَّ قدود الحسان القدود

وموضع الغرابة ان هذه الابيات التى استشهد بها قد جاءت كلها في مطالع قصائده وهو فى هذا أشبه بالسوقة والرعاع الذين اذا تفاتموا أو تمازحوا فيما بينهم تنابذوا بالالقاب وتراشقوا بالسباب وتبادلوا شتم الآباء ولعن الاجداد، هذا ان لم يتجاوز تبسطهم ورفع الكلفة بينهم لطم الوجوه وصفع الاقفية كأنهم المعنيون بقول الشاعر القديم « تحية بينهم ضرب وجيع »

واذا أراد ابو الطيب أن يقلد الغزليين خرج الي غير المألوف وأخذت منه الصراحة مأخذاً لا يتفق مع كرامة الحكماء أمثاله فذكرنا بجبالى امرئ القيس ومرضعاته — أنظر الى أقواله

انى على شغفي بما في خُمُرها لاعف عما في سراويلاتها

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع اذا لحت حاضت في الخدور العواتق

يضمه المسك ضم المستهام به حتى تصير على الاعكان أعكانا

عد واعدها فخبذا تلف الصق ثديي بثديها الناهد

أنأيته فدنا ، أدنيته فنأي جمشته فنبا ، قبلته فأبى

فمثل هذه الاقوال تتعدي حدود الغزل العفيف والنسيب الظريف وان جاز ان تدور مثل هذه الافكار في خلد الانسان فان الحياء لا يسمح بخروجها من حيز الهواجس النفسانية الى مجال التصريح والبيان(١)

***

انه لا يستطيع ان يقول للمرأة في التذلل اليها ماقاله لسيف الدولة في مواطن كثيرة — انظر اليه وهو يعتذر الى أميره وقد استبطأ مدحه وتنكر لذلك

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا

تركتني اليوم في خجلة أموت مراراً وأحيا مرارا

أسارقك اللحظ مستحيياً وأزجر في الخيل مهري سرارا

وأعلم أني اذا ما اعتذر ت اليك أراد اعتذاري اعتذارا

---

(١) على أن بعض أهل الادب عندنا يقرون هذه الاباحة ويرون ان الكاتب أو الشاعر في حل من الاعتراف بكل ماتوحيه اليه نفسه ويرخصون له بابداء كل مايخطر له من الافكار لاسيما اذا كانت وصفا للحقيقة غير مبالين بما تهتكه هذه الحقيقة المصورة من ستر الحياء . — هذا مبدأ (الرياليسم) عند كتاب الغربيين . — أما جمهور المتأدبين في كل بلاد الارض مهما اختلفت السنتهم والوانهم فانهم يأخذون على الشعراء والادباء خروجهم على الفضائل بهذا الضرب من البيان ويكتفون في باب اللهو والنسائيات وما شابه ذلك بالتلميح دون التصريح لان الأديب الماهر لايتعذر عليه أن يؤدى بلفظ ظريف أى معنى يندى له جبين العفة

يا أعدل النـاس الا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقد اسـتطاع ان يقول لكافور ، لعبد الأسود ، الخنثي ، الأمة ، الحبلي ، المشوه الخلقة ، المشقق الأقدام كما يدعي :

أنت الحبيب ولكنى أعـوذ به من ان أكون محباً غير محبوب

. . . .

يارجاء العيـون فى كل أرض لم يكن غير ان أراك رجائى

ولقد أفنت المفاوز خيلي قبل ن نلتقي وزادى ومائى

. . . .

وما أنا بالبـاغي على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثواب

اذا نلت منك الودّ فالمـال هين وكل الذى فوق الـتراب تراب

وما كـت لولا انتَ الا مهـاجراً له كل يوم بلدة وصحاب

ولكنك الدنيا اليّ حبيبة فما عنك لى الا اليك ذهاب

فالذى يجيد مثل هذه الاجادة في التقرب الى الرجال واستعطافهم لا يتعذر عليه ان ينسج على نفس المنوال في استمالة النساء . ولكن وقد عرفنا شأنه معهن وأمله فيهن وانصرافه عنهن فقد أدركنا سر قصوره فى باب الغزل . — ان موقفه مع المرأة موقف متصنع كاذب . فؤاده غير مشغول بخوف ولا أمل ، ولا كبده حرى من هجر ولا قلى . — أما موقفه من سيف الدولة — أو كافور — حيال قطيعته اياه وغض طرفه عنه فهو الحقيقة التى لا يستطيع أبو الطيب ان يهرب من أمامها وهى التي أخذت من نفسه كل مأخذ وتحكمت في شعوره ووخزت ضميره وخزاً أليماً حتي رأى نفسه وكأنه على حافة الهاوية فاما الحياة ان استرجع مكانته عنده أميره واما الموت ان قصر في مهمته . ذلك هو الموقف الذى يجيد فيه الشاعر المحب وهو بين الخوف والرجاء يتنازعه اليأس والأمل وأبو الطيب لم يعرف مثل هذا الموقف مع النساء ولكنه عرفه فى طلب الدنيا وهو يجاهد في سبيل احرازها

***

شعر أبي الطيب في الغزل وملحقاته على العموم لا يكاد يخرج — الا القليل منه —

عن الاحوال الثلاثة الآتية :

الضرب الأول : ـ ان أبا الطيب حكيم يضع نفسه موضع المرشد الواعظ فى كل ظروف الحياة ـ فنراه هنا أيضاً يخط قواعد العشق ويرسم تعاريفه ويبدى الملاحظات التي تعن له عن المحبين وله في ذلك قسط كبير ـ واليك بعضاً مما قال وهى حسنات محسوبة له

وما العشق الا غرة وطماعة   يعرّض قلب نفسه فيصاب

وما صبابة مشتاق على أمل   من اللقاء كمشتاق بلا أمل

ياعاذل العاشقين دع فئة   أضلها الله كيف ترشدها ؟

عذلُ العواذل حول قلب التائه   وهوى الاحبة منه في سودائه

لا تعذل المشتاق فى أشواقه   حتى يكون حشاك في أحشائه

ان القتيل مضرجا بدموعه   مثل القتيل مضرجا بدمائه

زيدى أذي مهجتى ازدك هوى   فأجهل الناس عاشق حاقد

تذلل لها واخضع على القرب والنوى   فما عاشق من لا يذل ويخضع

وعذلت أهل العشق حتي ذقته   فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وعذرتهم وعرفت ذنبى انني   عيرتهم فلقيت منه ما لقوا

الحب ما منع الكلام الالسنا   وألذ شكوى عاشق ما أعلنا

لهو آونة تمر كأنها   قبل يزودها حبيب راحل

مما أضر بأهل العشق انهمو   هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

تفني عيونهم دمعا وأنفسهم   في اثر كل قبيح وجهه حسن

الضرب الثانى : ـ انه يصف العشاق والمشوقين ويصور أحوالهم وما يعرض لهم تصويراً دقيقا فهو في هذا النوع مصور الاشكال الحسية والحالات النفسانية التي

يدركها الفكر

لعبت بمشيته الشمول وغادرت صنما من الاصنام لولا الروح
ما باله لاحظته فتضرجت وجناته وفؤادي المجروح ؟
ورمي وما رمتا يداه فصابني سهم يعذب والسهام تريح
وجلا الوداع عن الحبيب محاسنا حسن العزاء وقد جلين قبيح
فيد مسلمة وطرف شاخص وحشا يذوب ومدمع مسفوح

وصف أعراض العشق من سقم ونحول وسهد وسهر فأجاد وأحسن قال في النحول شيئا كثيراً كله غرر ودرر

حلت دون المزار فاليوم لو زر ت لحال النحول دون العناق
أراكِ ظننتِ السلك جسمي فعقته عليك بدرّ من لقاء الترائب
ولو قلم ألقيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

دون التعانق ناحلين كشكلتي نصب أدقهما وضم الشاكل

أبلى الهوى أسفا يوم النوى بدنى وفرّق الهجر بين الجفن والوسن
روح تردد في مثل الخلال اذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن(١)
كفي بجسمي نحولا انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

وشكيني فقد السقام لأنه قد كان لما كان لي أعضاء

وخيال جسم لم يخل له الهوى لحما فينحله السقام ولا دما

وفي السهد وطول الليل :

بئس الليالي سهدت من طرب شوقا الي من يبيت يرقدها
أحييتها والدموع تنجدني شئونها والظلام ينجدها

(١) وفي رواية أخري «روح تردد في مثل الخيال» ومن هذا الرأى الشعراني خادم المتنبي وأبو الفضل العروضي

كأن الجفون على مقلتي ثياب شققن علي ثكل
بعيدة ما بين الجفون كأنما عقدتم أعالي كل جفن بحاجب

الضرب الثالث : ـ وصف جمال المرأة

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

حسان التثنى ينقش الوشى مثله اذا مس في أجسامهن النواعم
ويبسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

كأن العيس كانت فوق جفني مناخات فلما سرن سالا(١)
لبسن الوشى لا متجملات ولكن كي يصن به الجمالا
وضفرن الغدائر لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا

تشكو المطاعم طول هجرتها وصدودها . فمن الذى تصل ؟
ما أسأرت في القعب من لبن تركته وهو المسك والعسل

من كل أحور في أنيابه شنب خمر يخامرها مسك تخامره
نعج محاجره ، دعج نواظره حمر غفائره ، سود غدائره
أعارني سقم عينيه وحملني من الهوي ثقل ماتحوى مآزره

***

ومع ما تقدم فان لأبي الطيب حسنات في الغزل الصميم جامعة لصنوف الحسن يلم فيها بأغراض مختلفة و ينتقل من معني الى معني تنقل الفراش الجميل من الزهرة الى الزهرة يقتطف ماءها ويجتني عبيرها ـ فى الامثلة الآتية تراه يصف المحبوبة و يشكو اليها و يداعبها و يذكر ما يقاسي من ألم التوديع ومرارة البعد وطول الليل الي غير ذلك من الاغراض ـ أنظر الي قوله

(١) سال أى الدمع ـ سرن أو ثرن

يا طفلة الكف عبلة الساعد على البعير المقلد الواخد
زيدى أذي مهجتي ازدك هوى فأجهل الناس عاشق حاقد
حكيت يا الليل شعرها الوارد فاحك نواها لجفني الساهد
طال بكائي علي تذكرها وطلت حتي كلا كما واحد
ما بال هذى النجوم حائرة كأنها العمي ما لها قائد

أحيا ؟ وأيسر ما قاسيت ما قتلا والحب جار على قلبي وما عدلا
والوجد يقوى كما تقوى النوى أبداً والصبر ينحل في جسمي كما نحلا
لولا مفارقة الاحباب ما وجدت لها المنايا الي أرواحنا سبلا
بما بجفنيك من سحر صلى دنفا يهوى الحياة وأما ان صددت فلا

فما أمر برسم ما أسائله ولا بذات خمار لا تريق دمي
تنفست عن وفاء غير منصدع يوم الرحيل وشعب غير ملتئم
قبلتها ودموعي مزج أدمعها وقبلتني على خوف فماً لفم
فذقت ماء حياة من مقبلها لو صاب تربا لاحيي سالف الامم
ترنو اليّ بعين الظبي مجهشة وتمسح الطل فوق الورد بالعنم
رويد حكمك فينا غير منصفة بالناس كلهم أفديك من حكم !

ويلاحظ على شعر أبي الطيب في مجموعه روح الحزن والكآبة والافراط في البكاء وذكر الفراق والرحيل وشدة السقم والنحول : آمال مقطوعة وآلام موصولة فهو غزل لا تطير به النفس فرحا كغزل ابن الاحنف وأضرابه — وغزل شاعرنا يشبه لما فيه من رنة الاسى والأنين غزل من جنوا بالفراق كالمجنون العامري وأمثاله . —

ويلاحظ عليه أيضا شيء من الجفوة والعنف او الكبرياء والغطرسة من أمثال قوله

اليك! فأني لست ممن اذا اتقى عضاض الافاعى نام فوق العقارب!

أو التلميح الي انه هو الذي تسعى النساء اليه — وهو في هذا الضرب من القول أشبه بعمر بن أبي ربيعة — وقد عاب صاحب العمدة هذه الطريقة في الغزل. يقول شاعرنا

يترشفن من فمي رشفات هنّ فيه أحلى من التوحيد

ضي من الادلال سكرى من الصبي شفعت اليها من شبابي بريق
شنب معسول الثنيات واضح سترت فمي عنه فقبل مفرقي

شآمية طالما خلوت بها تبصر في ناظري محيّاها
فقبلت ناظري تغالطني وانما قبلت به فاها

وله بعض العذر في ذلك لأنه قال من قبل « وما كنت ممن يدخل العشق قلبه »

***

رثائي

رثي أبو الطيب طول حياته عشرة أشخاص منهم جدته لامه — ولهذه الاشارة ده سأذكرها بعد — أما التسعة الباقون فهم محمد بن اسحق التنوخي ووالدة سيف دولة وابنه واختاه وعبده وأبو وائل الحمداني أحد أقرباء سيف الدولة وأبو شجاع تك وعمة عضد الدولة . ويبلغ مجموع ما قاله في الرثاء اربعماية بيت وثمانية أبيات

أما الحكم على مراثيه فيجب أن نبقيه الى ما بعد حتى نستوفي الملاحظات الاتية ان قصائد أبي الطيب لا يستدل عليها من عناوينها لأنه لا يقيد نفسه بموضوع حد في قصيدة واحدة فانك تجد في قصائد مدحه ماهو أحق بالانتساب الى الهجاء ال ذلك قوله : « أحق عاف بدمعك الهمم » في مطلع قصيدة مدح وقوله في البيت اني من قصيدة أخرى في المدح أيضا

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

أو قوله في مدح ابي المنتصر الازدي وقد انتقل بلا مناسبة من الغزل الى ما هو شبه بخطب وعاظ المساجد :

ابني ابينا نحن اهل منازل ابداً غراب البين فيها ينعق
نبكي على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا

الى آخر الابيات التى تلاحظ أنها ليست في مكانها وانها غريبة عن موطنها وكأنها تنفر من أخواتها ولا تستطيع ان تساكنها

مثل الابيات المتقدمة الزم بالمراثي ولكنها وجدت في غير موضعها وكذلك نجد فى مراثيه ما ينبغى أن ينفى منها الى مواضع أخرى

يقصد من الرثاء أغراض شتى أهمها وأظهرها التفجع على المفقود ولا سيما اذا كان زوجا او ولدا او اخا للراثي او من ذوى قرابته او صديقاً قد توثقت بينهما عروة المحبة ففي مثل هذه الاحوال تجد الرثاء صادراً عن وجدان متأثر وتجد الشاعر لا هم له الا ان يعبر عما ناله من الالم وما دهمه من المصاب لفقد عزيزه فيخيل اليك وانت تقرأ شعره او تسمعه كأنك مع الشاعر تنظر الى عينيه تفيض منها العبرات والى صدره يصعد الزفرات وتلمس قلبه يتلظى وتسمع منه الانين القاتل وتستطلع من حديثه قدر الخطب النازل به فتعلم علم اليقين انه صادق في قوله صادق فى وده قد نزلت به نازلة حقاً وانه غير مأجور على شعره ولا مخادع فى بكائه

مثل هذا الرثاء لا تعثر عليه كثيراً في شعر المتنبي لأن حزنه على من رثاهم لم يبلغ به هذا المبلغ وان كان الحزن قد ناله احيانا فان شدة شاعرنا وعتوه وجفوة طبعه تحول بينه وبين هذا المطلب الذى لا يصل اليه الا ذوو العواطف الرقيقة والطباع الحساس الذين يقولون مدفوعين من أنفسهم بألم الفاجعة لا كما يقول هو مدفوعا بأمل النوال والطمع في العطاء

انه لا يستطيع ان يعطينا في مراثيه مثل ما اعطت الخنساء مثلا في أخيها صخر لان وجدان المرأة قد بلغ من قابلية التأثر ما لم يبلغه وجدان الرجل خصوصاً في الحزن فلا مطمع لشاعران يبلغ في الرثاء مبلغ النساء فهذا امتياز قد خصصن به في كل الازمان وفي كل البلدان . — أقول ان أبا الطيب لا يستطيع ان يعطينا مثل مراثى الخنساء ولا مثل مراثى شاعرة الامس في مصر المرحومة عائشة تيمور فهذه الشاعرة قد تركت للغة العربية قصيدة في رثاء ابنتها لا أظن ان شاعراً من الفحول قد وفق الى الاتيان بمثلها ولا احسب ان رجلا يستطيع ان يقول ما قالته هي على لسان ابنتها العروس

أماه ! قد عز اللقاء . وفي غد ستربن نعشي كالعروس يسير
قولى لرب اللحد رفقاً بابنتى جاءت عروساً ساقها التقدير
صونى جهاز العرس تذكاراً فلى قـد كان منه الى الزفاف سرور
أماه ! لا تنسي بحق بنوتى قبرى لئلا يحزن المقبور

ولكنى أقول ان كل امرأة عالجت الشعر وأصيبت في أملها العزيز كما أصيبت التيمورية تستطيع انتعطينا مثل هذا الرثاء

اذن فلا نطمع فى العثور على شعر وجدانى مثل هذا في ديوان أبى الطيب ذلك الرجل الذى أعطى الرجولة فوق ما ينبغى حتى نسب الى غلظ القلب وجفاء الطبع

فاذا كنا لا نجد في مراثى أبى الطيب شعراً وجدانياً فماذا الذى نجد فيها؟وعلى أى نوع من القول نقع اذا تصفحنا هذا القسم من شعره ؟

نصادف اولا-شعرا وصفيا ،وثانيا شعرا حكميا، وثالثا شعرا وجدانيا ولكن في غير الحزن ثم بعد ذلك نعثر على شعر وجدانى قليل يعد حقيقة من الرثاء

النوع الاول ـ الشعر الوصفي : انظر الى الابيات الآتية في رثاء التنوخى

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى أن الكواكب في التراب تغور
ما كنت آمل قبـل نعشك أن أرى رضـوى على أيدى الرجال تسير
خرجوا به ولكل باك خلفه صعقات موسى يوم دك الطور
والشمس في كبد السماء مريضة والارض واجفـة تكاد تمور
وحفيف أجنحة الملائك حوله وعيون أهل اللاذقية صـور
حتى أتوا جدثا كأن ضريحه في قلب كل موحّد محفور(١)

---

(١) وفي رثاء أم سيف الدولة
حصان مثل ماء المزن فيه كتوم السر صادقة المقال
مشي الأمراء حوليها حفـاة كأن المرو من زف الرئال
وأبرزت الخـدور مخبـآت يضعن النقس أمكنـة الغوالى
اتتهن المصيبـة غافـلات فدمع الحزن في دمع الدلال

— * —

هل تظن ان هـذه الابيات تفعل في نفس السامع مثل ما تفعل أبيات عائشة التيمورية ؟ كلا . فان ابيات هـذه الشاعرة قل أن يسمعها انسان الا ويبدر الدمع من جفنيه اما ابيات أبي الطيب فانها تصور لسامعها جلال المرثي وهيبة جنازته وحالة الناس حولها وعظم الحادث في نفسه ومكانة الفقيد عند قومه كل ذلك بصورة تدعو الى الانفعال ولكن انفعال الاجـلال والاعظام لا انفعال الحزن والبكاء وأظن ان بعض الناس تصيبه هزة الانشراح من جلال هـذا المقام ويتمني لو أنه ينال مثل ما نال هذا المرثى كما قال ذلك العاني الجبار في المصلوب الذى قيلت فيه قصيدة « علو فى الحياة وفى الممات »

النوع الثـاني ـ الشعر الحكمي : مراثى أبي الطيب غاصـة بالحكم والخطرات السديدة والنظرات الصادقة وقد بقيت حافظة لنضرتها لم تقبر مع الموتي الذين قيلت بمناسبة موتهم بل بقيت لأنها قيات في معنى حى لا يموت بل يتجدد كل يوم . فما أجمل تصويره للحياة والدنيا في مرثية يماك عبد سيف الدولة

ولو كان النساء كمن فقدنا   لفضلت النسـاء على الرجال
فما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التـذكير فخـر للهـلال

وفي رثاء ابن سيف الدولة وهو وليد لم يفطم بعد

تركت خدود الغانيـات وفوقها   دموع تذيب الحسن في الاعين النجل
بنفسى وليـد عاد من بعـد حمله   الي بطن ام لاتطـرق بالحمـل
بدا وله عهـد السحـابة بالروي   وصـد وفينا غلة البـلد المحـل
وقد مدت الخيل العتاق عيونها   الى وقت تبديل الركاب من النعـل
وريع له جيش العدو وما مشى   وجاشت له الحرب الضروس وما تغلى
ومثلك لايبكى على قدر سنه   ولكن على قدر المخيلة والاصل
الست من القوم الاولي من رماحهم   نداهم ومن قتلاهمو مهجـة البخـل؟
بمولودهم صمت اللسان كغـيره   ولكن في أعطافـه منطق الفضـل
تسليهمو عليـاؤهم عن مصـابهم   ويشغلهم كسب الثناء عن الشغـل

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا　　وأعيي دواء الموت كل طبيب
سبقنا الى الدنيا فلوعاش أهلها　　مُنعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب　　وفارقها الماضي فراق سليب

وفيها من الحكم المتفرقة مثل قوله

وما كل وجه أبيض بمبارك　　ولا كل جفن ضيق بنجيب
كأن الردى عاد على كل ماجد　　اذا لم يعوّذ مجده بعيوب
فربّ كئيب ليس تندى جفونه　　وربّ ندىّ الجفن غير كئيب (١)

ونجد في آخر مرثية أخت سيف الدولة الكبرى وفي مرثية عمة سيف الدولة افكاراً متفرقة هي ما يسميه بعض الناس « فلسفة الموت » اما اشعاره في رثاء أبي شجاع فان فيها أبياتاً مكفولا لها البقاء الى ما شاء الله (٢)

---

(١) ومن مرثية والدة سيف الدولة

نعد المشرفية والعوالي　　وتقتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات　　وما ينجين من خبب الليالى
ومن لم يعشق الدنيا قديما؟　　ولكن لاسبيل الى الوصال
نصيبك في حياتك من حبيب　　نصيبك في منامك من خيال
يدفن بعضنا بعضا ويمشى　　أواخرنا على هام الاوالى
وكم عين مقبلة النواحي　　كحيل بالجنادل والرمال

ومن مرثية أخت سيف الدولة الصغرى

ولذيذ الحياة أنفس في النفس وأشهي من أن يمل وأحلى
واذا الشيخ قال « اف ! » فما مل حياة ولكن الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب　　فاذا وليا عن المرء ولى
أبداً تسترد ماتهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا!

(٢) تصفو الحياة لجاهل أوغافل　　عما مضى فيها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه　　ويسومها طلب المحال فتطمع
أين الذى الهرمان من بنيانه ؟　　ماقومه؟ مايومه ؟ ماالمصرع ؟

النوع الثالث ـ انفعال وجداني غير الحزن : نري أبا الطيب هنا متأثر الوجدان ولكنه على غير المعهود في مقام الرثاء فهو لا يحزن ولا يبكي وانما يتميز غيظا و يهدد ويتوعد و يعترض على الايام وفعلها و يحقد علي الزمن وتصرفاته . كنت أظن أنه في رثاء جدته يقول شعراً مبكياً او ينوح قليلا على هذه الأم الراحلة التي ماتت شوقا اليه وتفصيل الحادثة كما جاء في ديوانه أنه ورد على أبي الطيب كتاب من جدته تشكو شوقها اليه وطول غيبته عنها فتوجه نحو العراق فلم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك فانحدر الي بغداد وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتابا يسألها المسير اليه فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها فقتلها

واذا كان في القصيدة بعض الشيء مما يناسب الرثاء فان معظمها خارج عن الموضوع ولو أنه جميل فى ذاته وهو انفعال غضبى متشبعة به القصيدة من أولها الى آخرها من ذلك قوله

هبيني أخذت الثأر فيك من العدى … فكيف بأخذى الثأر فيك من الحمى ؟
ولو لم تكونى بنت أكرم والد … لكان أباك الضخم كونك لى أما
لئن لذ يوم الشامتين بيومها … لقد ولدت مني لأنفهم رغما
يقولون لى ما أنت في كل بلدة ؟ … وما تبتغى ؟ ما أبتغى جلَّ أن يسمى
كأن بنيهم عالمون بأنني … جلوب اليهم من معادنه اليتما
واني لمن قوم كأن نفوسهم … بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

تتخلف الآثار عن أصحابها … حينا ويدركها الفناء فتتبع

ومنها في قصيدة اخري

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة … بين الرجال ولو كانوا ذوى رحم
هون على بصر ماشق منظره … فانما يقظات العين كالحلم
ولا تشك الى خلق فتشمته … شكوي الجريح الى الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تستره … ولا يغرك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء . فما تلقاه من عدة؟ … وأعوز الصدق في الاخبار والقسم

وكذلك رثاؤه في أبي شجاع أحب أهل مصر اليه فانه يخرج فيه من مقام الرثاء المهيب الي التعريض بكافور والغض من قدره و يعتب على الدهر لانه قضى على فاتك بالموت وترك كافوراً يتنفس نسيم الدنيا ثم انهال على كافور بالسب الموجع والهجاء المقذع

قبحا لوجهك يا زمان ! فانه | وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك | ويعيش حاسده الخصي الاوكع ؟
أيد مقطعة حوالى رأسه | وقفاً يصيح به الا من يصفع !
ابقيت اكذب كاذب ابقيته | وأخذت أصدق من يقول و يسمع
وتركت أنتن ريحة مذمومة | وسلبت أطيب ريحة تتضوع

الرثاء الوجداني الحقيقي: ان ما قدمناه من الامثلة يعد من حسنات أبي الطيب ولكنه ليس من الرثاء الوجداني -بالمعني الذي بينته - على أن له أقوالا جيدة في هذا الموضوع تتجلى فيها رقة نفسه وقوة وجدانه ولكنها قليلة بالنسبة لمراثيه الكبيره - قال في رثاء أخت سيف الدولة الكبرى

غدرت يا موت ! كم أفنيت من عدد | بمن أصبت وكم اسكت من لجب ؟
وكم صحبت أخاها في منازلة؟ | وكم سألت فلم يبخل ولم تخب؟
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت | فكيف ليل فتي الفتيان في حلب ؟
يظن أن فؤادى غير ملتهب | وان دمع جفوني غير منسكب
بلى ! وحرمة من كانت مراعية | لحرمة المجد والقصاد والأدب
فليت طالعة الشمسين غائبة ! | وليت غائبة الشمسين لم تغب !
وليت عين التى آب النهار بها | فداء عين التى زالت ولم تؤب!
قد كان كل حجاب دون رؤيتها | فما قنعت لها يا أرض بالحجب !
ولا رأيت عيون الانس تدركها | فهل حسدت عليها أعين الشهب ؟
ياأحسن الصبر زر أولى القلوب بها | الخ ... ...

وفي رثاء فاتك

ولقد أراك وما تلم ملمة | الا نفاها عنك قلب أصمع

و يد كأن نوالهـا وقتالهـا فرض يحق عليك وهو تبرع
يا من يبدل كل يوم حـلة انى رضيتَ بحـلة لا تنزع؟
مازلت تخلعها على من شاءها حتى لبست اليوم ما لا تخلع
ما زلت تدفع كل أمر فادح حتى أتى الأمر الذى لا يدفع
فظللت تنظر لا رماحك شرع فيما عراك ولا سيوفك قطع
بأبي الوحيد وجيشه متكاثر يبكي ومن شر السلاح الأدمع
واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخدك تقرع
وصلت اليك يد سواء عندها البازى الاشيهب والغراب الابقع
من للمحافل والجحافل والسرى؟ فقدت بفقدك نيرا لا يطلع
ومن اتخذت على الضيوف خليفة؟ ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

***

خاتمة

قد رأينا شعر المتنبي في البابين المهمين من الشعر الوجدانى وهما الغزل والرثاء وتحققنا انه لا يعطيهما مايستحقان من الانفعال الوجداني وخرجنا من درس هذين البابين بحكم لا نظنه الا عادلا وهو ان أبا الطيب مفكر مصور قد رزق استمداداً شعريا لا نزاع فيه . فالتفكير يغلب عليه في كل أقواله وكذا الوصف

اما وجدانه فلا يستيقظ الا في مواضع قليلة أهمها الغضب فتجد حقده صادقا وهجاءه متينا ونيله من اعراض الناس وحطه من قدر خصومه مما يشهد له بانه متأثر الوجدان حقا وكذلك الحافه فى السؤال وتذلله عند الاقتضاء

***

الشعر الوجدانى كثير عند المتقدمين ولكنه قليل عند المتأخرين . ولا ينبغي ان نعيب المتأخر على هذا النقص كما لا ينبغي ان يفخر المتقدم بتوفر هذا الفضل لديه . فالقدماء ينظمون الشعر وهم مدفوعون اليه بوجدانهم ولم يكن الشعر قد دخل سوق التجارة ولم يكن الشعراء قد طرقوا باب التكسب بالشعر . فاذا بكوا فمن حزن، واذا

ثنوا فمن شكر ،واذا شببوا فمن غرام ،واذا هجوا فمن غضب، الى غير ذلك . أما المحدثون فهم أصحاب فن يؤجرون علية عند الحاجة : يقولون للغير لا لأنفسهم ، فانفعالاتهم متصنعة ووجدانهم مكره على التأثر ،وقل فيهم من ينظم الشعر في خصوصيات حياته . الا ان المتأخر قد استعاض عن الوجدان بالصناعة على اختلاف أنواعها . وقد تدرجت الصناعة في الدخول الى شعر المتأخرين حتى سادت على كل ما عداها من الاغراض . ونظمت القصائد لا لشئ الا للبديع الصناعى . فالفرق الظاهر بين الشعر القديم والشعر الحديث هو ان الاول وجدانى في جملته والثانى صناعى فى جملته - ولا فضل للأول ولا عيب على الثانى - لأن الظاهرة هنا طبيعية قد أوجدتها ظروف الأحوال . ولو راجعنا شعر المتأخرين الذين كتبوا ونظموا لأنفسهم متأثرين بوجدانهم مدفوعين بعواطفهم ولم يكونوا من المأجورين على شعرهم لرأينا الروح الشعرية الحقيقية ولصادفنا الوجدان المتأثر في أجلى مظاهره . هذه مراثي المتأخرين في أبنائهم اوأهليهم او اخوانهم فانها لا تقل من حيث الوجدان عن مراثى الجاهليين بل انها تفوقها لعذوبة ألفاظها وسهولة تراكيبها . ومرثية التهامي في ولده من خير ما يستشهد به في هذا المقام. من ذا الذى يستطيع ان يثير وجدان الشاعر اذا كان ذلك الوجدان ميتاً لا حراك به ؟ كيف يلام الشاعر لأنه لم يبك على شخص لا يعرفه بل اضطرالى رثائه اضطراراً أو حباً في نوال ؟ الرثاء المأجور هو الذى يظهر فيه التصنع أكثر من غيره من فنون الشعر - الا أن الشاعر الماهر الذى لا يريد ان يظهر في شعره مثل هـذا العيب يترك الشعر الوجداني جانبا و يقصد نوعا آخر من الشعر - لأنه ليس مضطراً في الرثاء لأن يتفجع على الراحل و يبكي عليه بل أمامه مادة للقول لا تنفد أهمها حديث العقل بالتنبيه الى الحقائق التى لا ريب فيها من فناء الانسان ،وغرور الحياة، وزوال هـذه الظلال الكاذبة، وخداع الاماني ،ثم الدعوة بعـد ذلك الى التجمل بالصبر والخضوع للقضاء والاستسلام للقدرة النافذة أحكامها في العباد — هذه أغراض مختلفة يجدها الشاعر متى شاء تحمى شعره من دخول التكلف الممقوت والتأثر المتصنع . وهذا مادعا الشعراء المأجورين الى طرق أبواب التفكير المنطقى ، على ما أظن ، ونقل الشـعر من حال

التخيلات السطحية الى الفلسفة العميقة

ويخيل اليّ ان التكلف الوجداني والصناعة اللفظية والتفكير الدقيق عل طريقة المناطقة هي التي أزالت باجتماعها روعة الشعر النفسية وجعلته أشبه شيء بال التحقيقي وزهدت عشاق الشعر الحقيقي في نظم الشعراء الذين ينظمون مهنة وصناع وجعلت ابن رشيق وأمثاله يفضلون شعر الكتاب والقضاة لأنهم يشعرون لأنفسه كلما جاش الشعر في صدورهم — وعن الوزير ابن مقلة « يعجبني من يقول الشعر تأد لا تكسبا » . — ولو كان لي ان اقول « يعجبني » كما يقول زعماء الادب لقلت يعجبني شعر الصوفية من كافة الملل والنحل لأنهم بوجدانهم يعيشون

***

وقبل الانهاء من هذا القسم يحسن بنا ان نجيء ببعض الأمثلة على خيال أبي الطيب وتمثيلاته — قال

بعثوا الرعب في قلوب الأعادي فكان القتال قبل التلاقي
وتكاد الظبي لما عودوها تنتضي نفسها الى الأعناق

ألم ير هذا الليل عينيك رؤيتي فتظهر فيه رقة ونحول !

كأن الهام في الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسنة من هموم فما يخطرن الا في فؤاد

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

ألقت اليك دماء الروم طاعتها فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم
يسابق الموت فيهم كل حادثة فما يصيبهم موت ولا هرم

خير أعضائنا الرؤوس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام
قد لعمري أقصرت عنك وللوفد ازدحام وللعطايا ازدحام
خفت ان صرت في يمينك ان تأ خذني في هباتك الأقوام

وقال في الحمى :

وزائرتي كأن بها حياءً فليس تزور الا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفسى وعنها فتوسعه بأنواع السقام
اذا ما فارقتني غسلتني كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر اذا ألقاك في الكرب العظام

ألست ترى من هذه الامثلة انه راقى الخيال دقيق التصور بعيد المرمى فيه الى حد جعل أكثر النقاد يعيبون عليه بعض التشابيه لأنه قد بالغ في التخيل وخرج عن المعهود .

ومما يلاحظ على أبى الطيب انه قليل الفكاهة في شعره على الرغم من شيوع السخرية والطنز في العصر العباسي . فهو لم يجهد خياله الا فى تصوير الجد منصرفا عن تلك الفكاهات التي تروح النفس من آن الى آن .

الا ان هناك مسألة جديرة بالالتفات في شعره وهى زيادة الخروج على الحياء في الهجاء والتعريض بالناس . بالطبع لا ينتظر من الشاعر الذي ينظم في الهجاء أن يمجد خصمه او أن يذكره بالخير وانما المتوقع ان يعطيه من القول ما يؤلم نفسه ويجرح عواطفه ويحط من قدره بين الناس الى غير ذلك من الموجعات المعنوية . وهذه الغاية يوصل اليها من طريق التصريح المخجل الذى اتبعه أبو الطيب في غالب الأحيان وعد من سيئاته كما يوصل اليه من طريق التلميح والاشارات . وهذا النوع الأخير قليل في شعر أبي الطيب الا أنه ليس معدوما منه بالمرة . فنجد له بعض قطع فيها تهكم ظريف ما كان أولي أبا الطيب آن يحتذيه في كل هجائه مثل ذلك قوله وقد بلغه وهو بدمشق ان اسحق بن كيغلغ يتوعده من بلاد الروم

أتاني كلام الجاهل ابن كيغلغ يجوب حزونا بيننا وسهولا

ولو لم يكن بين ابن صفراء حائل . وبيني سوى رمحي لكان طويلا
واسحاق مأمون على من أهانه ولكن تسلى بالبكاء قليلا
وليس جميلا عرضه فيصونه وليس جميلا أن يكون جميلا
ويكذب . ما أذللته بهجائه لقد كان من قبل الهجاء ذليلا

والبيت الاخير على الاخص غاية في الايلام والايجاع غير انه لا يشير الى السوآت والعورات التي تعودها شاعرنا في هجائه . مثل ذلك قوله في هجاء بني كلاب

أرادت كلاب ان تفوز بدولة! لمن تركت رعي الشويهات والابل؟

مثال آخر . قوله في احدى قصائده يصف أمير الروم عند ما غلبه سيف الدولة فالتجأ الي الدير يتعبد فيه وترك الحروب والغارات

فأصبح يجتاب المسوح مخافة وقد كان يجتاب الدلاص المسردا
ويمشي به العكاز في الدير تائبا وما كان يرضى مشي اشقر اجردا

مثال آخر . قال في رجلين قتلا جرذا وابرزاه يعجبان الناس من كبره . كأنما قتلا أسدا

لقد أصبح الجرذ المستغير أسير المنايا صريع العطب
رماه الكناني والعامري وتلاه للوجه فعل العرب
كلا الرجلين اتلى قتله فايكما غل حر السلب؟
وايكما كان من خلفه؟ فان به عضة في الذنب!

فبعد البيت الأخير لا بد من ابتسامة ولو صغيرة تبدو على شفتي كل سامع

القسم الثاني

الشعر الوصفي

باب الوصف يتناول أبحاثا عديدة أهمها ما يختص بمظاهر الطبيعة . — وقد جاء من هذا النوع شيء كثير في شعر أبي الطيب ولا أبالغ اذا قلت ان المتنبي ان لم يكن أكبر واصف للطبيعة في شعراء العرب فانه بلا شك من مقدميهم الممتازين قدراً ومقداراً — والنوع الثاني من الوصف الذي أجاد فيه أبو الطيب هو وصف المعارك وما يتعلق بها

وانى الاحظ ان هـذين النوعين من الوصف يجيئان أحياناً كثيرة مختلطين في شعر المتنبي فاذا وصف معركة مثلا وجدته يصور حالة الجو والضوء والالوان والاصوات وهيئة المكان وغير ذلك مما يتناول وصف الطبيعة ثم يصور المعركة في الكر والفر و يصف أدواتها وفعل رجالها. وانى مقتصر على هذين النوعين لأن فيهما الكفاية وزيادة

***

وصف الطبيعة

ان أول ما يخطر بالبـال عند ذكر الطبيعة انمـا هي تلك المناظر الكبرى التى لم يكن ليد الانسان فعل في ايجادها كالجبال والصحارى والبحار والأنهار او المناظر التى كان ليد الانسـان فعل في تمهيدها او ابداعها كالرياض والنبـات والحدائق والمزارع والبحيرات وما شاكل ذلك

وفى هذه المناظر مادة لاتنفد لمن يريد الوصف. ـعلى أن الوصافين لايستطيعون في الغالب ان يجيدوا في كل هذه الفروع او لا يحاولون ان يستقصوها بل يقتصرون على ما تميل اليه فطرهم او يقع عليه نظارهم فمنهـم من تأخذ بلبه مناظر البحار الهـائجة المضطربة او الصحارى القفرة الموحشة او الجبال القحلة الجرداء ومنهـم من يعشق الرياض الغناء او مجـارى الأنهار او ضفاف البحيرات وذلك يختلف باختلاف منشأ الشاعر الوصاف وسليقته وشعوره الى غير ذلك من الظروف التي تؤثر فى نفس الشاعر وتؤثر في شعره

أما أبو الطيب فانه غزير المادة في أنواع كثيرة من الوصف الطبيعى (١) كما قدمت. وأول ما يلفت نظر المطلع على شعره ذكر القفار وذلك ليس بمستغرب لأن الشاعر يصف الوسط الاول الذى عرفه في حياته . هذا وانه لايصفه مع كراهة له وانما يذكره وهو متشوق اليه وقد كثر حنينه في شعره الى تلك المفاوز والصحارى والجبال

يقول فى صفة نفسه

---

(١) النسبة الى طبيعة طبعي ، حسب القياس ، كمدني نسبة الي مدينة

أنا ابن الفيافي، أنا ابن القوافي أنا ابن السروج، أنا ابن الرعان (١)

ذراني والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام
فاني أستريح بذى وهذا وأتعب بالاناخة والمقام

وفي وصف جبل

وشامخ من الجبال أقودِ فرد كيأفوخ البعير الأصيدِ
يسار من مضيقه والجلمد في مثل متن المسد المعقد

ونلاحظ أيضاً ان وصف الصحارى غير مطول ولكنه « مختصر مفيد » كقوله

فى مثل ظهر المجن متصل بمثل بطن المجن ترددها

ويجيء ذكر النوق والابل والجمال « سفن البيداء » عند ذكر القفار :

كم مهمه قذف قلب الدليل به قلب المحب قضاني بعد ما مطلا
عقدت بالنجم طرفي في مفاوزه وحر وجهي بحر الشمس اذ أفلا
أوطأت صم حصاها خف يعملة تغشمرت بي اليك السهل والجبلا
لو كنت حشو قميصي فوق نمرقها سمعت للجن في غيطانها زجلا (٢)

وله وصف قصير يذكر به دخوله مصر

لقيت المروري والشناخيب دونه وجبت هجيراً يترك الماء صاديا (٣)

وفي قصيدة أخرى يذكر النيل والمقطم وآثار مسيره فى البيداء

فلو لم تكن في مصر ماسرت نحوها بقلب المشوق المستهام المتيم
ولا نبحت خيلى كلاب قبائل كأن بها في الليل حملات ديلم
ولا أتبعت آثارنا عين قائف فلم تر الا حافراً فوق منسم
وسمنا بها البيداء، حتى تغمرت من النيل واستذرت بظل المقطم

وذكر القفر يثير فى النفس ذكرى الاطلال والرسوم وهي كثيرة في شعر أبي الطيب

---

(١) الرعن أنف الجبل (٢) يعملة نلقة قوية. تغشمرت قطعت (٣) المروري والشناخيب : القفار ورؤوس الجبال

وكل هذه الاوصاف تدخل ضمن مايسميه أدباء الاجانب « الطبيعة الميتة »

قال أبو الطيب على ذكر الطلول أشعاراً كثيرة أذكر منها الأبيات الآتية وفيها وصف الصحراء والجمال

قف على الدمنتين بالدوّ من ريّا   كخال في وجنة جنب خال
بطلول كأنهن نجوم   في عراص كأنهن ليال
ونؤى كأنهن عليهن   خدام خرس بسوق خدال
نحن ركب ملجنّ في زى ناس   فوق طير لها شخوص الجمال
من بنات الجديل تمشى بنا في البيد   مشى الايام في الآجال
كل هوجاء للدياميم فيها   أثر النار في سليط الذبال(١)

أما المناظر الطبيعية الأخرى التي أجاد فيها أبو الطيب فمنها وصف بحيرة طبرية وتلاطم أمواجها . — وشعب بوان وما فيه من الاشجار والاطيار واني أنقل شيئاً من هاتين القطعتين اثباتاً لما اشتملتا عليه من حسن التنسيق وجمال الترتيب

وصف بحيرة طبرية

لولاك لم أترك البحيرة والغور   دفء وماؤها شبم
والموج مثل الفحول مزبدة   تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها   فرسان باق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها   جيشاً وغى : هازم ومنهزم
كأنها في نهارها قمر   حف به من جنانها ظلم
تغنّت الطير في جوانبها   وجادت الارض حولها الديم
فهي كماويّة مطوقة   جرد عنها غشاؤها الأدم
يشينها جريها على بلد   تشينه الادعياء والقزم (٢)

(١) ملجن : سن الجن — الجديل فحل كريم تنسب اليه الابل هوجاء : ناقة — دياميم : مفاوز لاماء فيها — سليط : زيت — الذبال جمع ذبالة : فتيلة

(٢) شبم : بارد — ماوية : مرآة — القزم : اللئام

وصف شعب بوّان (في شيراز ـ يعدّ في جنان الدنيا)

مغاني الشعب طيباً في المغاني　　بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها　　غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها　　سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى　　خشيت وان كرمن من الحران
غدونا تنفض الاغصان فيها　　على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الحرّ عني　　وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي　　دنانيراً تفر من البنان
لها ثمر تشير اليك منه　　بأشربة وقفن بلا أوان
وأمواه تصل بها حصاها　　صليل الحلي في أيدي الغواني
اذا غنى الحمام الورق فيها　　أجابته أغانيّ القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام　　اذا غنى وناح الى البيان؟

يتناول وصف الطبيعة وصف حيواناتها وقد جاء في شعر أبي الطيب شيء كثير في نعت الظباء وكلاب الصيد وله وصف مشهور للأسد أما الخيل فانا ندعها لوصف الحرب ومعداتها ونذكر هنا فقراً في أوصافه في الحيوان

وصف ظبي

بعد ان وصف المكان وهو مكان لا يحله الانس وانما يحله الوحش جاء بوصف غزال يرعى فقال

عن لنا فيه مراعى مغزل　　محيّن النفس بعيد الموئل
أغناه حسن الجيد عن لبس الحلي　　وعادة العري عن التفضل
كأنه مضمّخ بصندل　　معترضاً بمثل قرن الأيل

وتبع ذلك بوصف كلب الصيد وهو الآتي بعد

وصف كلب الصيد

هو وصف طويل منفصل لا يكتفي بأوله عن آخره ولا بآخره عن أوله أذكر

هنا فقراً منه اشارة الى دقة الوصف وصدق النظر

مؤجّد الفقرة رخو المفصل — له اذا أدبر لحظ المقبل
كأنما ينظر من سجنجل — يقعى جلوس البدوى المصطلى
يكاد فى الوثب من التفتل — يجمع بين متنه والكلكل
وبين أعلاه و بين الأسفل — ذى ذنب أجرد غير أعزل (١)
يخط في الارض حساب الجمّل — . . . . . .

ثم صور حاله حين انقضاضه علي فريسته فقال

حتى اذا قيل له نلت افعل — افترّ عن مذروبة كالأنصل
لا تعرف العهد بصقل الصيقل — مركبات في العذاب المنزل
كأنها من سرعة من شمأل — كأنها من ثقل في يذبل
كأنها في سعة في هوجل — كأنه من علمه بالمقتل
علّم بقراط فصاد الاكحل — الخ . . . . . . (٢)

وصف الأسد

....

في وحدة الرهبان الا أنه — لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه — فكأنه آس يجس عليلا
و يرد عفرته الى يافوخه — حتى تصير لرأسه اكليلا

***

عند ما اهتم أدباء الغرب بالكتاب والشعراء الوصافين لقبوهم بالمصورين ونظروا لى أقوالهم كما ينظرون الى الألواح التى رسمها أولئك فجعلوا منهم مصورى الألوان كما جعلوا منهم مصورى الأضواء (٣) وبهذه المناسبة أقول ان واضعي البلاغة عندنا لد اهتموا بالألوان وجعلوا لها فصلا خاصاً فى البديع سموه « التدبيج » الا أن

---

(١) سجنجل : مرآة — المتن والكلكل : الظهر والصدر
(٢) مذروبة : اسنان — يذبل : اسم جبل — هو جل : فلاة
(٣) Luminariste - Coloriste

« التدبيج » عندنا لم يقصد به استخدام الألوان على الاطلاق بلا شرط ولا قيد وانما هو نوع من الطباق أو المقابلة بين ألفاظ الالوان كقول الشاعر:

تردي ثياب الموت حمراً فما أتى لها الليل الا وهي من سندس خضر

ولكن وضع هذه القاعدة منذ عشرة قرون يدلنا على أن للالوان تأثيراً كبيراً في النفس ومن أجل ذلك قد خصها البديعيون بعنايتهم وجعلوا لها تسمية تميزها . ولو كانت حركة التفكير والتأليف قد استمرت كما كانت عليه في عصر شباب الدول الاسلامية لرأينا أسماء أخرى توافق ما نحن بصدده الآن .

ان وصاف الطبيعة من الكتاب والشعراء لا يجدون في بعض الأوقات لفظاً من بين ألفاظ الألوان يؤدي ما يريدون فيستدعون أسماء من عندهم يستعيرونها من مسميات أخري . وقد أعجب الفرنسيون يوم جاء كاتبهم الوصاف « برناردان ده سان بيير »(١) باختراع جديد فقال « لون الصدف ولون المرجان » . ويحق لنا ان نعجب بقول شاعرنا أبي الطيب :

فثار من أخضر ممطور ندٍ كأنه بدء عذار الأمرد

فان لون « عذار الأمرد » أحق بالاعجاب من «لون الصدف ولون المرجان» .

حتي دخلنا جنة لو أن ساكنها مخلد
خضراء حمراء التراب كأنها في خد أغيد

فان التشبيه بلون « خد الاغيد » مما لا يوفق اليه الا ذو الباصرة الحساسة التي تتأثر بالالوان وتعرف مواضع الاتيان بها حيث يكون لها الروعة في نفس السامع . بقي على ان أجيء ببعض الامثلة . قال

ويوم وصلناه بليل كأنما على أفقه من برقه حلل حمر
وليل وصلناه بيوم كأنما على متنه من دجنه حلل خضر

تخدي الركاب بنا بيضاً مشافرها خضراً فراسنها في الرغل والينم

---

(١) Bernardin de Saint - Pierre

معكومة بسياط القوم نضربها عن منبت العشب نبغي منبت الكرم

فأتتك دامية الأظل كأنما حذيت قوائمها العقيق الأحمرا

وفي الأضواء :

وقد سار في مسراك منها رسوله فما سار الا فوق هام مفلق

فلما دنا أخفى عليه مكانه شعاع الحديد البارق المتألق

ووصف الشرر الذي يتناثر تحت أقدام مطاياه كلما قدحت الحصى :

اذا الليل وارانا أرتنا خفافها بقدح الحصى مالا ترينا المشاعل

اذا صرف النهار الضوء عنهم دجا ليلان ليل والغبار

وان جنح الظلام انجاب عنهم أضاء المشرفية والنهار

والباعث الجيش قد غالت عجاجته ضوء النهار فصار الظهر كالطفل

الجو أضيق ما لاقاه ساطعها ومقلة الشمس فيها أحير المقل

ينال أبعد منها وهي ناظرة فما تقابله الا على وجل

وفي الأصوات والأضواء :

تمر عليه الشمس وهي ضعيفة تطالعه من بين ريش القشاعم

اذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدور فوق البيض مثل الدراهم

ويخفى عليك الرعد والبرق فوقه من اللمع في حافاته والهماهم

ويشبه البيت الثاني قوله في وصف شعب بوان

وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان

***

وصف الحرب

عند الغربيين يلحق الكتاب بالشعر الوصفي أنواعا كثيرة من الشعر او بعبارة أخرى يدخلون الشعر الوصفي ضمن فنون مختلفة يجمعها اسم شامل هو الشعر التعليمي الذي يحوي الشعر القصصي والروايات الحربية وغير ذلك . ولهذا رأيت ان أضم الى

باب الوصف في شعر أبي الطيب شيئا مما حكاه عن الوقائع الحربية التى حضرها بنفسه او رويت له ونظمها في أشعاره . ولا ينبغى ان نطالبه في هذا النوع من الشعر بما نطالبه به في أنواع أخري فهو بالطبع مضطر لأن يذكر لنا كثيراً من أسماء البلاد والمواقع مما يعل سريعا مثل قصيدته المقصورة التى حكي فيها خروجه من مصر حتى وصل الى الكوفة . حكي موقعة من مواقع سيف الدولة فقال

وما هى الا خطرة عرضت له (بحران) لبتها قنا ونصول
همام اذا ما هم أمضى همومه بأرعن وطءُ الموت فيه ثقيل
وخيل براها الركض في كل بلدة اذا عرست فيها فليس تقيل
فلما تجلى من (دلوك) و (صنجة) علت كل طود راية ورعيل
فما شعروا حتى رأوها مغيرة قباحا وأما خلقها فجميل
سحائب يمطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف غسيل
وأمسى السبايا ينتحبن (بعرقة) كأن جيوب الثاكلات ذيول
تسايرها النيران في كل منزل به القوم صرعى والديار طلول
وكرت فمرت في دماء (ملطية) (ملطية) أم للبنين ثكول
وأضعفن ما كلفنه من (قباقب) فأضحى كأن الماء فيه عليل
ورعن بنا قلب (الفرات) كأنما تخر عليه بالرجال سيول
يطارد فيه موجه كل سابح سواء عليه غمرة ومسيل

ووصف ثغر الحدث واحاطة الروم به وما جرى بين الروم وسيف الدولة

قصدوا هدم سورها فبنوه وأتوا كي يقصروه فطالا
واستجروا مكايد الحرب حتى تركوا لها عليهم وبالا
(رب أمر أتاك لا تحمد الفعال فيه وتحمد الأفعالا)
نزلوا في مصارع عرفوها يندبون الاعمال والأخوالا
تحمل الريح بينهم شعر الهام وتذرى عليهمو الأوصالا
بسط الرعب في اليمين يمينا فتولوا وفي الشمال شمالا

ينفض الروع أيدياً ليس تدري   أسيوفاً حملن ام اغلالا
ووجوها أخافهـا منك وجه   تركت حسنها له والجمالا
(واذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا)
ان دون التي على الدرب والأحـ   دب والنهر مخلطا مزيالا
غصب الدهر والملوك عليها   فبناها في وجنة الدهر خالا
فهي تمشي مشي العروس اختيالا   وتثنّى على الزمان دلالا
وحماها بكل مطرد الاكـ   ـعب جورَ الأيام والآجالا
وظبى تعرف الحرام من الحل   قد أفنت الدماء حلالا
في خميس من الأسود بئيس   يفترسن النفوس والأموالا
(من أطاق التماس شيء غلابا   واغتصابا لم يلتمسه سؤالا)

قد يصيب النفس شيء من الملل عند سماع شعر الحروب والغارات ولكن أبا الطيب يخفف من غضاضة هذا الشعر بما يدخله عليه من آن الى آن من بالغ حكمه وجميل صناعاته

وصف أدوات الحرب : قال في وصف السيف :

سله الركض بعد وهن بنجد   فتصدّى للغيث أهل الحجاز

وبيض مسافرة لا يقمن   لا في الرقاب ولا في الغمود
يقدن الفناء غداة اللقاء   الى كل جيش كثير العديد

وأطلع بيضا كالشموس مطلة   اذا طلعت بيضا وان غربت حمرا

طلعن شموسا والغمود مشارق   لهن وهامات الرجال مغارب

وصن الحسام ولا تذله فانه   يشكو يمينك والجماجم تشهد
يبس النجيع عليه وهو مجرد   من غمده وكأنما هو مغمد
ريان لو قذف الذي أسقيته   لجرى من المهجات بحر مزبد
ما شاركته منية في مهجة   الا وشفرته على يدها يد

وصف الرماح

تبيت رماحه فوق الهوادى وقد ضرب العجاج لها رواقا
تميل كأن فى الابطال خمراً علان بها اصطباحا واغتباقا

قواض مواض نسج داوود عندها اذا وقعت فيه كنسج الخدرنق
هواد لا ملاك الجيوش كأنما تخير أرواح الكماة وتنتقى
تقد عليهم كل درع وجوشن وتفرى اليهم كل سور وخندق
يغير بها بين (اللقان) و (واسط) و يركزها بين (الفرات) و (زجاق)
و يرجعها حمراً كأن صحيحها يبكي دماً من رحمة المتدقق

وصف الخيل:

قاد الجياد الى الطعان ولم يقد الا الى العادات والاوطان
كل ابن سابقة يغير بحسنه في قلب صاحبه على الاحزان
ان خليت ربطت بآداب الوغى فدعاؤها يغني عن الأرسان
في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان
يرمي بها البلد البعيد مظفر كل البعيد له قريب دان
فكأن أرجلها بتربة (منبج) يطرحن أيديها (بحصن الران)

فأتتهم خوارق الارض ما تحمل الا الحديد والابطالا
خافيات الألوان قد نسج النقع عليها براقعا وجلالا
حالفته صدورها والعوالى لتخوضن دونه الأهوالا
ولتمضن حيث لا يجد الرمح مداراً ولا الحصان مجالا

وصف الحرب والضرب وفي أثنائه وصف الخيل وعدد القتال

يقبلهم وجه كل سابحة اربعها قبل طرفها تصل
جرداء ملء الحزام مجفرة تكون مثلي عسيبها الخصل
ان أدبرت قلت لا تليل لها أو أقبلت قلت ما لها كفل

والطعن شذر والارض واجفة   كأنما في فؤادها وهل
قد صبغت خدها الدماء كما   بصبغ خد الخريدة الخجل
والخيل تبكي جلودها عرقا   بأدمع ما تسحها مقل
سار ولا قفر من مواكبه   كأنما كل سبسب جبل
يمنعها ان يصيبها مطر   شدة ما قد تضايق الأسل

الجيش :

ولما عرضت الجيش كان بهاؤه   على الفارس المرخى الذؤابة منهم
حواليه بحر للتجافيف مائج   يسير به طود من الخيل أيهم
تساوت به الاقطار حتى كأنه   يجمع أشتات الجبال وينظم

يهز الجيش حولك جانبيه   كما نفضت جناحيها العقاب
وتسأل عنهم الفلاة حتى   أجابك بعضها وهم الجواب

ضممت جناحيه على القلب ضمة   تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب   وصار الى اللبات والنصر قادم
حقرت الردينيات حتى طرحتها   وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فانما   مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
نثرتهم فوق الاحيدب كله   كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى   وقد كثرت حول الوكور المطاعم
تظن فراخ الفتخ انك زرتها   بأماتها وهي العتاق الصلادم
اذا زلقت مشيتها ببطونها   كما تتمشى في الصعيد الأراقم

***

من اتقان الصنعة عند الوصاف ان يعطى الجماد نوعاً من الحياة فينسب اليه من الأعمال ما يُنسب الى الكائنات الحية . مثل ذلك ما جاء في الكتاب العزيز « جداراً يريد ان ينقض » ولا ارادة للجدار

يصف أبو الطيب تمايل الرماح وكأنها الشاربون قد لعبت برؤوسهم الخمر

تبيت رماحه فوق الهوادي وقد ضرب العجاج لها رواقا
تميل كأن في الأبطال خمرا عللن بها اصطباحا واغتباقا

ولم تعيه الحيلة في اتمام التشبيه فوجد الخمر التي يسقيها للرماح ، وجدها في دماء الأبطال يفعل أبو الطيب شيئا شبيها بهـذا عند وصف الحيوان . انه يعطي جياده نوعا من العقل :

وأدبها طول القتـال فطرفه يشير اليها من بعيد فتفهـم
تجاوبه فعلا وما تسمع الوحى ويسمعها لحظـا وما يتكلم

والأدب والطاعة وفهـم الاشارات والاجابة الى الأوامر يحتـاج الى عقل لا يتوفر في كثير من بنى الانسان — وقال فى وصف مهره :

يميز الهزل من الحقائق وينذر الركب بكل سـارق
يريك خرقا وهو عين الحاذق

وأعجب من هذا وذاك قول حصانه وهو فى شعب بوان :

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

فانه أعطاه تفكير الفلاسفة الكبار وأخشي ان أقول بل حكمة الأولين والآخرين
تميز آخر لوصف أبي الطيب — عند ما يصف المتنبي دابة من دوابه تحس وأنت تقرأ شعره كأنك ترى الموصوف يتحرك أمام مخيلتك ويكثر هذا في وصف الخيل مثال ذلك قوله فى صفة جواده

شققت به الظلماء أدنى عنانه فيطغى وأرخيه مراراً فيلعب

وقال في خيول الحرب

تبارى نجوم القـذف في كل ليـلة نجوم له منهن ورد وأدهم
يطأن من الأبطال من لا حملنـه ومن قصد المران من لا يقوم
فهن مع السـيدان فى البر عسّل وهن مع النينـان فى المـاء عوم
وهن مع الغزلان في الواد كمّن وهن مع العقبـان في النيق حوم

وكذلك ترى الحركة فى وصفه لكلاب الصيد من مثل قوله

نحل كلابي وثاق الاحبل ... عن أشدق مسوجر مسلسل
يعدو اذا أحزن عدو المسهل ... اذا تلا جاء المدى وقد تلى
يكاد في الوثب من التفتل ... يجمع بين متنه والكلكل
وبين أعلاه وبين الأسفل ... لا يأتلى في تركه أن لا يأتلى
مقتحما على المكان الاهول ... يخال طول البحر عرض الجدول
حتى اذا قيل له نلت افعل ... الخ . . . .

وعند ما وصف بحيرة طبرية صورها مز بدة مضطربة وكان في استطاعته أن يصورها هادئة ساكنة ولكن الظاهر أنه يحب الصور المتحركة وهى مظهر الحياة قال

والموج مثل الفحول مزبدة ... تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها ... فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها ... جيشا وغى : هازم ومنهزم

***

يتناول باب الوصف موضوعا جليلا هو وصف الناس وطباعهم وأخلاقهم وحركات نفوسهم . تجد المدح في الحقيقة وصفا للاخلاق الكريمة من كرم وشجاعة وعلم وأدب الى غير ذلك فاقرأ مدح سيف الدولة مثلا تجد وصفا تاما عن رجل الحرب والغارات وعن الرجل المعطاء وعن العالم الخبير بالامور النظر اليه يوم قال له أولى قصائده وفيها

سلكت صروف الدهر حتي لقيته ... على ظهر عزم مؤيدات قوائمه
مهالك لم تصحب بها الذئب نفسه ... ولا حملت فيها الغراب قوادمه
فابصرت بدراً لا يرى البدر مثله ... وخاطبت بحراً لا يرى العبر عائمه

وغاظه من الشعراء أن يقصروا في وصف الامير فقال

غضبت له لما رأيت صفاته ... بلا واصف والشعر تهذى طماطمه

كأنه يقول دعونى أصفه لكم ثم انبرى ينعت اميره :

علي عاتق الملك الأغر نجاده ... وفي كف جبار السماوات قائمه

تحاربه الأعداء وهي عبيده ... وتدخر الأموال وهي غنائمه
ويستكبرون الدهر والدهر دونه ... ويستعظمون الموت والموت خادمه

وفي بدر بن عمار

هان على قلبه الزمان فما ... يبين فيه غم ولا جذل
تعرف في عينه حقائقه ... كأنه بالذكاء مكتحل
أشفق عند اتقاد فكرته ... عليه منها أخاف يشتعل

فهل ترى في صفة الذكي أصح من هذا الوصف ؟ أنظر اليه أيضاً كيف يصف ممدوحا آخر يحب الرمي بالنشاب ويتعاطاه :

وقالوا ذاك أرمى من رأينـا ... فقلت رأيتم الغرض القريبا
وهل يخطي بأسهمه الرمايا ... وما يخطي بما ظن الغيوبا
اذا نكبت كنائنه استبنا ... بأنصلها لأنصلها ندوبا
يصيب ببعضها أفواق بعض ... فلولا الكسر لاتصلت قضيبا
بكل مقوم لم يعص أمراً ... له حتى ظنناه لبيبا

ومن أراد وصف البخيل او المشوه الخلقة فليراجع أهاجي شاعرنا في كافور ومن أراد ان يعرف صفة البغي فليقرأ قصيدة ضبة او قصيدة ابن كيغلغ

وهناك نوع من الوصف سأعرض له في باب الشعر الحكمي ذلك هو وصف الحالات النفسية لأن علم الأخلاق — كما يقول العارفون — أقرب الى الحكمة منه الى الأدب

القسم الثالث .

الشعر الفلسفي

يخيل الي ان هذه التسمية من قبيل الجمع بين الأضداد اذ ان وصف الشعر بأنه فلسفي او وصف الفلسفة بأنها شعرية من قبيل انكار الصفة كقولك عذب أجاج أو بارد حار او ابيض أسود او غير ذلك من التآليف المتناقضة بطبيعتها . كيف يجتمع

الشعر وهو خيال محض والفلسفة وهي تفكير صرف[1] ؟ ومن أجل ذلك نزه الله تعالى مقام النبوة عن الشعر بقوله « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » وبرأ منه كتابه الكريم بقوله « وما هو بقول شاعر » وكلتا الآيتين على تمام الاتفاق مع قوله « والشعراء يتبعهم الغاوون » ومع ذلك فقد اعتدنا سماع هذا التعبير وليس بين أهل الأدب أو أهل الحكمة من ينكره او يعترض عليه أى اعتراض !

ولكن حديث « ان من البيان لسحراً وان من الشعر لحكمة » ـ أو لحكما[2] ـ يفسر لنا ذلك الجمع الغريب ـ ومعناه كما أفهمه : ان من البيان ، من الكلام الفصيح الواضح الصريح ماهو كالسحر أى ما يوجب الشك والحيرة ويظهر خلاف ما يبطن ويوقع فى النفوس القلق والاضطراب . قال تعالى فى سَحَرة فرعون « فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم »

فالمعنى في مجموعه عن الشق الأول من الحديث الشريف ان من البيان الذى من شأنه الظهور والوضوح قد يجىء ما من شأنه اللبس والخفاء (هذا الشق ليس موضع بحثنا) والشق الثانى من الحديث على أسلوب الشق الأول سواء بسواء : ان من الشعر الذى هو مظنة اللهو والعبث والغواية ـ لقوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون » ـ قد يجىء ما فيه الحكمة البالغة والموعظة الحسنة

وقد جاء هذا النظم فى قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة . وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار » أى ان من بين الحجارة

---

(1) *Poèsie Philosophique de Sully-Prud'homme*-Revue des Revues-Juin *1912*

(٢) ص ٢١ ج ٢ كتاب السراج المنير شرح الجامع الصغير للعزيزي مع حاشية الحفنى : « ان من البيان سحرا » « ان من البيان سحرا وان من الشعر حكما » « ان من البيان سحرا وان من العلم جهلا » « ان من الشعر حكما وان من القول عيالا » . ـ وتجد أصل الحديث في كتب التاريخ عند الكلام على الوفود (وفد بنى تميم) « عصر النبوة »

التي من شأنها ومن طبيعتها القسوة والصلابة قد يكون ما هو على خلاف المعهود فيفيض منه الماء

وخلاصة ما تقدم انه قد يصدر عن الشيء المعروف خلاف ما يعهد فيه في الاصل فيجيء من البيان ما يوقع في الحيرة ومن الشعر ما يهدى الى الرشد كما يتفجر الماء من خلال الحجر الأصم

وقد أشير في هذا الحديث من طرف خفي الى ان الشعر ليس فى الأصل من مستودعات الحكمة ولكن قد يجيء منه ذلك على سبيل الاستثناء فمجاله اذن غير مجال الحكمة وطبيعته تخالف طبيعتها .

وتأييداً لهذه الفكرة أورد بعض الماعات موجزة لا تخلو من الفائدة

قال ابن رشيق فى كتابه « العمدة » في باب « اللفظ والمعني » « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر .. . وانما الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع . فهذا هو باب الشعر الذى وضع له وبني عليه لا ما سواه »

وكان أرسطو (الحكيم اليونانى، واضع المنطق) قد قسم « الدليل » الى أقسام عدة منها الشعر والمغالطة (السفسطة) فأخذ الناس بتقسيمه ولكنهم أسقطوا منه هذين النوعين لأنهما ليسا من مسالك الحقيقة ولا مما يهديان اليها

ملاحظة أخرى — اهتم الناس منذ القدم بتقسيم العلوم فعرفنا أنواعا شتي من التقاسيم تذهب الى واضعيها . رأي بيكون الانجليزى ان تقسيم العلوم يجب ان يكون أساسه حدود المناطق الفكرية للانسان وهذه المناطق حسب رأيه ثلاث : الذاكرة والمفكرة والقريحة (الخيال) فجعل العلوم التاريخية من اختصاص الذاكرة . والحكمة وما شابهها في دائرة المفكرة. والادب والشعر من متعلقات الخيال. فصارت العلوم بناء على هذا القول ثلاثة : علوم حفظ وعلوم تفكير وعلوم خيال

واني لا أقرظ هذا التقسيم من حيث هو تقسيم للعلوم وانما استشهد به على اظهار الحدود الفاصلة بين مجال الحكمة ومجال الشعر التي كثيراً ما أشكلت على الناس وغالط فيها أهل الأدب أنفسهم وهم يعلمون — أو لا يعلمون ! ؟ ! —

وما أجمل مغالطة حافظ بك ابراهيم في مقدمة ديوانه حيث قال: «فلو أنهم سألوا الحقيقة ان تختار مكاناً تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر»

وأجمل منها مغالطة السيد البكرى فى كتابه «صهاريج اللؤلؤ» (ص ٤٤) عند ما قال في وصف أحد أفاضل القسطنطينية: «ومن هؤلاء فلان وهو عقل لقمان وحكمة يونان ... قد بذ الأوائل والأواخر، شاعر الا انه فيلسوف وفيلسوف الا انه شاعر، فكره عالم الحقيقة والمثل، لأن الفلسفة شعر الا أنها حقيقة والشعر فلسفة الا أنه خيال» . — ولا أرد على مثل هذه المغالطة بأكثر من ان أقول انها انكار في اقرار واقرار في انكار

***

انى أجل المفكرين عن ان تكون آراؤهم ثمرة مستعارة من غرس غيرهم ويترجح لدىّ ان كل مفكر مهما تشابه مذهبه بمذهب مفكر آخر فان له مميزات خاصة به حتى ولو كان أحدهما قد أخذ مذهبه عن الآخر، وكذلك يخيل الى ان مجموعة أفكار الواحد من هؤلاء لا ينبغى ان ينظر اليها كأنها صحيفة مختارات ،كل كلمة من كتاب، بل يجب ان يؤلف الناقد منها منظومة متماسكة الأطراف مرتبطة الأجزاء تتصل كل فكرة منها بأختها كما يتصل الولد بأبيه والأخ بأخيه حتى تتقرر نسبة كل منها الي الأخري وتثبت فى الأذهان ثبوت الأنساب

من أجل ذلك اجتهدت في ان أؤلف من أفكار أبي الطيب وآرائه مجموعة مرتبة يمكن ان يفهم من جملتها صورة شاملة لما يدور في نفس الشاعر من الخطرات المعدودة في باب التفكير العقلى او الحكمة الأدبية — لأن شعر أبي الطيب حافل بالحكم والأمثال فاذا سردناها حكمة بعد حكمة ومثلا تلو مثل — كما فعل الجرجانى والعكبرى وغيرهما — ألقينا الاضطراب فى ذهن السامع أوعلى الأقل جئناه بفكرات مختلفة كلما وعى واحدة نسى الأخرى

***

من أى حكمة كان يقتبس أبو الطيب ؟ أ كان للعرب حكمة او فلسفة يهتدون بها

في أمور دنياهم وتطمئن اليها أرواحهم فيما يكون بعد الموت؟

يزعم قوم ان العرب وكل السلالة السامية(١) ليس لهم فلسفة . ومن هؤلاء القوم أرنست رينان(٢) المستشرق الفرنسي الذي تكلم عن هذه النقطة في كتابه « تاريخ اللغات السامية ومقارنتها » وأنكر حظ الساميين من العلم والفلسفة وغيرهما من ثمرات المواهب الفكرية بقدر ما وفر من نصيب السلالة الهندية الجرمانية ـ ولم ير في الفلسفة الاسلامية في عصر بني العباس الا فلسفة رومية محررة باللغة العربية وأنها فضلا عن كونها ليست ثمرة الفكر السامي فانها بمثابة مصادمة الروح الهندية الأوروبية الاسلام الذي هو أنقى ثمرات الفكر السامي . ولكنه مع ذلك يرى في السلالة السامية غريزة عظيمة للدين المبني على أساس التوحيد ويعد من مفاخر هذه السلالة السامية انها وصلت منذ أيامها الأولى الى فكرة الألوهية التي أخذتها عنها الشعوب الاخرى واتبعتها حسب تعاليمها السامية

ولا أريد ان أدخل الى مفصلات النزاع بين المؤلفين ولكني أريد ان أعرف هل تلقي شاعرنا أبو الطيب شيئاً من أسرار تلك الرومية التي ألبسوها الثوب العربي أيام العباسيين أم بقي على ساميته الدينية الواضحة البيان الضيقة الأرجاء كما زعم رينان، تلك السامية التي وقفت عند الوحدة ولم تعدها الى الكثرة قائمة بالمبادئ المقررة دون

---

(١) الساميون (نسبة الى سام بن نوح) شعوب متعددة مقرها جنوب آسيا الغربي وجزء من افريقيا (الحبشة) ظهرت لهم مدنيات عظيمة وقامت منهم دول كبرى : آشور واليهود والفينيقيون والعرب ـ والاديان التي يعتنقها السواد الاعظم من سكان العالم (اليهودية والنصرانية والاسلام) اديان سامية كل منها يعترف بسابقه ويأخذ منه ـ وأحدثها وهو الاسلام يدعو الى ملة ابراهيم عليه السلام

(٢) Ernest Renan يسميه اليسوعيون بالملحد الأكبر لأنه كان من رجال الدين وشذ عنه والف عن المسيح عليه السلام كتابا لايوافقه عليه المتدينون ولكنه كاتب مفكر ومن المشهورين في اللغات السامية

ان تهتم بالتدقيق فى أسرار الكائنات — والظاهر أن شاعرنا لم يستعر من تلك الرومية الا بعض ألفاظ كجالينوس وابقراط ولم يعرف عن الهندية او الفارسية أو ما وراءها الا «المانوية» لفظاً عاماً او تعريفاً سطحياً وزواج الأخت عند المجوس في قوله في الهجاء

برتو اليك مع العفاف وعنده ان المجوس تصيب فيما تحكم

هذا ما تعثر عليه في شعره — وهناك دليل آخر علي بقاء أبي الطيب فى دائرة الساميين وهو ميله لضرب الأمثال فان هذا الفن من خصائص هذه السلالة التي هى شعب الله وقد تمت منه التعاليم اللازمة عن أصل الانسان ومصيره وواجباته في الحياة الدنيا وجزائه في الآخرة

من مميزات الآداب السامية ضرب الأمثال . فعند العبرانيين مثلا تعد «حكم سليمان» أثراً كبيراً . ومكانة «الأمثال» عند العرب لا يمكن انكارها . فالمتنبي من هذه الجهة شاعر عربي سامي وجبت محبته علي العرب والساميين

***

فلسفته وآراؤه

لقد يكون من التسرع والاندفاع ان تنسب الحكمة لأبي الطيب من أجل ألفاظ وردت في شعره يحاكي بها أقوال المنطقيين وأصحاب الكلام أو من أجل أبيات أشار فيها الى مسائل في الفلسفة .

على أن شاعرنا قد أكثر في الواقع من استعمال تلك الألفاظ والاشارة الى تلك المسائل تصريحاً وتلميحاً . فيلتمس اذن بعض العذر لمن يسمى أبا الطيب حكيما أو فيلسوفاً بناء على الاعتبارات المتقدمة دون غيرها

واليك بعض الشيء مما جاء فى كلامه من الفاظ المناطقة :

ولقد رمت بالسعادة «بعضا» من نفوس العدى فادركت «كلا»

ثناك الذى يثنى بجودك خلقه فانك بحر «كل» بحر له «بعض»

يفني الكلام ولا يحيط بفضلكم أيحيط ما «يفني» بما «لا ينفد»

فلم ندع منها سوى المحال في « لامكان » عند « لا منال »

ومن هـذا القبيل ان شاعرنا يذكر أسماء المعروفين في العلم والفلسفة ولو أنه لا يشير في غالب الأحيان الى مبدأ من مبادئهم . فمن ذلك قوله

من مبلغ الاعراب انى بعـدها شاهدت «رسطاليس» و«الاسكندرا»
وسمعت « بطليموس » دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا

لما رأيت دواء دائي عندها هانت عليّ صفات « جالينوسا »

يموت راعي الضأن في جهله موتة « جالينوس » في طبه

اذا داء هفا « بقراط » عنه فلم يعرف لصاحبه ضريب

وفي وصف عقر الكلب للظبي

علّم « بقراط » فصاد الأكحل فحـال ما للقفز للتجـدل

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر ان « المانوية » تكذب

أما مسألة الفلسفة بمعنى العلم الالهي او العلم الأعلى كما يقول أصحاب هذا الفرع من المعرفة فقد ذكر منها شاعرنا شيئا ليس بالقليل ولا بالكثير . فوجب اذن ان ينظر اليها بعين الحكم العدل فلا تبخس قدرها ولا تعطى فوق ما تستحق

ان المسائل المهمة في الفلسفة بالمعنى المتقدم تكاد تكون محصورة معدودة على ما يظن غالب الناس حتى أن من تكلم في احداها حسبه الجمهور فيلسوفا ـ فمن هذه المسائل مسألة الروح وخلودها مثلاً فاذا رأينا أبا الطيب يقول :

تخـالف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

فهل نحكم عليه بأنه أراد ان يخوض في تلك المسألة المعضلة ؟ ـ واذا وزنا قوله :

تبخل أيدينا بأرواحنـا على زمان هنّ من كسبه

فهذه الارواح من جوه   وهـذه الأجساد من تربه

فهل نحسبه بهذا القول يشرح عنصر الروح وعنصر البدن و يبين أصل كل منهما وكيف اتصل الواحد بالآخر وان الأول سماوى والثانى أرضى فاجتمع العلوى بالسفلى . ـ واذا دققنا النظر في قوله :

تمتع من سهاد او رقاد   ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى   سوي معنى انتباهك والمنام

فهل نقول بأن الشاعر يقصد الحشر وما وراء الموت ؟ . ـ واذا تأملنا قوله :

انعم ولذ ـ فللأمور أواخـر   أبداً اذا كانت لهن أوائل ـ
ما دمت من ارب ا لحسان فانما   روق الشباب عليك ظل زائل

ذر النفس تأخـذ وسعها قبل بينها   فمفترق جاران دارهما العمر
تمتع من سهاد او رقاد الخ . . . .

فهل ينبغى لنا ان نعـده من أتباع (ابيقور) الفيلسوف اليونانى المشهور القائل بمبدأ اللذة وان الحصول عليها انما هو أعظم خير للانسان ؟

واذا فحصنا بيتيه المشهورين :

وكم لظلام الليـل عندك من يد   تنبىء ان المـانوية تكـذب
وقاك ردى الاعداء تسرى اليهمو   وزارك فيه ذوالدلال المحجب

فهل يجوز لنا ان نقول بان الشاعر شرح مبدأ (مانى) المجوسى القائل بان النور آله الخير والظلام آله الشر ورد على مذهبه ؟

يجب ان نسائل أنفسنا كثيرا قبل ان نجيب(١)

---

(١) يظن كثير من الناس أن الفيلسوف من يستخف بالاديان والعقائد . فاذا تمشينا مع هذا الزعم اعترفنا لشاعرنا بالحكمة بلا تردد لانه أكثر في شعره من الاستهانة بامور تمس الايمان من قريب ـ من ذلك قوله وقـد تغالى في المبالغة واغرق :

لو كان علمك بالاآه مقسما   في الناس مابعث الاآه رسولا

أظن ان هذه المتفرقات الصغيرة اذا اجتمعت الواحدة بجانب الأخرى تنهض دليلا على ان الشاعر قصد الكلام في الفلسفة النظرية . ولكن هل يفيد هذا الدليل انه فيلسوف بالفعل يستحق بهذه المجموعة من الأقوال ان يقف في مصاف الفلاسفة وان يحشر في زمرة الحكماء ؟

اذا كانت الفلسفة — كما يقول المشتغلون بها — نظرية وعملية فان أبا الطيب لم يحرز قصب السبق في الأولى ولكنه كان في الثانية أصدق نظراً وأبقى أثراً : — انه دقيق النظر ، كثير الاستنتاج ، ماهر في التوليد ، غزير المادة في ضرب الأمثال وقياس الأشباه بالأشباه : وهو فوق ذلك من أكبر الوصافين — فلا غرو ان أجاد في تصوير الحالات النفسانية ومظاهر الأخلاق وتقريب المعاني البعيدة الى متناول الناس أجمعين — من أجل ذلك لا ينبغي ان نستغرب رواج شعره وانتشار ذكره في كافة الأصقاع —

حكي عن رجل من مدينة السلام كان كلما وصل بلداً سمع بها ذكر أبي الطيب رحل عنها حتى اذا وصل الى أقصى بلاد الترك فسأل عن أبي الطيب فلم يعرفوه . فتوطنها . فلما كان يوم الجمعة ذهب الى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ذكر

لو كان لفظك فيهمو ماانزل الــــفرقان والتوراة والانجيلا

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما اتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لاعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ماانشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فكان العالمون مجوسا

لنا مذهب العباد في ترك غيره واتيانه نبغي الرغائب بالزهد
رجونا الذي يرجون في كل جنة بارجان حتى مايئسنا من الخلد

ان كان مثلك كان أوهو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام

يترشفن في فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

أسماء الله الحسنى قول أبي الطيب

أساميا لم تزده معرفة وانما لذة ذكرناها

فعاد الي دار السلام(١)

وحكي الربعي: «قال لي بعض أصحاب ابن العميد قال دخلت عليه يوما قبل ان يتصل به المتنبي فوجدته واجما وكانت قد ماتت أخته عن قريب فظننته واجدا لأجلها فقلت لا يحزن الله الوزير فما الخبر؟ قال انه ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في ان أخمد ذكره فقد ورد علي نيف وستون كتابا في التعزية ما منها الا وقد صدر بقوله

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي الي الكذب

حتي اذا لم يدع لي صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الي اخماد ذكره؟ فقلت له القدر لا يغالب، الرجل ذو حظ في اشاعة الذكر واشتهار الاسم فالأولي ان لا تشغل فكرك بهذا الامر» (٢)

فالحقيقة ان شاعرنا لم يرزق الحظ وحده كما يقول ذلك الراوي ولكنه رزق المعرفة وأوتى الحكمة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً»

يقول علماء النفس والأخلاق ان الكذب لا يكون بالقول فقط بل يكون بالفعل أيضا ويختصون النساء بنصيب أوفر من نصيب الرجال من هذا الداء ولكن شاعرنا قد سبقهم الي الاهتداء الي القاعدة وأجاد في شرحها فقال

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

أين المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطيب؟

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهن صقيلات العراقيب

ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب

---

(١) و(٢) الصبيح المنبي ص ٢٠٧ و ١٨٢ ـ ١٨٣ ج ١

ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعرفي الرأس مكذوب

فقد مزج معنيين مختلفين او فكرتين متباينتين احداهما شعرية أدبية وهي غرامه بالبدويات والأخرى فلسفية خلقية وهي الكذب والتصنع في المرأة الحضرية .وأولى بهذه الأبيات ان تدرس في كتب الأخلاق : صور تصنع المرأة الحضرية وكذبها في حركاتها وأفعالها وتحايلها على التجمل بأنواع التطرية والتطييب والتلوين والتمويه ومضغ الكلام ثم وقف موقف المعلم الصادق الذى يعمل بما يعلم .—وللأدباء كل العذر في عد هذه الأبيات من الغزل لأن الشاعر قد ألف بين معنيين متنافرين ومزجهما مزجا محكما « فتشابها وتشا كل الأمر »

لا يستطيع الشاعر ان ينظم فصولا مطولة في علم الأخلاق واصوله وان فعل ذلك فقد ضاعت لذة الشعر ولم نقع منه الا على منظومات ثقيلة باردة يمجها الذوق وينبو عنها السمع — كمنظومات النحو والفقه — وليس فيها من الشعر الا الوزن والقافية ولذلك فان الشاعر الحكيم عند ما يريد ان يخاطب الناس ويلقى عليهم درسا في الأخلاق مثلا فانه يتحين الفرص المناسبة ويتحايل على استجلابها ثم يدس تلك المبادئ المرة بين كلماته الحلوة

من أجل ذلك أرانى أفضل اشارات شاعرنا الموجزة على شروحه المطولة وأجده في الشطرة الواحدة أو البيت الواحد اصنع منه واحكم فى الابيات التى يسلسل بعضها فى أثر بعض كقوله

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم
ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم
والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق ينسى الذى يولى وعاف يندم
لا يخدعنك من عدو دمعه وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتي يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

فهذه قطعة مقتضبة من احدى قصائده لا تجد ما يربطها بما قبلها ولا بما بعدها

فضلا عن ان معانيها المختلفة لا رابطة بينها اللهم الا أنها مواعظ ووصايا ـ ولكنها في مجموعها جيدة تعد من محاسن الشاعر ولا يجهلها منتسب الى الأدب وهي كأنها درة ثمينة سقطت في وسط أقـذار لأنها حلقة في غير محلها من حلقات قصـيدة هجائية ملئت فحشاً لا يليق بكرامة شاعرنا الحكيم. ـ مثال آخر:

ابني أبينا ! نحن أهل منازل   أبداً غراب البين فيها ينعق
نبكي على الدنيـا وما من معشر   جمعتهـم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبـابرة الأولى   كنزوا الكنوز فمـا بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضـاء بجيشه   حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خـرس اذا نودوا كأن لم يعلموا   ان الكلام لهم حلال مطلق
فالموت آت والنفوس نفائس   والمستغر بما لديه الأحمق
والمرء يأمل والحياة شهية   والشيب أوقر والشبيبة أنزق

فهـذه أيضاً سلسلة أفكار ومجموعة خطرات جاءت في خلال قصيدة مدح مع أنها أشبه شيء بما يقال في المراثي أو على قبور الأموات

ما أحكم أبا الطيب حين يجيء بالمبدأ الخطير اوالقاعدة الخلقية او الاشارة الأدبية يستطرد اليها بالحيلة والدهاء كما يقول هو « ان الكريم على العلياء يحتال »

أنظر اليه وهو يصف الحرب وأدواتها والعسكر والخيل وغير ذلك في قوله

وكل فتى للحرب فوق جبينه   من الضرب سطر بالأسنة معجم
يمد يديه في المفاضة ضيغم   وعينيه من تحت التريكة أرقم
كأجناسها راياتها وشعارها   وما لبسته والسلاح المسمم
وأدبها طول القتال فطرفه   يشير اليها من بعيد فتفهم
تجاوبه فعلا وما تسمع الوحي   ويسمعها لحظاً وما يتكلم
لها في الوغى زي الفوارس فوقها   فكل حصان دارع متلثم

لا أظن ان واحداً من الوصافين يستطيع ان يعيب شيئاً من هذا الوصف المحكم الذي صور فيه الشاعر موقف الجندي وحالته النفسية وملبسه من درع وخوذة وصور

الخيل وآدابها وقائدها وزيها — ولكن مقدرة أبي الطيب تظهر في الاشارة الصغيرة التي جاء بها بعد الوصف وهي قاعدة حكيمة في السياسة والتدبير . قال :

وما ذاك بخلا بالنفوس على القنا (ولكن صدم الشر بالشر أحزم) (١)

هذه الصناعة أراها أدق وأصعب من سرد الحكم والمواعظ والوصايا لأنها تحتاج الى ذوق سليم سيما وان تحين الفرص مما لا يوفق اليه كثير من الناس

لقد وجد بين شعراء العربية من وهبوا مزية نظم الحكم والمواعظ من أمثال ابن الوردي والطغرائي ولكن الفرق بينهما وبين أبي الطيب ظاهر اذ انه لا يقصد الى نظم الحكمة بالذات وانما يستطرد اليها ويجيء بها في أشكال مختلفة وفي مواضع ليست من مظان وجودها . أنظر اليه وهو يخاطب معشوقته في ساعة غيه وضلاله كيف استطاع ان يحتال على أكبر معاني الصوفية والزهاد قال

زوّدينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الد نيا (فان المقام فيها قليل)

---

(١) مثال آخر . قال يصف مليحة سقته خمراً (قطربليا) وأغيد غناه ووقع على العود (والظاهر أن الموضوع تخيل غزلى) :

سقتنى بها القطربلى مليحة على كاذب من وعدها ضوء صادق
سهاد لاجفان ، وشمس لناظر وسقم لابدان ، ومسك لناشق
وأغيد يهوي نفسه كل عاقل عفيف ويهوى جسمه كل فاسق
أديب اذا ما جس اوتار مزهر بلا كل سمع عن سواها بعائق
يحدث عما بين عاد وبينه وصدغاه في خدي غلام مراهق

ثم ضرب المثل فى حسن الخلقة وجمال الاخلاق والافعال فقال

(وما الحسن فى وجه الفتى شرفا له اذا لم يكن في فعله والخلائق)

مثال آخر أيضا . في سيف الدولة

احبك ياشمس الزمان وبدره وان لامنى فيك السهى والفراقد
وذاك لأن الفضل عندك باهر وليس لان العيش عندك بارد
(فان قليل الحب بالعقل صالح وان كثير الحب بالجهل فاسد)

مثال آخر : قال يصف جواده

شققت به الظلماء أدنى عنانه فيطغى وأرخيه مراراً فيلعب

وأصرع أى الوحش قفّيته به وأنزل عنه مثله حين أركب

فوضع الحسن فى صنعته انه خرج من وصف جواده الى ذكر الصديق فقال

(وما الخيل الا كالصديق قليلة وان كثرت في عين من لا يجرب)

مثال آخر أيضاً :وصف الشاعرشعب بوان الذى تقدم ذكره ثم أعقبه بقول جواده

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار الى الطعان ؟

أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان !

فأشار فى البيت الأخير الي مسألة يصعب الكلام فيها وهى خطيئة أبي البشر آدم عليه السلام ـ ولقد استطاع شاعرنا ان يذكر الحادثة ويؤديها أداء حسنا راجعا الي أصل الخطايا بطريق التهكم الظريف ولم يجعل الكلام على لسانه وانما أورد الفكرة على لسان جواده تحاشيا من التعرض لموضوع يمس الناس أجمعين

***

يظن بعض الادباء من أهل عصرنا ممن لا يقرون لابى الطيب بفضل أنه نظام حكم وضراب أمثال . ـ لو صح هذا الرأى في حق شاعرنا لوجب أن نحكم به على زهير بن أبي سلمى الجاهلى لانه نظم حكما وأمثالا في معلقته المشهورة منها

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

واعلم مافي اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم مافي غد عم

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

الى آخر ما قال . وفي القصيدة عشرة أبيات متوالية تبتديء كلها بمن وظاهر فيها أثر الهوة العظيمة التى تفرق بين الشعر والحكمة . فهل أنكر أهل الأدب على زهير فضله فى الشعر من أجل تلك المواعظ ؟

ان صح ذلك القول من أدباء عصرنا فى حق أبى الطيب فهذا جزاء وفاق له ان

صح أنه أنكر فضل الشعراء الذين اقتدى بهم وفي مقدمتهم أبو تمام (١)

* * *

لأبي الطيب آراء وأفكار نجدها مبعثرة في ديوانه تجيء مرة بلا مناسـبة ومرة أخرى على سبيل الاستطراد وآنا يبتدىء بها قصائده واحيانا يسلسلها آخذة بعضها برقاب بعض في جزء كبير من القصيدة . تلك المعاني لو جمعت ورتبت لكانت صحيفة مفعمة بالشكوى من كل شيء في هذا الوجود واتهام كل فريق على حدته من أهل البسيطة . من أجل ذلك أقدمت على تصوير تلك الصحيفة وتحديد مواضيعها بالايجاز وسميتها صحيفة الاتهام

كأنما وقف شاعرنا موقف رجال الاتهام في ايامنا يسرد السيئات و يتلمس السقطات

لايرضى شاعرنا عن شيء مما في هذا العالم فهو يشكو من نظامه و يشكو من أهله رجالا ونساء و يشكو من قضائه وقدره الا انه يستثني نفسه أحيانا ولكنه يدخلها بعض الاحيان ضمن دائرة الشكوى . وما أصدقه حين يقول

---

(١) نقل مؤلف الصبح المنبى عن الحاتمي أثناء محاورته المشهورة عبـارة عزاها للمتنبي « فما زاد على أن قال اكثرت من ابى تمام فلا قـدس الله روح ابى تمام » (ص ١٦٩ ج١) ـ ونقل أيضا : « روي الخالديان ان بعض من كان يحسد ابا الطيب حكى عنه انه كان يضع من الشعراء المحدثين .....فربما قال انشدونى لابى تمام شيئا حتى اعرف منزلته من الشعر ... وتذاكرنا ليلة في مجلس سيف الدولة بميافارقين وهو معنا فانشد أحـدنا لمولانا أيده الله شعرا له قـد ألم فيه بمعني لابى تمام فاستحسنه مولانا أدام الله تأييـده واستجاده واستعاده فقال أبو الطيب هذا يشبه قول أبي تمام وأتى بالبيت المأخوذ عنه المعني فقلنا له قد سررنا لابى تمام اذ قد عرفت شعره فقال أويجوز للاديب الا يعرف شعر ابى تمام وهو استاذ كل من قال الشعر بعده ؟ فقلنا له انك تقول كيت وكيت فانكر ذلك . وما زال بعد ذلك اذا التقينا ينشدنا بدائع أبي تمام . وكان يروى جميع شعره » (ص ١٧٣ ج ١)

ألا ليت شعرى هل أقول قصيدة　　فلا أشتكى فيها ولا أتعتب؟

ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبه　　انى بما أنا باك منه محسود!

نه غير راض عن قومه راض عن نفسه :

أنا في أمة تداركها　　الله　　غريب كصالح في ثمود

فؤاد ماتسليه المدام　　وعمر مثل ماتهب اللئام

ودهر ناسه ناس صغار　　وان كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم　　ولكن معدن الذهب الرغام

أرى أناساً ومحصولى على غنم　　وذكر جود ومحصولى على كلم

مازلت أضحك ابلى كلما نظرت　　الى من اختضبت اخفافها بدم

أسيرها بين أصنام أشاهدها　　ولا أشاهد فيها عفة الصنم

انه غير راضي عن كل أهل الزمان

اذم الى هذا الزمان اهيله　　فاعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وأكرمهم كلب وأبصرهم عم　　وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى　　عدواً له مامن صداقته بد

وقد انكر وجود الصديق ، والصداقة بالعلم، في قوله

خليلك انت، لا من قلت خلى　　وان كثر التجمل والكلام

ولما صار ود الناس خباً　　جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك في من أصطفيه　　لعلمى أنه بعض الانام

اذا ما الناس جربهم لبيب　　فانى قد أكلتهم وذاقا

فلم أر ودهم الا خداعا　　ولم أر دينهم الا نفاقا

انه غير راض عن أهل عصره ويسفه نفسه في دعوتهم الى الخير، لانهم لا يعقلون :

وانما نحن في جيل سواسية　　شر على الحر من سقم على بدن

حولى بكل مكان منهم خلق　　تخطى اذا جئت في استفهامها بمن

لا أقترى بلدا الا على غرر ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من املاكهم ملكا الا أحق بضرب الرأس من وثن
انى لاعذرهم مما أعنفهم حتى أعنف نفسي فيهم وأنى
فقر الجهول بلا قلب الى أدب فقر الحمار بلا رأس الى رسن

انه غير راض عن أحد كما قدمت ولكنه زادفقال انه غير راض عن نفسه :

أريك الرضا لو اخفت النفس خافيا وما انا عن نفسى ولا عنك راضيا

وفى بعض الاحيان يخفف من لهجته في الطعن على الناس عامة فيقول مثلا

غيرى (باكثر) هذا الناس ينخدع ان قاتلوا جبنوا او حدثوا شجعوا
أهل الحفيظة الا أن تجربهم وفى التجارب بعد الغى ما يزع

انه غير راض عن « الزمان والمكان » كما يجرى ذلك التعبير على الالسنة

اما فى الدنيا كريم تزول به عن القلب الهموم؟
اما في هذه الدنيا « مكان » يسر بأهله الجار المقيم؟

أنه غير راض عن الدهر وأفاعيله ولا الايام وتصرفاتها حاقد عليها يتميز من الغيظ كلما خطر بباله حادث ويرى أن كل ما في الزمن عدو له حتى مظاهر الطبيعة التى تسرى عن القلب الهموم

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وان سر بعضهم أحيانا

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه الى النسل

من خص بالذم الفراق فانني من لا يرى في الدهر شيئا يحمد

فما ترجى النفوس من زمن أحمد حاليه غير محمود؟

قبحا لوجهك يا زمان ! فانه وجه له من كل قبح برقع

وغيظ على الايام كالنار في الحشا ولكنه غيظ الاسير على القد

وقـلة ناصر جوزيت عنى   بشر منك يا شر الدهور!
عدوى كل شيء فيك. حتى   خلات الاكم موغرة الصـدور

وفى بعض تمثيلاته يصف الليل .

كان الجو قاسى ما اقاسى   فصار سواده فيـه شحوبا
كأن دجاه يجذبها سهادى   فليس تغيب الا ان يغيبا
اقلّب فيـه اجفانى كأنى   (اعدّ به على الدهر الذنوبا)

وفي مواضع مختلفة يحقد على الدنيا وينعتها بكل مكروه

فذى الدار أخون من مومس   واخدع من كِفة الحابل
تفانى الرجال على حبها   وما يحصلون على طائل .

ولو جاز الخـلود خلدت فردا   ولكن ليس للدنيا خليل

وهي ممشوقة على الغدر   لا تحفظ عهدا ولا تتمم وصلا

شيم الغانيات فيها . فما أدرى   لذا أنث اسمها النـاس ام لا

شكواه من الناس انهم خبثاء ، أدنياء ، جبناء ، الى غـير ذلك من الاوصاف التي تقدمت . أما شكواه من الايام فلأنها تعاند الاحرار وأولى العزائم وتحابي الاسافل والجهلاء . يقول فى ظلم الاقدار :

ويختلف الرزقان والفعل واحـد   الى أن يُري احسانُ هذا لذا ذنبا

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب!   فكل بعيد الهم فيها معذب

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى   بأصعب من أن أجمع الجد والفهما

أفاضل الناس اغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفِطن

انه غير راض عن النساء يتهمهن بالغدر وقد سبقت الاشارة الى ذلك في شكواه من الدنيا اذ يقول بان فيها صفة النساء ولا يدري هل لهذا السبب أنث الناس اسم الدنيا أم لسبب آخر

ذا غدرت حسناء وفّت بعهدها   فمن عهدها ان لا يدوم لهـا عهد

ومن خبر الغواني فالغواني   ضياء في بواطنه ظلام

وفي موضع آخر يشير الى غدر سيف الدولة يقول لو أن ذلك الفعل صدر من امرأة لعذرتها لأن الغدر من شيمها

فلو أن ما بي من حبيب مقنّع   عذرت ولكن من حبيب معمّم

وله شطرة أخرى في هذا المعنى « ان الملاح خوادع قُتَّل »

من هذه الاقوال المتفرقة يستنتج الناقد أمرين: الأول ان أبا الطيب كان كئيب المزاج وهذا شيء ربما يرجع الى طبعه وفطرته ، الأمر الثاني أنه من المتطيرين الذين يسيئون الظن بكل مافي هذا الوجود وهذا ربما يرجع الى رأيه وتجاربه . ومن هاتين الفكرتين تولدت في نفس أبي الطيب الجافية خطة سيره في الحياة . واذ قدمنا ان أقواله المختلفة تعتبر بمثابة صحيفة اتهام كانت خلاصتها والنتيجة التي توصل اليها بمثابة الحكم الذي يستصدره على الناس وعلى الايام . وقد رسم هذه الخطة بما لا مزيد عليه من الوضوح ونادى بطابع الحكم غير قابل رحمة ولا عطفاً فقال :

ومن عرف الايام معرفتي بها   وبالناس (روّى رمحه غير راحم)

هذا كان رأي شاعرنا . وانه لرأي العتاة الجبابرة ، وهو بالطبع لم يوفق الى تحقيقه وقدعلم بعد طول الممارسة أنه لاسبيل الى الوصول الى تحقيقه فوجب اذن أن يجدلنفسه رأيا آخر يوطنهـا عليه يكون أقرب لرأيه الاول ، فخرج من هذا المعترك النفساني بعقيدة فلسفية ، ان شئت ان تسميها كذلك ، تكادتكون عقيدة الرواقيين من حكماء اليونان. ولكني أرى أن هذه كانت عقيدته فيما يكتب فقط لانه قد شذ عنها كثيراً في أفعاله.

رأي الرواقيين أو أصحاب المظال أو أصحاب الاسطوانة (شيمة زينون) يحض على الصبر والجلد والثبات ، وما عدا ذلك من الصفات يعد نقيصة في هذا المبدأ.

هـذا الرأي يولد في النفس شيئا من الزهد مع احتمال الشدائد بلا تذمر . وقد أفصح شاعرنا في مواضع كثيرة عن هذا الرأي فقال :

ولو ان الحياة تبقى لحيّ   لعددنا أضلنا الشجعانا

واذا لم يكن من الموت بد　　فمن العجز ان تكون جبانا
كل مالم يكن من الصعب في الأنفس سهل فيها اذا هو كانا

الحياة ظل زائل ، كتب الموت فيها على كل حي، فلا مفر منه ، لا للشجاع ولا للجبان . اذاً فلا معنى للجبن . أما اذا كان في الاستطاعة تأخير الاجل بالاستكانة فما أجهل الشجاع المقدام . . . اذا وقع الصعب احتملته النفس بعد وقوعه، فاذا كان في استطاعتها ان تحتمله بعد ، فلماذا تهرب منه قبل ؟

اذا غامرت في شرف مروم　　فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير　　كطعم الموت في أمر عظيم
يرى الجبناء أن العجز عقل　　وتلك خديعة الطبع اللئيم

وفي قصيدة أخرى جاء بمعنى أرقى، فأنكر على الناس ما يبدونه من الاسى على فراق موتاهم كما أنكر غضاضة الموت قائلا بأن الناس الفوا الحياة (ورمزلها أو كنى عنها باستنشاق الهواء)ولذلك فانهم زعموا ان الموت مر. والحقيقة أنه لامعنى للحزن في أى حال من الاحوال لأنه عجز قبل حدوث الموت ولأنه لافائدة من ورائه اذا حان الحمام :

إلفُ هذا الهواء أوقع في الأنفس　　ان الحمام مر المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجز　　والأسى لايكون بعد الفراق

هذا المبدأ الاساسى هو الذى أوحى اليه المعاني المتفرقة التى تصادف في خلال قصائده من أمثال قوله

ألا لا أرى الاحداث(١) مدحاً ولا ذما　　فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

لاتلق دهرك الا غير مكترث　　مادام يصحب فيها روحك البدن
فما يديم سرور ما سررت به　　ولا يرد عليك الفائت الحزن

انه يستخف بالزمن يقول له انك تستطيع ان تفعل بجسمى ما تشاء من الوهن وأن تهد أركانه بالشيب ولكن لا سبيل لك الى نفسى فانها لا ينالها سلطانك وأنها ستبقى فتية قوية في هذا البدن الضعيف البالى:

---

(١) يقصد الحوادث والمصائب

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو أن مافي الوجه منه حراب
لها ظفر ان كَلَّ ظفر أعده وناب اذا لم يبق في الفم ناب
يغير مني الدهر ما شاء بعدها وأبلغ أقصى العمر وهى كعاب

وفي خلال الحديث ذكر مثالا عن جلده وقوة نفسه فقال :

وأصدى فلا أبدى الى الماء حاجة وللشمس فوق اليعملات لعاب

ويقول مثل هذا القول في قصيدته التي وصف فيها الحمى التي أصابته وهو بمصر :

فان أمرض فما مرض اصطباري وان أحمم فما حم اعتزامي
وان أسلم فما أبقي ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

وقد وصف أحد ممدوحيه بصفة هي خلاصة هذا المبدأ فقال :

هان على قلبه الزمان فما يبين فيه هم ولا جذل

ومما يبرر مذهبه

رماني الدهر بالارزاء حتي فؤادى في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالي بالرزايا لأنى ما انتفعت بأن ابالى

هذه هي النتيجة الواقعة التي توصل اليها الشاعر « ما انتفعت بأن ابالى » مثل هذه النتيجة أيضاً قوله :

قد ذقت شدة أيامي ولذتها (فما حصلت على صاب ولا عسل)

كان رأيه نتيجة تجاربه كما يدعي و يزيد ذلك وضوحا قوله

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهتني لم تزدنى بها علما

وما أصرحه حين يقول :

كذا أنا يادنيا ! اذا شئت فاذهبي ويانفس زيدى في كرائهها قدما

وانا لنلقي الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا ان تصاب نفوسنا وتسلم اعراض لنا وعقول

فلا غرابة اذاً بعد هذا البيان ان يجيء شاعر بغاية الغايات فى الحض على اعزا

النفس وحفظ كرامتها ما دامت الحياة عارية ، ومادام الهلاك مكتوبا على كل موجود وما دامت المبالاة لاطائل من ورائها ، وما دام المرء لا يحصل مما يعانيه فى الحياة على شيء ما « لا صاب ولا عسل » فهو قد أحسن الاستنتاج حين قال

عش عزيزاً أومت وأنت كريم　　بين طعن القنا وخفق البنود
فاطلب العز فى لظى ودع الذل　　ولو كان في جنان الخلود

ردى (حياض الردى) يانفس واتركي　　(حياض خوف الردى) للشاء والنعم

* * *

لابي الطيب ساعات ينزع فيها منزع الصوفية وطلاب الآخرة . وأكثر ما تكون تلك الساعات عند ما ينظم المراثى حتى لكأن روعة الموت تصرع نفسه العاتية ولكن تلك النفس المستعصية لاتلبث ان تستعيد قوتها ثم تنظر الي ذلك الموت نظر المستخف به الهازيء بصولته . علي أنه يحكم الصناعة ويجيد ربط هذين المعنيين المتنافرين : معنى هول الموت ومعنى الاستخفاف به ، لأنه لا مفر منه ولانه عارض قهرى لابد لكل واحد من الاحياء ان يحتمل وقعه فيخرج السامع لشعره من هذا التأليف المحكم بمعنى ثالث هو أشبه شيء بالتزهيد في الدنيا مع الحض على طلب المحامد والمفاخر وتقضية أيام الحياة كما يرضى الشمم والاباء . وليس للصوفية مرمي فى تقويم الاخلاق غير هذا مثال ذلك قوله في هيبة الموت وضعف الانسان :

لابد للانسان من ضجعة　　لاتقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه　　وما أذاق الموت من كربه

ثم ينتقل الى المعنى الثاني فيستغرب التهيب من الموت :

تبخل أيدينا بأرواحنا　　على زمان هن عن كسبه
فهذه الارواح من جوه　　وهذه الاجساد من تربه

ثم يستخف بالحياة ويزهد فيها ويأمر بالصبر والجلد وهو في آن واحد يستخف بالموت ويهونه على نفس السامع :

لو فكر العاشق فى منتهى　　حسن الذى يسبيه لم يسبه

يموت راعي الضأن في جهله موتة (جالينوس) في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سربه

ثم يصل أخيراً الى النتيجة التي قدم لها هذه المقدمات :

وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
(فلا قضى حاجة طالب فؤاده يخفق من رعبه)

هذه هي الغاية التي يقصد اليهـا شاعرنا. فلاغرابة ان كثر في شعره ذكر الشجاعة وتمجيدها والدعوة اليها بكل وسيلة . ومن هنا ظن كثير من أهل الأدب أن أبا الطيب شجاع بطبعه ولكن الظاهر انه لم يكن كذلك وقد أطلت في ذلك الموضوع عند الكلام على أخلاقه . وما مثله في هذا المقام الا كمثل العالم بتثمير الأموال يخاطبك عن الثروة وحساب السوق وأعمال المصارف فتخال وأنت تحدثه أنك في حضرة غني كبير يكلمك عن ماله الخاص والحقيقة أنه يذكر علمه وصناعته . فكذلك كان أبو الطيب من جهة الشجاعة يعرفها من الوجهة العلمية ولكنها لم تكن في طبعه ولا من خلقه بل كانت دراسة على الورق في طمأنينة الليل وهو ينظم قصائده . وما احكمه حين يقول :

واذا ماخلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

* * *

مبدأ صاحبنا في معاملة الناس مبدأ عنف وشدة الا أنه يخفف من شدته عندما يعلق عليه من الحواشي فهو لايقول على الدوام :

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس روى رمحه غير راحم

وانما يلطف من هذه اللهجة بتقسيم الناس الى كريم ولئيم فيقول :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف في العلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

الا أنه نفى وجود الكرام فقال على سبيل الاستفهام الانكارى :

أما في هذه الدنيا كريم ؟

فطريقته في تحبيذ القسوة ان يفرض الفروض مثال ذلك

اذا قيل رفقاً ! قال للحلم موضع — وحلم الفتى في غير موضعه جهل

من الحلم ان تستعمل الجهل دونه — اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

وان ترد المـاء الذى شطره دم — فتسقى اذا لم يسق من لا يزاحم

انه يوصى بالحلم في معاملة الاحرار ولكنه في الوقت نفسه ينكر وجود الاحرار :

وما قتل الاحرار كالعفو عنهمُ — ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا ؟

ويقول : والظلم من شيم النفوس فان تجد — ذا عفة فلعلة لا يظلم

أما قواعده أو بعبارة أخرى وصاياه ونصائحه التي يشير بها في معاملة الناس فانها مبعثرة فى ديوانه واليك بعضا منها :

ولا تشكّ الى خلق فتشمته — شكوى الجريح الي الغربان والرخم

وكن على حـذر للناس تستره — ولا يغرك منهـم ثغر مبتسم

غاض الوفاء . . .

ـ فما كل هاو للجميل بفاعل — ولا كل فعّال له بمتمم

ـ وخـلّ زيا لمن يحققه — ما كل دام جبينه عابد

ـ وكن كالموت لا يرثى لباك — بكي منه ويروى وهو صاد

وهذه قطعة أخرى فى شعره عرّض فيها بالناس أولا ثم وضع القاعدة ثانية

مازلت أضحك أبلى كلما نظرت — الي من اختضبت أخفافهـا بدم

أسيرها بين أصنام أشاهدها — ولا أشاهد فيها عفة الصنم

حتى رجعت وأقلامي قوائل لى — (المجد للسيف ليس المجـد للقلم)

اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به — فانما نحن للأسياف كالخـدم

(من اقتضى بسوى الهندى حاجته — أجاب كل سؤال عن هل بلم)

فهو برمزه بالسيف والقلم قد كشف كثيراً عن رأيه خصوصاً وقد ختمه بحكمة سارت مسير الامثال مؤداها ان الانسان لا يصل الي غايته الا بالشدة

سوء الظن الذى تمكن من نفس أبى الطيب من جهة الناس جميعاً حتى قال:

غاض الوفاء فما تلقاه من عدة ؟ — وأعوز الصدق فى الاخبار والقسم

انا لفي زمن ترك القبيح به　　من أكثر الناس احسان واجمال

أقول ان سوء الظن أفقده العصبية لقومه ولبلده حتى كادت نفسه تجمد ويموت فيها الشعور الفطرى بحب الأقربين والمكان الذى ولد فيه ونشأ وترعرع. وتولدمكان هذه العاطفة عاطفة أخرى هى طلب الفائدة والسعى وراء المنفعة ـ انه يقول

وما بلد الانسان غير الموافق　　ولا أهله الأدنون غير الأصادق

لا يرى البلد والأهل الا ما كان فيه المصلحة وكرر هذا المعنى فى قوله :

وكل امرىء يولي الجميل محبب　　وكل مكان ينبت العز طيب

« كل انسان » و « كل مكان » فى نظر شاعرنا محبوب طيب ما دام يوصل اليه الخير وقد شرح المعنى نفسه فى موضع آخر أيضا فقال :

اذا صديق نكرت جانبه　　لم تعيني فى تركه الحيل

فى سعة الخافقين مضطرب　　وفى بلاد من اختها بدل(١)

« في بلاد من اختها بدل » ! ان صح هذا الرأى فلا معنى لحنين الغريب الي وطنه ولا لنشوب الحروب الطاحنة للدفاع عن البلاد وغير ذلك من المبادىء التي تمجدها الانسانية منذ عرفتها الى اليوم

وهنا يجب على ان انبه الى ان الافكار في غالب الاحيان معيار الاخلاق فاذا قارنا بين أبي الطيب من حيث الاخلاق بناء علي اقواله المتقدمة وبين الشاعر الذى يقول

بلادى وان جارت عليّ عزيزة　　وقومي وان ضنوا عليّ كرام

فماذا الذى يتضح لنا من المقارنة ؟ يتحتم علينا ان نستنتج منها ان الاول ضعيف الخلق كالطفل يحب ان يستأثر بالخير ويمد اليه يده أين وجده ويضن به علي غيره بخلاف الاخير فانه ترقي من حب الذات والأثرة الى الايثار وحب الغير مهما رأى من الظلم والجور .وابو العلاء المعرى ارقي في هذا الباب من أبي الطيب المتنبي لانه يقول :

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي　　سحائب ليس تنتظم البلادا

فالوصول الي الفائدة واحراز الخير غرض اولى في نفس شاعرنا ويظهر انه لا يبالي

---

(١) مثله قوله : غنى عن الاوطان لا يستخفني . الى بلد سافرت عنه اياب

بالطريق الذى، يوصله الى غرضه اذا كان الوصول مؤكداً كما يقول :—

ولست ابالى بعد ادراكي العلي ا كان تراثا ماتناولت أو كسبا

وأدل من ذلك علي حبه الدنيا وجمع عروضها الفانية قوله :

اذا لم تجد ما يبتر الفقر قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا

هما خلتان : (ثروة أو منية) لعلك ان تبقي بواحدة ذكرا

حقا ان حب المال فطرة في الانسان والله تعالي يقول عنه (وانه لحب الخير لشديد)(١) يتلخص مذهب ابي الطيب في كلمة « الحياة شقاء » وليس هذا المبدأ من مخترعات شاعرنا وانما هي فكرة الناس أجمعين يقولونها بصيغ مختلفة و يلبسونها كل يوم ثوبا جديداً ولكن المهم فى الفكرة انما هي النتائج التى تترتب عليها . وهذه النتائج ليست هى بذاتها عند كل المفكرين بل انها تختلف باختلاف الامزجة والطبائع . وانى أشبه الفكرة في ذاتها بالنبع الذى يفيض من الأرض ولكنه يتفرع الي جداول كل منها يختلف عن الآخر لوناوطعما ورائحة وصفاء وحرارة وغير ذلك مما يوجب الدهشة والاستغراب لدى ذي النظر السطحي ولكن الباحث الذى يتتبع الجداول من منبعها و يعرف المناطق التي تخترقها لايرى وجها للغرابة لأنه يعلم ان هذا يسيل في بقعة صلدة التربة مثلا و يخترق جهات كثيرة الأعشاب العطرة وذاك يمر بأراض طفلية فيحمل منها أجزاء تغير من لونه وغير ذلك من الفروض — وكذلك المبادىء فانها كالينابيع يصدر عن المبدأ الواحد نتائج عدة يختلف بعضها عن بعض ، بحسب أمزجة المفكرين ومنازعهم . فالمبدأ الذى نحن بصدده الآن قد تولدت منه قواعد فلسفية مختلفة أى مذاهب هدائية في الحياة : اذا كانت الحياة كما يقول المعري « تعب كلها الحياة » أو « تعب كلها الحياة » فيجب أن ننتهز كل ملذاتها وأن نتنعم بما تصل اليه أيدينا من الخيرات قبل ان تفاجئنا المنغصات . ومن هذا الرأى أبو الطيب في قوله :

أنعم ولذ . . . .

مادمت من أرب الحسان فانما روق الشباب عليك ظل زائل .

(١) الخير هنا بمعني المال كما في قوله تعالي (ان ترك خيراً الوصية للوالدين ...)

وقوله في موضع آخر :

زودينا من حسن وجهك ... فحسن الوجوه حال تحول

وصلينا نصلك في هذه الدنيا فان المقام فيها قليل

فما دام روق الشباب ظلا زائلا والمقام فى الدنيا قليلا فيجب تحصيل اللذات قبل فواتها،هذا رأى صاحبنا ـ الا ان غيره من المفكرين لا يقيمون لهذه الملاذ وزنا مادامت الآلام والأكدار هى المتغلبة.فصرفوا انفسهم عن التنعم وراضوها على التخشن وهم يدعون الناس الى الزهد في الدنيا والتنفير منها

* * *

واذ جئنا عرضاً الى الزهد فانى اذكر ان الشاعر الكبير سامي باشا البارودى لم يسجل في « مختاراته » الا ثمانية أبيات في الزهد لأبي الطيب . وهذا أيضا مما يستدل به علي ان المتنبي لم يكن من الدعاة الي القناعة . ولا حاجة بنا الي تلمس القرائن وأمامنا قوله الصريح :

ليس التعلل بالآمال من أربى ولا القناعة بالاقلال من شيمي

فهو لم يرق بنفسه الى مدارج الفضائل الكبرى وبقى من الموصوفين بقوله تعالى « تحبون المال حبا جما ».انظر اليه كيف يقول لكافور ينصح له بالاستزادة من المال ويوصيه بان يحاذر من تبديده فى سبيل المجد الا أنه قد باح بمكنون ضميره ونم عن مبدئه في حب الدنيا

فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده

ودبره تدبير الذى المجد كفه اذا حارب الأعداء والمال زنده

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فقد صرح فى البيت الأخير تصريحا غير كاف للتمسك عليه الا انه قال بعد :

وفى الناس من يرضي بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده

ولكن قلبا بين جنبيّ ما له مدى ينتهي بي في مراد أحدّه

فهو لا يرى لمطامعه حداً يقف عنده فضلا عن انه لا يرضى بميسور عيشه ويزيد

على ذلك انه ينصح الناس بالحرص ويقول لهم (لا مجد في الدنيا لمن قل ماله) ورب معترض يقول هل نسيت قوله لكافور يستهين بأعراض هذا العالم الفاني :

اذا نلت منك الود فالمال هين　　وكل الذى فوق التراب تراب

فأقول ان هذا البيت جاء بعد ابيات اخرى ظهر فيها الحاف شاعرنا في السؤال :

وهل نافعى ان ترفع الحجب بيننا　　ودون الذى املت منك حجاب؟

وفى النفس حاجات وفيك فطانة　　سكوتى بيان عندها وخطاب!

***

صناعة أبي الطيب في تصوير حالات النفس وانفعالاتها — هذا البحث يدلنا علي مقدار تدقيق أبي الطيب في ملاحظة ما يدور في نفس الانسان من الخطرات المختلفة عندما يصادف حادثا من الحوادث — أضرب لك مثلا : كيف يتلقى الواحد منا الاخبار المسيئة ؟ الجواب سهل جداً اذا نظرنا الي النتيجة الأخيرة . يقول كل منا مثل قول الآخر : نتلقي الأخبار المسيئة بالحزن والكدر وغير ذلك من الانفعالات النفسية — ولكن النفس يدور فيها قبل ذلك أخذ ورد قلّ ان نلتفت اليها ، يدور فيها شبه تحقيق ، فتشك أولا في صحة الخبر خوفا على آمالها ومصالحها وتلجأ الى أوهي الأسباب كاحتمال كذب المبلغ مثلا ولا تزال تتنقل في الشكوك حتي تتأكد من الحق الذى لا ريب فيه فيصيبها ما يصيبها من الألم لما نزل بها — هذه الحال قد أجاد فى وصفها أبو الطيب عند ما وصل اليه نعي أخت سيف الدولة وكان المتنبي اذ ذاك بالكوفة بعد عودته من مصر فقال ضمن مرثيته :

طوى الجزيرة حتي جاءني خبر　　فزعت فيه بآمالى الي الكذب

حتي اذا لم يدع لى صدقه أملا　　شرقت بالدمع حتي كاد يشرق بى

انظر اليه أيضا كيف يصور حركة النفس وقد أخذ الحزن ينازعها من ناحية والتصبر من ناحية أخرى وقد أجاد الشاعر فى رمزه للحزن بالدمع وهو مقياس الألم فى غالب الأحيان . قال :

الحزن يقلق والتجمل يردع　　والدمع بينهما عصىّ طيّع

يتنازعان دموع عين مسهد هذا يجيء بها وهذا يرجع

قال مثل هذا عن الحب أيضا فتجد غزله مجموعة ملاحظات نفسانية يحلل فيها ميول النفس بفكر مدقق ـ وقد رأيناه ينظم في الغزل بعقلة المفكر لا بوجدانه المنفعل وبهذا العقل أيضا ينظم في المراثى في غالب المواقف التي تحتاج الي الوجدان . رأيناه قبل الآن كيف تكلم على الكذب عرضا فى أثناء غزله فجاء بتحليل واف لاخلاق المرأة في التصنع والكذب بالأفعال لا بالأقوال فقط.

***

وقد آن لى أن استخلص من آراء أبى الطيب وأفكاره حكما اجماليا في تقدير فلسفته. وينبغى بادىء ذى بدء أن أقول ان صاحبنا لم يكن فيلسوفا نظريا كابن سينا مثلا ولا خلقيا كابن حزم ولا مؤدبا صوفيا كالغزالي. فمن هذه الناحية لا يصح ان يقارن بهم فتمام فلسفتهم ليس في متناول الشعراء «لا ينبغي لهم ولا يستطيعون» وغاية ما يقال عن شاعرنا انه مفكر له آراء لا نقطع بأنها ثمرة نظره ونتيجة تحقيقه كما أننا لا ندعى أنه استعارها من غيره . فان صح اطلاق الفلسفة على كل مجموعة من الأفكار فأبو الطيب جدير بأن يسمى فيلسوفاً لأن مجموعة أفكاره حافلة مستفيضة ويمكن للناقد أن يجد لها انسجاما وارتباطا بين أجزائها وقد تناول فيها البحث باشارات موجزة عن مسائل شتى تتعلق بالحياة وخطة السير فيها وتقدير خلق الناس ومعاملتهم على مقتضي خلقهم. فهو من هذه الناحية حكيم ينبغي أن لا يضن عليه بهذا اللقب الذى أعطي لأمثال « ديوجانس » الكلبي من مفكري اليونان ، وتمتاز مجموعة أفكار صاحبنا بأنها جميلة الاسلوب شعرية الوضع وإذا جاء بصفة خلقية أو صورة نفسية أجاد فى تقريبها الى الافهام وان انصرف الى الخلق وحالات النفس تجده قريب الشبه من (سقراط) واضع علم الاخلاق عند قدماء اليونان وخير من عرف من فلاسفتهم فى الاسلام .

***

اذا تسامحنا قليلا رأيناه محقا في آرائه العامة عن الناس وعن خطة المعاملة في الحياة فاذا اعترضنا على سوء ظنه بالناس مثلا واتهامهم بالنقائص وميلهم الى الظلم والغدر

واذا آخذناه على قواعده القاسية فى المعاملة رجعنا على انفسنا باللائمة لان الرجل لم يقل الا ماقاله جهور الناس فى كافة الامم وفي جميع العصور. ألم يقل العباس بن الأحنف وحكمه يتناول الناس اجمعين

أسأت اذ أحسنت ظنى بكم (والحزم سوء الظن بالناس)

واذا سألنا انفسنا : من هم بنو الانسان ، أبناء آدم و بنات حواء ؟ فماذا يكون الجواب ؟ قابيل يقتل أخاه هابيل ؟ ام أبناء يعقوب يبيعون أخاهم يوسف ؟ ام اولئك الذين رموا ابراهيم في النار المستعرة ؟ وآذوا موسى ؟ وعذبوا عيسى ؟ واخرجوا محمداً من قريته ؟ وحكموا على سقراط بالاعدام ؟ واحرقوا جان دارك ؟ أم دليلة ، وسلومة ، وامرأة العزيز ، وحمالة الحطب ؟

تبارك العليم الحكيم الذى قال وهو أصدق القائلين « قتل الانسان ما اكفره ! » « ان الانسان لظلوم كفار »

فأبو الطيب بفلسفته لم يغضب الا بعض الخياليين الذين يريدون ان يروا في الانسان ملكا كريما ، وفي الحياة عدلا ونعيما ، ناظرين الى جهة واحدة ، حالمين بما فيها ، مقيمين فى واد من الأوهام ولذلك قل ان ترضيهم الحياة الحقيقية اذا قابلوها وجها لوجه -

و بالجملة فابو الطيب شاعر الجمهور يأخذ منه و يعطيه ، وحكيم الجمهور يعظه و يهديه ويسليه و يواسيه ، وكثيراً مايغالظ له في النصح وكثيراً مايغضبه وكثيراً مايرضيه : وسنراه خطيبا معلما في الباب الآتى ان شاء الله



الباب الخامس

اسلوب أبي الطيب ومميزات صنعته

جزئيات الموضوع

(١) الاسلوب – كلمة عامة – التشابه بين المتنبي والمعري في الاسلوب – المعاني المتداولة – الشرح والتنميق (التوليد) – الاسلوب التعليمي — الاسلوب الخطابي — الاسلوب التمثيلي

(٢) مميزات صنعته – (الطبع الموسيقي) : – الترديد – العدد – (آثار البداوة) : الغريب – الاراجيز — اللغات الشاذة – الذوق الجاف – (الصناعات المعنوية) . الجمع بين الاضداد – الالفاظ : المقابلات – المعاني : الكميات – خلط الفنون – (الصناعات اللفظية) – ترك الجناس والتورية – التجنيس –

القسم الاول

اسلوب أبي الطيب

كلمة عامة

لكل شاعر – أو ناثر – صناعة خاصة به ذات مميزات تفرق بين عمله وعمل غيره من أصحاب الفن الواحد – فشعر كل من امرىء القيس وعنترة وأبي نواس والبحتري وابن الفارض وغيرهم انما هو شعر في مجموعه تتسرب فيه القواعد العامة من وزن وتقفية ومطالع ومخالص ومقاطع . وكل مايوجد من هذا القبيل في شعر أحدهم يوجد لامحالة في شعر الآخرين ولكن لكل واحد من هؤلاء الشعراء صناعة خاصة يعرف بها وتعرف به . ولا أظن أحداً من أهل الادب يصدقنا اذا نسبنا شيئاً من شعر ابن الفارض لامرىء القيس مثلاً ولو كان ذلك الاديب المسؤول لايستظهر شيئاً من شعر كل واحد منهما . بل انه يجيبنا من فوره بان هذا خلط بين . ولا يؤاخذنا لاننا نسينا او أخطأنا فقط بل لاننا أشركنا شاعراً في شخصية شاعر آخر

ولكن لاينبغي أن نظن ان المسالة من السهولة والبساطة بهذا المكان لان الفرق وان ظهر واضحا جليا بين ابن الفارض وامرىء القيس فانه قد يكون غامضا مظلما بين

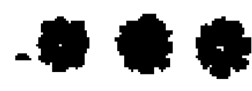
شاعرين متقاربين في العهد مثلا أو متعاصرين أو مقتديين بامام واحد في الفن الى غير ذلك من الفروض

في اسلوب أبي الطيب أشياء كثيرة من مميزات عصره لان الشاعر مهما حافظ على شخصيته ومهما قويت فيه ملكة الاستقلال لايستطيع أن يقاوم الرأى الشائع فى زمانه ، ولا ذوق الجمهور من أهل الأدب ، ولا أن يخرج عن مألوف تراكيبهم ومبادئهم في الجملة.

ان اطلاق الحرية فى العصر العباسى كان له أثر كبير فى الأدب العربى من ذلك عدم الوقوف عند حد في اختيار الالفاظ والتراكيب والمعانى والأوزان والقوافى الشعرية . وقد رويت اشعار باللغة العامية فى رثاء البرامكة . وأما التراكيب فقد دخل عليها شيء من تقليد التراكيب الاجنبية فزادوا « هو » و « هى » مثلا في مواضع لا تألفها اللغة العربية الاصلية وذلك تقليدا للتركيب اليونانى(١) حتي يكون في الجملة مسند

(١) يظهر أن النقل من اللغة اليونانية لم يصل الي الادب الصميم اعنى ان العرب لم يكن لهم نصيب من فنون الادب اليونانية ولعلهم جهلوها جهلا تاما او ان ابواب معرفتها قد اوصدت فى وجوههم عمداً والا فكيف يعقل ان مؤلفات الفلاسفة على غموضها وما اودعته من الاشكال والتعقيد تنقل الي العربية ويتناقش فيها في المجالس وتقوم الامة وتقعد من اجل مسألة من مسائلها بمعنى ان الروح الفكرية اليونانية تسربت في نفوس العرب ووصلت الى اعماقها حتى اصبحوا يعتقدونها وادخلوها فعلا فيدراسة اصول العقيدة ، وذلك بدون ان يصل الي العرب شيء من الروايات التمثيلية الكبرى التى لا تزال إلى اليوم من حسنات اليونان كقطع « سوفوكل » مؤلف « اوديب الملك » وبدون ان يصل اليهم شيء من الشعر اليونانى القصصى او الحربى من امثال « الياذة » « هوميروس » ؛ لو ان العرب كانوا نقلوا شيئا من ادب اليونان الفنى اعنى ماعدا الحكم لكانوا عرفوا التمثيل اليونانى وادخلوه في عاداتهم كما ادخلوا الفلسفة اليونانية والتفكير الفلسفى اليونانى

ومسنداليه ورابطة تربطها كقولهم ما « هو » الانسان وقولهم الانسان « هو » حيوان ناطق أما الأوزان فقد ازدادت وعرف منها أنواع كثيرة وتاريخ علم العروض حافل بالشواهد التي لا تحصى وكذلك ازداد تراث اللغة العربية زيادة وافرة بفضل المعاني الأجنبية التي أدخلها الشعراء الأعاجم أو الشعراء العرب الذين اختلطوا بالأمم غير العربية



وانه ليخيل الي ان أبا الطيب هو آخر مثال للشعر الناضج في الدولة العباسية فقد أخذ هذا الشاعر عن سائر المتقدمين عليه وقلد أساليبهم وانتحل معانيهم حتى ان الذين جاءوا من بعده لم يأتوا بشيء غريب بدع اللهم الا أبا العلاء المعري . ومع ذلك فاني اري ان شيخ المعرة ثمرة غرس ابي الطيب لفظا ومعني وبه اقتدى في الاسلوب الكتابي كما اقتدى به — ولو بحكم السابقية — في طريقة انتحاء الحكم والملاحظات الاخلاقية والانتقاد على العادات . وابو الطيب اول من جلى في حلبة تلك الطريقة واجاد فيها الا ان ابا العلاء كان اكثر منه مادة في هذا الباب بل ربما كان كل شعره تقريبا فيه . — وهذه بعض امثلة من شعر ابي الطيب ولا فرق بينها وبين شعر ابي

ولعل السبب في ذلك ان النقل من اللغة اليونانية لم يقصد لذاته بل قصر لمعرفة اساليب الجدل والرد على غير المسلمين بحسب طرقهم في المناظرة فاقتصد النقل على علوم التفكير وحدها

ولعل السبب ايضا ان امراء اليونان الذين اقترح عليهم امراء المسلمين ان يدلوهم على مختارات علومهم لينقلوها الى العربية ضنوا عليهم بكتب الادب او راوا ان خير ما عندهم في الحقيقة انما هي كتب الحكمة واهملوا كتب الادب عمداً . ويجوز ايضا ان المسلمين انفسهم لم يروا في الادب اليوناني ما يناسب العادات والاخلاق الاسلامية فعدلوا عن نقلها . كل هذا جائز محتمل الا أن تاريخ النقل عن اليونان موجز مقتضب يمكن تأويله بصور شتى

وقد ظن بعض الادباء ان ابا الطيب كان له المام باللغة اليونانية لانه كثيراً ما كان يتورك على حكم الفلاسفة ويوسع لها مجالا في شعره ولكن النقل لا يساعد على قبول هذا الظن

العلاء من حيث اللفظ ولا المعني ولا الاسلوب . — قال في التهكم على المسلمين

أمبلغ الدين أن تحفوا شواربكم؟ ياأمة ضحكت من جهلها الامم!

مثل هذا التهكم قول ابي العلاء

فلا يغرنك من قرائنا زمر يتلون في الظلم القرآن والزمرا(١)

ثم عرج على ذم كافور وذكر فيه الفاظ المبادىء الفلسفية فقال

فانه حجة يؤذى القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

وقال في هجاء ضبة يقارن بين الزواج والبغاء على سبيل السخرية

وليس بين هلوك وحرة غير خطبة

مثله قول أبي العلا

مساجدكم ومواخيركم سواء فبعدا لكم من بشر!(٢)

وقال وهو خطاب عام لكافة الناس . — « أما فى هذه الدنيا كريم؟ » الى أن يقول

وما أدرى أذا داء حديث أصاب الناس أم داء قديم ؟

مثله قول أبى العلاء

فلا تعذلينا ، كلانا ابن لئيمة وهل تعذب الأثمار ان لؤم الغرس(٣)

وقال فى رثاء والدة سيف الدولة

يدفن بعضنا بعضا ويمشى أواخرنا على هام الأوالى

وهو ماقاله أبو العلاء في مرثيته المشهورة

خفف الوطء ما أظن أديم الأ رض الا من هذه الأجساد

وقال ابو الطيب

فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجساد من تربه

مثله قول أبي العلاء

ان مات جسم فهذى الأرض تخزنه وان نأت عنه روح فهي في الفلك (٤)

(١و٢و٣و٤) الالزم من لزوم ما لا يلزم (مختصر اللزوميات) لأحمد نسيم ص٨٦ و١٠٦ و١٠٨و١٤٥

وقد أشرنا الى التشابه بين الشاعرين وذكرنا حكم ابن خلدون ومشايخه في غير هذا الباب

* * *

المعانى المتداولة

يجيء شاعرنا الى المعنى الذي يدور بخلد كل انسان ويصوره بعبارات يحسن اختيارها بحسب المناسبات فتارة يأتي بألفاظ فخمة تشعر بالعظمة والجلال وطوراً بكلمات رشيقة تنم عن رقة وسلامة ذوق الى غير ذلك من الاساليب التي تظهر المعنى على الحقيقة التي يعهدها كل الناس ولكن لا يستطيعون ان يصوروها بحسب مكانتها من وجدانهم. من ذا الذي يجهل المعني الذي يختلج في صدر كل مناوهو قوله « ما كل مايتمني المرء يدركه » او معني قوله « الرأي قبل شجاعة الشجعان » أو « آلة العيش صحة وشباب » أو « اذا انت اكرمت الكريم ملكته » أو « مصائب قوم عند قوم فوائد » أو « رب عيش اخف منه الحمام » الى غير ذلك من الأفكار والمباديء التي تعتبر أولية شائعة ولكل شخص منها قسط لا ينكره عليه احد ، تلك المعاني التي استأثر بها ابو الطيب لنفسه بعد ان كانت ملكا لكل واحد حتى لكأنها كانت مواتا فأحياها فأصبحت له « بوضع اليد » كما يقول الفقهاء. فلا مراء في ان اكثر معاني ابي الطيب لاسيما المعروف منها والمتداول وأخصها التي اشتهر بها مشترك متعادف يقع تحت متناول جميع الناس. ومن هنا جاءت تهمة السرقة كما قدمنا

* * *

الشرح والتعليق (التوليد)

لم يكتف أبو الطيب بتصوير تلك المعاني من غير تصرف فيها ولم يقف عند حد ابرازها على مايعهده الناس دون ان يزيد عليها شيئا من عنده . بل أنه يشرحها ويفسرها ويوضح ما خفي منها ويكرر أوصافها أحيانا ويعلق عليها ويضيف اليها من الحواشي ما يحليها ويزينها . فتارة يشفعها بمثل وآونة يردفها بتشبيه وطوراً يعقبها بمرادفات تفتح ما استغلق منها الى غير ذلك من المحسنات . وهذه بعض أمثلة توضح ما أشرت اليه . ويكفي ان تضع بين شطرى البيت احدي ادوات الاستفهام لتظهر لنا طريقة

الشاعر في استخدامه النوع المعروف في علم المعاني بشبه كمال الاتصال وهو وقوع الجملة الثانية جواباً عن سؤال اقتضته الجملة الأولى:

«أفاضل الناس أغراض لذا الزمن» لماذا؟ «يخلو من الهم اخلاهم من الفطن»
«من يهن يسهل الهوان عليه» كيف؟ «ما لجرح بميت ايلام»
«لولا المشقة ساد الناس كلهم» لماذا؟ «الجود يفقر والاقدام قتال»
«وكل امرىء يولي الجميل محبب» أردفه بقوله «وكل مكان ينبت العز طيب»
«وكن على حذر للناس تستره» شرحه بقوله «ولا يغرك منهم ثغر مبتسم»
«لحا الله ذي الدنيا مناخا لراكب» فسره بقوله «فكل بعيد الهم فيها معذب»
«فتى كالسحاب الجون يخشى ويرتجى» بينه بقوله «يرجى الحيا منها وتخشى الصواعق»
«وما قتل الاحرار كالعفو عنهم» وأبدى أسفه بقوله «ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا»

ولا يرضى أبو الطيب في بعض الاحيان بتفسير واحد بل يعززه بثان وثالث فمن ذلك قوله

«وعجاجة ترك الحديد سوادها زنجا تبسم أو قذالا شائبا»

فانه لم يقتنع في هذا البيت بتشبيه واحد وهو «زنجا تبسم» بل شفعه بتشبيه ثان وهو «أو قذالا شائبا»

وقوله رحلت. فكم باك بأجفان شادن علي، وكم باك بأجفان ضيغم

لم يكتف بهذا التعبير بل زاد عليه إيضاحا فقال

وما ربة القرط المليح مكانه بأجزع من رب الحسام المصمم

ومن هذا النوع قوله

روح تردد في مثل الخلال اذا اطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحولا انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

وقوله:

اراك ظننت السلك جسمي فعقته عليك بدر من اقساء الترائب
ولو قلم ألقيت في شق رأسه من السقم ماغيرت من خط كاتب

ولابى الطيب معنى جميل وهو قوله «والجيش جيشك غير انك جيشه» فهو معنى كامل واضح كرره في قوله

بالجيش تمتنع السادات كلهم   والجيش بابن ابى الهيجاء يمتنع

المعنى ظاهر اى ان الامراء يحتمون بجيوشهم ولكن سيف الدولة يحمي جيشه بنفسه فشرح تلك الشطرة وفسرها في ثلاثة ابيات فقال

والجيش جيشك غير انك جيشه   في قلبه ويمينه وشماله

ترد الطعان المر عن فرسانه   وتنازل الابطال عن ابطاله

كل يريد رجاله لحياته   يامن يريد حياته لرجاله

مثال آخر: «الرأى قبل شجاعة الشجعان» قدمنا ان هذا المعنى ليس من مبتكراته وانما هو معنى معروف شائع يحس به كل الناس حتى العامة والسوقة فالفضل للشاعر هنا انه البس هذا المعنى المتداول اجمل ما يمكن من اللفظ مع السهولة والوضوح والايجاز والسلامة . ولو كان وقف عند هذا الحد لما طلبه احد بمزيد ولكن الصنعة — صنعته الخاصة — حكمت عليه، كما يقولون، فظهرت طريقته في الشرح والتفسير والتوضيح والتعليق والحواشي مما رأيناه متفرقا فى الامثلة المتقدمة . فقال

الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو اول وهى المحل الثاني

فاذا هما اجتمعا لنفس مرة   بلغت من العلياء كل مكان

ولربما طعن الفتى اقرانه   بالرأى قبل تطاعن الأقران

لولا العقول لكان ادنى ضيغم   ادنى الى شرف من الانسان

رأينا فى الامثلة المتقدمة ان أبا الطيب يجىء بالقاعدة ثم يشرحها ويعلق عليها مايشاء . ولكنه في بعض الاحيان يفعل العكس اعنى انه يعرض افكارا متعددة وتشبيهات مختلفة ثم ينتهى منها الي قاعدة تسير في الناس مسير الأمثال من ذلك قوله

عجبت لمن له قدّ وحدّ   وينبو نبوة القضم الكهام

ومن يجد الطريق الى المعالى   فلا يذر المطىّ بلا سنام

(ولم أر فى عيوب الناس شيئا   كنقص القادرين على التمام)

وقوله عند ماسمع بأن قوما نعوه في مجلس سيف الدولة

يامن نعيت على بعد بمجلسه   كل بما زعم الناعون مرتهن
كم قد قتلت وكم قد مت عندكم   ثم انتفضت فزال القبر والكفن
قد كان شاهد دفني قبل قولهم   جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا
(ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن)

يخيل الى أن أبا الطيب قد اكتسب هذا الاسلوب من ابن الرومي ، ولا يخفي أن شاعرنا كان راوية ابن الرومي ،فلا عجب اذن ان اقتبس منه احدى طرقه في التأليف

وطريقة ابن الرومي معروفة عند الادباء و يعبر عنها المؤلفون بأقوال مختلفة تؤدي الى معنى واحد ينطبق على أسلوب أبي الطيب الذي نحن بصدده واني مورد هنا حكم اثنين من مؤلفي هذا العصر

قال جورجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية عند الكلام على ابن الرومي « واشتهر بالتوليد في الشعر لانه أتى بكثير من المعاني لم يسبق اليها . ومن مميزاته انه لم يترك المعنى حتى يستوفية و يمثله للقارئ تمثيلا »

وقال الاستاذ الاسكندري في تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي عن ابن الرومي : « نبغ في الشعر نبوغا لم يقصر به عن درجة البحتري وربما فاق في اختراع المعاني النادرة أو « توليدها » من معاني من سبقه بشكل جديد ووضعها في احسن قالب »

هذا « التوليد » هو أسلوب أبي الطيب بعينه ـ ولو كان ابن الرومي قد مني بأعداء من أهل الادب مثل من رزىء بهم ابو الطيب لكانوا سموا التوليد « سرقة » وشنعوا على ابن الرومي كما نالوا من عرض المتنبي

***

الاسلوب التعليمي والاسلوب الخطابي

يتبين مما تقدم أن أسلوب الكلام في شعر أبي الطيب انما هو الاسلوب التعليمي او الخطابي . اذ كل من المعلم والخطيب يجتهد في تثبيت ما يقوله في افهام سامعيه

فيكرر المعنى ويعيده بطرق شتى ثم يتركه أحيانا ويعيد عليه الكرة مرة بعد مرة حتى يرسخ في الاذهان

ومما يؤيد فكرة الاسلوب التعليمي فى شعر أبي الطيب أن ذلك الشاعر يجتهد ما استطاع في أن يجعل كلامه بمثابة قواعد عامة فنجد أن الشطرة الواحدة قضية مستقلة بذاتها يتخذها الناس مثلا — واكثر ما يكون ذلك فى مطالع قصائده والأمثلة على ذلك فى ديوانه لا تحصى ونذكر بعضاً منها مكتفين بايراد مطالع القصائد لتكون بمثابة للرائد

(أعلى الممالك ما يبنى على الأسل)	(هو الزمان مشت بالذى جمعا)
(لا افتخار الا لمن لايضام)	(على قدر اهل العزم تأتى العزائم)
(ضروب الناس عشاق ضروبا)	(لكل امرئ من دهره ما تعودا)
(انما التهنئات للأكفاء)	(الرأى قبل شجاعة الشجعان)
(لهوى النفوس سريرة لا تعلم)	(الحزن يقلق والتجمل يردع)
(قد شغل الناس كثرة الأمل)	(عذل العواذل حول قلب التائه)
(أبعد نأى المليحة البخل)	(أحق عاف بدمعك الهمم) الخ الخ

فكرة لا اخالها الا حدساً وتخميناً وربما أصابت الحقيقة : ألا يجوز أن يكون ابو الطيب في حبه لوضع القواعد العامة في مطالع قصائده مقلدا لامامه وامام الجميع أبى تمام صاحب المطلع المشهور : « السيف أصدق انباء من الكتب »

هذه فكرة أبديها ولا أخوض فيها

* * *

في شعر أبي الطيب ما ينم على حبه للوعظ والظهور بمظهر الناصح فتكثر فيه الأوامر والنواهى ، يبدى الآراء ويضرب الامثال ، وهذا ما يسميه ادباء الغرب « لهجة الاستاذية » وأراها مطية الغرور في الشاعر لا سيما اذا كان مرمي كلامه للكبراء والامراء — الا ان هذا العيب لا يظهر في شعر المتنبي لأنه يحسن الانتقال ويحكم التأليف بين اجزاء الكلام فلا يحس أحد منه بالخروج عن الموضوع كما يحس بذلك

في كلام غيره . — جرت وحشة بين الأستاذ كافور والامير أبي القاسم مدة ثم اصطلحا فقال ابو الطيب قصيدته التي مطلعها

حسم الصلح ما اشتهته الأعادي وأذاعته ألسن الحساد

وفيها يقول لكافور

إنما انت والد والأب القاطع أحنى من واصل الأولاد

ثم وجه الكلام الى الممدوحين

لا عدا الشر من بغى لكما الشر وخص الفساد أهل الفساد
انما ما اتفقتما الجسم والرو ح فلا احتجتما الي العواد
واذا كان في الانابيب خلف وقع الطيش في صدور الصعاد
أشمت الخلف بالشراة عداها وشفى رب فارس من اياد
وتولى بني البزيدي بالبصرة حتى تمزقوا في البلاد
وملوكا كأمس في القرب منا وكطسم واختها في البعاد

وهذه جراءة من الشاعر اذ يقف بين يدي اميرية و يقول لهما: اياكما والاختلاف فان سلامتكما في الاتفاق وحذار من ان يقع بينكما الخلف الذي قضى على غيركما من الامم الغابرة الى اخر ما ضرب به لهما من الامثال

وفي قصيدة اخرى نصح لكافور بان يقصد في الجود

فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذي المجد كفه اذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

ومهما قال الادباء في هذه الابيات من أن الشاعر يخاطب جاهلا احمق او ارتأوا غير ذلك من الآراء فان ابا الطيب وضع نفسه موضع المعلم المرشد او الواعظ الناصح وهو ما يؤلم الممدوح مهما كان أبعد الناس عن الأدب .

« أحدث بنو كلاب حدثا بنواحي بالس وسار سيف الدولة خلفهم وابو الطيب معه فأدركهم بعد ليلتين بين ماءين يعرفان بالغبارات والخرارات فأوقع بهم وملك الحريم

فأبقى عليه » فقال المتنبي

ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجانى عتاب
وانهم عبيدك حيث كانوا اذا تدعو لحادثة اجابوا
وعين المخطئين هم وليسوا بأول معشر خطئوا فتابوا
وأنت حياتهم غضبت عليهم وهجر حياتهم لهم عقاب

وهو من أجمل ما يسدى من النصح للأمراء عند ظفرهم بالمخطئين من رعايهم . وقد أورد عمدة النقاد ابن رشيق هذه الابيات بين مختارات ما قيل في الشفاعة لدى الملوك

من هذا النوع حكمه التي يأتى بها في أثناء قصائده ولا يكون لها علاقة بما قبلها ولا بما بعدها كأنما تنتابه حمى الوعظ فيخرج من موضوعه الى ضرب الامثال ثم يفيق من بحرانه ويعود الي موضوعه . ففي قصيدة . « أرق على أرق ومثلي يأرق » وقصيدة « لهوى النفوس سريرة لا تعلم » . تجد الحكم والامثال المرصوفة بعضها تلو بعض

* * *

الاسلوب الخطابى

للاسلوب الخطابى معنى آخر ارمي اليه . لكلام الخطباء من العرب ولا سيما الجاهليين منهم ومن جاء بعدهم في الدولة الاموية طريقة خاصة تظهر فيها النعرة العربية والاباء المشهور عن أهل البدو . وهذا أول مميز يختص بصيغة الكلام في مجموعه . وهناك مميزان اخران أحدهما يتعلق باللفظ وهو لختيار التراكيب السهلة لتقريب المعانى من افهام السامعين ثانيهما يتعلق بموضوع الكلام نفسه وهو التفاخر والانذار والتهديد والادعاء أحيانا والغطرسة في كثير من الأوقات . وكل القصائد التى جعلها اهل الادب في باب الفخر متشبعة بهذه الروح (١) . تلك القصائد تقال في احوال

(١) يقول عمرو بن كلثوم في معلقته

وقد علم القبائل من معد اذا قبب بابطحها بنينا
بانا المطعمون اذا قدرنا وانا المهلكون اذا ابتلينا

خاصة كالمحاكمات وغيرها وهي عند العرب أشبه شيء بمرافعات المحامين او خطب النواب او منشورات قواد الجيوش في أيامنا . فالسليقة العربية ترى ممتزجة بالشعر ، والالفاظ والتراكيب سهلة مفهومة حتى تسير بها الركبان والموضوع في الغالب لايخرج عن ارضاء عواطف ومداواة كبر مجروح . فالموضوع اذن قليل الافكار ولكن المقصود منه اقناع السامع بصحته : معنى يسير في لفظ كثير او بعبارة اخرى سكير حريص يخلط خمرة بماء كثير اومدمن على الصهباء يقتل من سورتها بالماء

وخطب زعماء الامويين ورجالهم كزياد بن ابيه والحجاج بن يوسف الثقفي مصبوبة في هذا القالب منسوجة على هذا المنوال

اقول أن هذا الاسلوب الخطابي كثيراً ما يسري في قلب أبي الطيب فيوحي اليه شعراً شبيهاً بالشعر « العنتري » المشهور من ذلك قوله

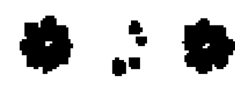
انا ابن اللقاء ، انا ابن السخاء انا ابن الضراب، انا ابن الطعان
انا ابن الفيافي ، انا ابن القوافي انا ابن السروج، انا ابن الرعان
طويل النجاد ، طويل العماد طويل القناة ، طويل السنان
حديد اللحاظ ، حديد الحفظ حديد الحسام ، حديد الجنان
يسابق سيفي منايا العباد اليهم كأنهما في رهان

وانا المانعون اذا أردنا وانا النازلون بحيث شينا
وانا التاركون اذا سخطنا وانا الآخذون اذا رضينا
وانا العاصمون اذا اطعنا وانا العارمون اذا عصينا
ونشرب ان وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
لنا الدنيا ومن امسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين اذا ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
اذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

— * —

واني وفيت واني ابيت   واني عتوت علي من عتا
وما كل من قال قولا وفي   ولا كل من سيم خسفا ابي(١)

الى غير ذلك من اقوال الادعاء والغرور



ومن مقتضيات هذا الاسلوب الخطابي تكرير اللفظ الواحد او الجملة الواحدة كما جاء في قوله تعالى « يا قوم » وفي سورة الرحمن « فبأي آلاء ربكما تكذبان » وفي سورة اقتربت الساعة « فهل من مدكر » وفي سورة المرسلات « فويل يومئذ للمكذبين » . او قول الشاعر الجاهلي الحرث بن عباد « قربا مربط النعامة مني » وقول مهلهل « وقربا مربط المشهر مني » . فقد ورد في شعر المتنبي شيء كثير من ذلك قوله

وانك بالامس كنت محتلما   شيخ معد وانت أمردها
(وكم وكم) نعمة مجللة   ربيتها كان منك مولدها

---

(١) واشجع مني كل يوم سلامتي   وما ثبتت الا وفي نفسها امر
تمرست بالآفات حتى تركتها   تقول امات الموت أو ذعر الذعر؟
واقدمت اقدام الابي كأن لي   سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها   فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقا وقينة   فما المجد الا السيف والضربة البكر
وتضريب اعناق الملوك وان ترى   لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دويا كأنما   تداول سمع المرء انمله العشر
وكم من جبال جبت تشهد انني الـ   جبال وبحر شاهد انني البحر

سيعلم الجميع ممن ضم مجلسنا   بانني خير من تسعى به قدم
انا الذي نظر الأعمى الى ادبي   واسمعت كلماتي من به صمم
وجاهل مده في جهله ضحكي   حتى اتته يد فراسه وفم
اذا رأيت نيوب الليث بارزة   فلا تظنن ان الليث يبتسم
الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(وكم وكم) حاجة همحت بها اقرب مني الى موعدها
ذى المعالى فليعلون من تعالى (هكذا هكذا ! والا فلا لا !)

احب التى في البدر منها تشابه واشكو (الى) من لا يصاب له شكل
(الى) واحد الدنيا الي ابن محمد شجاع الذى لله ثم له الفضل
(الى) الثمر الحلو الذى طيء له فروع وقحطان بن هود له أصل
(الى) سيد لو بشر الله امة بغير بني بشرتنا به الرسل
(الي) القابض الأرواح والضيغم الذي تحدث عن وقفاته الخيل والرجل
(الي) رب مال كاما شت شمله تجمع في تشتيته لله لى شمل

ان (حل) في فرس ففيها ربها كسرى تذل له الرقاب وتخضع
او (حل) في روم ففيها قيصر او (حل) في عرب ففيها تبع

(فهن) مع السيدان في البر عسل (وهن) مع النينان في الماء عوم
(وهن) مع الغزلان في الواد كمن (وهن) مع العقبان في النيق حوم

(فلم يخل) من نصرله من له يد (ولم يخل) من شكر له من له فم
(ولم يخل) من اسمائه عود منبر (ولم يخل) دينار ولم يخل درهم

حاشى (كمثلك) ان تكون بخيلة (ولمثل وجهك) ان يكون عبوسا
(ولمثل وصلك) ان يكون ممنعا (ولمثل نيلك) ان يكون خسيسا



الاسلوب التمثيلي

قد عرف الناس التمثيل فى زماننا ولا حظوا اللغة التى يتخاطب فيها الممثلون على المراسح وهى بالطبع ليست لغة الجمهور الاعتيادية، كما ان حركاتهم واشاراتهم ليست بالشىء المعهود في شؤون الحياة، وكذلك الوان وجوههم فانها على الدوام تتجاوز حد المعتاد – أهم مايري على المراسح انما هو تصوير العواطف المختلفة مكبرة موضحة

بالأقوال والأفعال . فالعاطفة الضعيفة التي لا تكاد تدرك الا من وراء حجاب نراها على المراسح ناصعة جلية . فالمعنى الذى أرمى اليه من حيث « الاسلوب التمثيلى » انما هو ذلك الاسلوب الذى تظهر فيه الانفعالات النفسانية وتكثر فيه حركات العواطف بصورة ملحوظة تذكرنا بتلك الاقوال التى نسمعها على مراسح التمثيل . فهذا النوع من الكتابة يتلاقى به الناظر كثيرا في شعر ابى الطيب ـ فالاستفهام والتعجب والتأسف وترديد النداء ومسآلة النفس والانفعالات المختلفة التي ذكرنا بعضها في الاسلوب الخطابي نراها مستحكمة الحلقات في شعر ابى الطيب ـ واليك بعض الأمثال

قال أبو الطيب فى مطلع احدى قصائده

أحيي ؟ وأيسر ماقاسيت ماقتلا   والحب جار على قلبي وما عدلا

فهذا الافتتاح نشاهد أمثاله على المراسح ـ اوالمسارح ـ كأن ترفع الستار عن مكان خال ثم يندفع فوق المرسح من أحد مداخله ممثل يصيح وآ أسفاه ! او يضحك ويقهقه أو يهدد ويتوعد وينادى بالويل والثبور الى غير ذلك من الانفعالات واليك أمثلة من شعر المتنبى

اصخرة أنا ؟ مالى لاتحركنى   هذى الكؤوس ولاهذى الأغاريد؟

ـوما قتل الأحرار كالعفو عنهمو   ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا ! ؟

ـعيد ؟ بأية حال عدت ياعيد ؟   بما مضي أم لأمر فيك تجديد؟

وهذا الاسلوب التمثيلي يستلزم استعمال كثير من اشارات التعجب وأدوات الاستفهام وغيرها ـ انظر الى قوله فى الاستعطاف

يابدر ! يابحر ! ياغمامة ! ياليث الشرى ! ياحمام ! يارجل !

وفي المداعبة

أريقك ؟ أم ماء الغمامة ؟ أم خمر   بفيّ برود . وهو فى كبدى جمر
أذا الغصن؟أم ذا الدعص؟أم أنت فتنة؟   وذيا الذى قبلته البرق أم ثغر؟

اذا عذلوا فيها أجبت بأنة   حبيبتا ! قلبي ! فؤادى ! هيا جمل !

وفي كافور والأسف آخذ منه مأخذه

أمينا ؟ وأخلافا؟ وغدراً ؟ وخسة ؟ — وجبنا؟ أشخصاً لحت لي ؟ أم مخازيا ؟

وفي رثاء فاتك

أين الذي الهرمان من بنيانه — ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟

وقوله وهو غضبان

ويلمها خطة ! ويلم قابلها — لمثلها خلق المهرية القود

وقوله وهو حزين كئيب

أردد « ويلي ! » لو قضى الويل حاجة — وأكثر « لهفي ! » لو شفى غلة لهف
« أوه ! » بديل قولتي « واها ! » — لمن نأت والبديل ذكراها
« أوه ! » لمن لا أرى محاسنها — وأصل « واها » و« أوه » مرآها

***

فهذه الاقوال تشترك في نقطة واحدة وهي أنها كلها تعبر عن انفعالات شديدة ولا بد لمن يريد ان ينشدها على وجهها ان يعطيها من الصوت والنغمة مايناسبها فان فعل ظنه السامع ممثلا في ملعب يؤدي دوراً من الادوار الانفعالية

وهنا أيضا أبدي فكرة ولا أتعرض لتأييدها ولا لدحضها : الا يجوز أن يكون ابو الطيب في أسلوبه هذا وكثرة استعماله لأدوات التعجب والاستفهام مقلداً لدعبل الخزاعي في قوله المشهور

أين الشباب ؟ وأية سلكا ؟ — لا ! أين يطلب ؟ ضل بل هلكا !!!

ودعبل يعد من فحول الشعراء الذين يقتدى بهم في اسلوبهم والاستاذ الاسكندري يقول عنه « كان دعبل في منزلة أبي تمام عند كثير من أهل الادب (١)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي ص٨

القسم الثاني

مميزات صنعة أبي الطيب وخصائصها

الطبع الموسيقي

قد يرزق الشاعر اذناً ذات استعداد خاص لتقدير الاصوات ولغمات ال وتتابعها وجرسها ورنينها ونبراتها ، فلا ترتاح الا اذا وفقت بين هذه الحركات ا والفت منها مقطعات كالغناء موزونة وزنين: وزن الشعر ووزن التوقيع الموسيقي ف نفس السامع (١) لهذا الشعر وتهتز له وتبكي منه احيانا ـ على انه لا يتضمن مع ولا يكتسي لفظا جزلا ولكنه قد أرضى أذن السامع قبل كل شيء فانخدعت بذلك وغفلت عن الا[illegible] المطلوب تحققها في الشعر ـ والشاعر الذى يجيد هذ من الشعر لابد ان [illegible]اذا استعداد موسيقي ولم يوفق الي الاشتغال بفنه الذى لأجله ـ فالشعر الموسيقي ليس فيـه الا ارضاء الاذن ولو بدون ارضاء الوجد العقل ـ وقد خدمت أبا الطيب أذنه في كثير من المواضع كما انه فضل الخطأ الضعيفة من أجل ارضاء اذنه . ولا أظن غرام شاعرنا بقياس الشطرة على الش البيت الواحد قياساً موسيقيا الا نتيجة طبع فيه. ـ انظر الي قوله

يامن ألوذ به فيما اؤمله ومن أعوذ به مما احاذره

تجد فيه راحة السمع تسبق ارضاء الفهم وما ذلك الا النغمة التي تترددفي الب أكثر شاعرنا من هذا التوقيع فصح فيه قول ابن الاثير في البحتري « أراد ا فغني » واليك بعض الامثلة

الدهر معتذر ، والسيف منتظر وأرضهم لك مصطاف ومرتبع

للسبي ما نكحوا ، والقتل ماولدا والنهب ماجمعوا ، والنار مازرعوا

يستشهد الادباء بهذين البيتين على نوع من البديع هو « حسن التقسيم أراهم قد رموا الى غرض بعيد وهو تأثير المعنى في الفهم ولم يحفلوا بالغرض القر

---

(١) السامع أو القارىء على حد قول المتنبي : «كالخط يملأ مسمعي من

ـى السمع مع أن العقل لايفكر الا بعد ان تصل اليه الاصوات من طريق
، الشعر جاء أولا من تقطيع الابيات بالشكل المعهود والتأثير هنا تأثير نغمات قبل
، ـ انظر الى المثال الآتى

جيش كأنك في أرض تطاوله فالأرض لاأمم والجيش لاأمم
اذا مضى علم منها بدا علم وان مضى علم منه بدا علم

نك ترتاح الى توقيعه مع ان المعنى لا يدرك الى بعد تفكير . ـ مثال آخر

هوجيّة ملء الطرق خلفهم والمشرفية ملء اليوم فوقهم

، تستعذب تقابل النغمات في الشطرين ولو انك تجهل « الأعوجيّة » مثلا
، المنسوبة الأعوج (فرس كريم) . ـ

جع هذا الحسن الى السجع المرصع وان لم يكن كاملا أو الى مجرد السجع
النظم (١) كقوله

الوغى ، والقنا ، والنازلات به والسيف ، والضيف ، رحب البال جذلانا
كواعب ، والجرد السلاهب ، والبيض القواضب ، والعسالة الذبل

يقته في تقطيع الشعر انه يجيء في البيت بعدة كلمات من وزن واحد :

في شانه ، ولسانه ، وبنانه ، وجنانه ، عجب لمن يتفقد
الناعمات ، القاتلات ، المحييات ، المبديات ، من الدلال عجائبا
وترى المروة ، والفتوّه ، والأبوّة ، فيّ كل مليحة ضراتها

يجيء بكل كلمتين من وزن واحد كقوله

متلف مخلف ، وفيّ أبيّ عالم حازم ، شجاع جواد

يقطع شطرة البيت الى قسمين غير متساويين ـ ويفهم هذا التقطيع عند

---

(١) لما تدهورت الآداب ارتقى شأن السجع وحده · لان الناس في أدوار
ـلال ينصرفون عن تحصيل مايعمرون به عقولهم اويوقظون به وجدانهم
، من الأدب الا بعض نغمات يطربون بها آذانهم

الانشاد الصحيح بالطبع ـ مثال ذلك

ـ مهلا ، فان العذل من اسقامه　　وترفقا ، فالسمع من اعضائه
ـ اذا صلت ، لم اترك مصالا لفاتك　　وان قلت ، لم أترك مقالا لعالم
ـ بفرع يعيد الليل ، والصبح نير　　ووجه يعيد الصبح ، والليل مظلم

وفي بعض الاحيان يخيل للسامع ان البيت سؤال وجواب أو قول واعتراض

نري عظما بالبين ـ والصد أعظم　　ونتهم الواشين ـ والدمع منهم

والغالب في طريقته انه يقطع الشطرة الي جزئين متساويين ـ فالشطرة الاولى كقوله

والطعن يحرقها ، والزجر يقلقها　　حتي كأن بها ضربا من اللمم
ـ يفك العناة ، و يغني العفاة　　و يغفر للمذنب الجاهل
ـ صريع مقلتها ، سآل دمنتها　　قتيل تكسير ذاك الجفن واللعس
مرجو منفعة ، مخوف أذية　　مغبوق كأس محامد مصبوح

وقد يجيء هذا التقطيع في الشطرة الثانية كقوله

وحائن لعبت سمر الرماح به　　فالعيش هاجره ، والنسر زائره
ـ ناديت مجدك في شعري وقد صدرا　　ياغير منتحل ، في غير منتحل

وكثيرا ما يقطع الشطرتين معا كقوله

والمرء يأمل . والحياة شهية　　والشيب أوقر . والشبيبة أنزق
ـ يقدن الفناء . غداة اللقاء　　الي كل جيش . كثير العديد
ـ فيد مسلمة. وطرف شاخص　　وحشا يذوب . ومدمع منفوح
ـ أنأيته فدنا . أدنيته فنأى　　جمشته فنبا . قبلته فأبى
ـ فالموت أعذرلي، والصبر أجمل بي　　والبر أوسع . والدنيا لمن غلبا
ـ قليل عائدي ، سقم فؤادي　　كثير حاسدي . صعب مرامي
عليل الجسم . ممتنع القيام　　شديد السكر. من غير المدام (١)

---

(١) أمثلة اخري

نعج محاجره ، دعج نواظره　　حمر غفائره ، سود غدائره

محلك مقصود ، وشانيك مفحم ومثلك مفقود ، ونيلك خضرم

ويصادف في شعره انه يقطع البيت بأكمله الى ثلاثة أقسام كقوله

ـ ويميت قبل قتاله . ويبش قبل نواله . وينيل قبل سؤاله

ـ الشمس من حساده . والنصر من قرنائه . والسيف من اسمائه

ـ حتى الكواكب ان تعودك من عل / وتعودك الآساد من غاباتها

والجن من ستراتها . والوحش من فلواتها ، والطير من وكناتها(١)

***

تكرير اللفظ (الترديد)

في ديوان أبي الطيب أشعار كثيرة يكرر الشاعر فيها كلمة واحدة فيجيء التكرير في بعض الأحيان حسنا مستلذا وفي بعضها قبيحا مستنكراً ـ يقول في أبي العشائر

(نفسي) له (نفسي) الفداء (لنفسه) ولكن بعض المالكين عنيف

فان التكرير هنا في لفظ « نفس » مقبول الا انه غير مستحسن في مثل قوله

ـ يعطى فتعطي من لهى يده اللهى و(ترى) (برؤية) (رأيه) الآراء

ـ (غثاثة) عيش ان (تغث) كرامتي وليس (بغث) ان (تغث) المآكل

ـ و(حمدان)(حمدون)و(حمدون) حارث وحارث لقمان ولقمان راشد

ـ (عظمت) فلما لم تكلم مهابة تواضعت وهو (العظم)(عظما) عن (العظم)

قد حزن في بشر . في تاجه قمر في درعه أسد ، تدمي أظافره

حلو خلائقه . شوس حقائقه تحصى الحصي قبل أن تحصى مآثره

ـ ومن بعده فقر . ومن قربه غنى ومن عرضه حر ، ومن ماله عبد

لهم أوجه غر . وأيد كريمة ومعرفة عد ، والسنة لد

وأردية خضر . وملك مطاعة ومركوزة سمر ، ومقربة جرد

(١) وله في هذا التقسيم صناعة أدق مثل قوله (والترصيع هنا أظهر)

الحازم اليقظ الأغر ، العالم الفطن الألد ، الأريحي الأروعا

الكاتب اللبق الخطيب ، الواهب الندس اللبيب ، الهبرزي المصقعا

- ومن (جاهل) بي وهو (يجهل) (جهله) و (يجهل) علمي انه بي (جاهل)
- الى امرى قصد كل (عجيبة) كأني (عجيب) في عيون (العجائب)
يستملح له بعض أصحاب البديع قوله

الماطل المتن ، ابن الماطل المتن ابن الماطل المتن ، ابن الماطل المتن

ولعل أبا الطيب كان يرى هذا العيب ولكنه في الوقت نفسه كان يستحسن وقع الكلمة في اذنه اذا ترددت كأنها نغمة موسيقية متكررة

يقول ابن رشيق صاحب كتاب العمدة في باب « الترديد » وسمع أبو الطيب استحسان هذا النوع فجعله نصب عينه حتى مقته وزهد فيه ولو لم يكن الا بقوله

(فقلقلت) بالهم الذي (قلقل) الحشا قلاقل (عيس) كلهن (قلاقل)

فهذه الالفاظ كما قيل كلها قلاقل ونحو ذلك قوله

(اسد) فرائسها (الاسود) يقودها (اسد) تكون له (الاسود) ثعالبا

فما أدري كيف تخلص من هذه الغابة المملوءة اسودا »(١)

وفي قصيدة له مدح بها أحد القضاة ترى مثالا ليس أدل منه على حب أبي الطيب الترديد:

ولست بدون يرتجى الغيث دونه ولا منتهى الجود الذي خلفه خلف
ولا واحداً في ذا الورى من جماعة ولا البعض من كل ولكنك (الضعف)
ولا (الضعف) حتى يتبع (الضعف) (ضعفه) ولا (ضعف) (ضعف) (الضعف) بل مثله الف
أقاضينا هـذا الذي انت أهله غلطت ! ولا الثلثان هذا ولا النصف !

الا ترى كيف انتقلنا من الشعر والخيال الى عمليات حسابية ومسائل رياضية بل والى متواليات هندسية لا تحلها كتب اللغة وانما تحلها جداول اللوغاريتم ! ؟ !

* * *

كثرة العطف وشبهه (العدد)(٢)

ذكر صاحب « يتيمة الدهر » من ضمن محاسن شاعرنا « حسن سياقه العدد »

---

(١) ص ٤ ج ٢ (٢) يقابل هذا التعبير عند الفرنسيس Le nombre وهي مصادفة عجيبة لأنها ترجمة لفظية

على أن سياق العدد قد يجيء منه الحسن كما يجيء منه القبيح والذى يميز هـذا النوع من التأليف هو استعمال حروف العطف (ولم يتعرض الثعالبي الا لحرف الواو) وللمتنبي نوع شبيه بهذا حيث يصف الكلمات بعضها تلو بعض . وهذا النوع أيضا كما يجيء منه الحسن يجيء منه القبيح . ـ كل المتأدبين يحفظون بيت المتنبي :

الخيـل والليـل والبيـداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ولكن يخيل لى ان كثيراً منهم لايلتفتون الى ان الشاعر قد جاء بسبع معطوفات فى بيت واحد ، وهو شيء مستنكر لو لم تفصل بين جزء منها والجزء الآخر كلمة «تعرفني» انظر كيف ظهر العطف « او سياق العـدد » كما يقولون فى البيتين الآتيين على غـير ماظهر به فى البيت السابق :

ان تلقه لاتلق الا جحفـلا أو قسطلا أو طاعنا أو ضاربا
أو هاربا أو طالبا أو راغبا أو راهبـا أو هالـكا أو نادبا

لاريب ان تتابع عشر معطوفات آخذ بعضها برقاب بعض ، أو بأذناب بعض ، مما لايستحسن ولا يعد فخراً للشاعر . ولكن للشاعر لذة من هذا الجمع لايستطيع أن يتنازل عنها وهي نغمة كل كلمة على حدتها وسياق هذه الكلمات المتسـاوية في القياس والوزن (١) . ـ أما شبه العطف الذى أشرت اليه فلا يبلغ من الكثرة في شعر ابي

(١) أمثلة أخرى

بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ، ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن
ـهذه دولة المـكارم . والرأ فة . والمجد . والندى . والايادى
ـ دعاني اليك العلم ، والحلم ، والحجى . وهذا الكلام النظم ، والنائل النثر
ـالواضحين ابوات : وأجبنة . ووالدات : وألبابا . وأذهانا
ـللشمس فيه : وللسحاب . وللبحا ر : وللاسود : وللرياح شمائل
ـولديه ملعقيان . والأدب المفا د : وملحياة : وملمات مناهل
ـفتاة تساوى عقدها : وكلامها : ومبسمها الدري : في الحسن والنظم
ونكهتها ، والمندلى ، وقرقف معتقة صهباء فى الريح والطعم

الطيب ما بلغ العطف . ـ قال في وصف درعه

... ... ولكن قميصي مسرودة من حديد
لامة ، فاضة ، اضاة ، دلاص ، احكمت نسجها يدا داوود

وفي احد ممدوحيه

تاج لؤى بن غالب وبه سما لها فرعها ومحتدها
شمس ضحاها ، هلال ليلتها ، در تقاصيرها ، زبرجدها (١)

ومما لا استملاحه ولو ان فيه شيئ من التقسيم والمقابلة « وفيه ٢١ صفة »

دان ، بعيد ـ محب ، مبغض ـ بهج أغر ـ حلو ، مر ـ لين ، شرس
ند ، أبي ، غر ، واف ، اخي ثقة جعد ، سرى ، نه . ندب . رض . ندس

وشر منه « وفيه ١٤ فعل أمر »

أقل . أنل . اقطع . احمل . عل . سل . أعد
زد . هش . بش . تفضل . ادن . سر . صل

وأخف منه قليلا « المقابلة والتقسيم » وفيه ١٠ أفعال ماضيه

قدروا . عفوا ـ وعدوا . وفوا ـ سئلوا أغنوا ـ علوا . أعلوا ـ ولوا . عدلو

***

آثار البداوة

الغريب : حب الغريب من الالفاظ لذة يشعر بها فريق من الكتاب والادباء تمتز بهم في كل عصر وفي كل مكان ولا يمكن لأحد ان يعيب عليهم هذا العشق « وللناس فيما يعشقون مذاهب » وعندنا اليوم في مصر بعض من لهم هذا الغرام بغريب الالفاظ وهم من أهل الفضل والادب بلا نزاع

---

(١) مثال آخر

ذات فرع كأنما ضرب العنبر فيه بماء مسك وعود
حالك كالغداف ، جثل ، دجوجي ، اثيث ، جعد ، بلا تجعيد

يخيل الي ان الكاتب أو الشاعر كلما كانت نزعته الى البداوة كلما زاد ميله الى استعمال الغريب من ألفاظ اللغة ولكنه كلما انحاز الي التحضر كلما رغب في المألوف من الالفاظ . واذ كان أبو الطيب ميالا الى البداوة متعصبا للاعراب يشبب بالبدويات ولا يرى الحسن الا فيهن فلعل هذا الطبع الفطري هو الذى حبب اليه الغريب وجعله يرغب عن المألوف المتعارف من أجل الوحشى المهجور (١)

وكثيرا ماضيع بهجة البيت الظريف بكلمة مستغربة لايعرفها الا من رزق الصبر على البحث في خبايا اللغة ومجهولاتها كقوله

لقيت المروى والشناخيب دونه وجبت هجيرا يترك الماء صاديا

الظر كيف ضاعت روعة الشطرة الثانيـة أمام « شناخيب » الشطرة الاولى . فمثل هذا الشعر نظم جميل يليق بالأراجيز التى هى مأوى الغريب . وغاية مايمكن أن يقال عن أبي الطيب بهذه المناسبة أنه قد أنزل هذه الالفاظ غير منازلها

الأراجيز : والذى حفظ شعر أبي الطيب من غلبة الغريب عليه أن شاعرنا كانت تنتابه من آن لآخر نوبة هى أشبه بالحمي يهذى فيها بالغريب ويخرج كل مابقى عالقا منه بنفسه فى صورة أرجوزة يخفف بها ماكان مرتكزا على صدره من هذا الحمل الثقيل . من هذه الاراجيز « ومنزل ليس لنا بمنزل » وهى سهلة بالنسبة لغيرها وفيها يقول الشاعر :

فحل كلاّبى وثاق الأحبل . عن أشدق ، مسوجر ، مسلسل . أقبّ ، ساط ، شرس ، شمردل

وفى هـذه الأرجوزة وصف لكلاب الصيد قل ان يجىء بمثله شاعر . وأرجوزة « وشامخ من الجبال أقود » وفيها وصف الصيد . وأرجوزة « ماالمروج الخضر والحدائق » قالها عند ما جمد الثلج بأرض انطاكيا وتعذر الرعي على مهره . ومنها قطع صغيرة مثل قوله « لاعدم المشيّع المشيَّعُ » قالها عند ما شيع سيف الدولة عبده يمك لما انفذه الى الرقة وأخرى : « ان كنت عن خيرالأنام سائلا » قالها لسيف الدولة في المفاضلة بين

---

(١) الامثلة كثيرة في شعر المتنبي كالجرشى والمخشلب والمسبطر والسفاسق والشوذانق والعنتريس والخازباز .

العرب والأكراد وأرجوزة :

« حجّب ذا البحرَ بحارٌ دونه . يذمها الناس و يحمدونه »

قالها عند ما مد نهر قويق فأحاط بدار سيف الدولة وخرج أبو الطيب من عنده فبلغ الماء الى صدر فرسه . وأرجوزة

« ماأجدر الايام والليالى بأن تقول ماله ومالي »

قالها في عضد الدولة وفيها وصف الصيد وصفا مفصلا

اللغات الشاذة أوالضعيفـة أو المختلف فيها : عرف عن أبي الطيب أنه يستخف أحيانا بقواعد اللغة والاعراب أو يجيء بغير المشهور (وقد تقدم رأى ابن رشيق والثعالبي فى ذلك انظر ص ١٥٢ و ١٦٤ من هذا الكتاب) ـ ولعل هذا الضرب من التأليف قد أداه اليه حبه للغريب . فيستعمل لفظة (السم) بدل (الاسم) فى قوله

أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس تسيل من الآماق والسم أدمع

أو (التوارب) بدل (التراب) في قوله « أيفطمه التوارب قبل فطامه ؟ » ويجمع (ارض) على (اروض) :

اروض الناس من ترب وخوف وأرض أبي شجاع من أمان

ويجمع (دار) على (أدؤر) :

أحبه والهوى وأدؤره وكل حب صبابة ووله

ومثل ذلك غريب التراكيب :

حملت اليه من لسانى حديقة سقاها الحجى سقي الرياضَ السحائبِ

أى سقي السحائبِ الرياضَ ـ وقد ذكر العكبري في شرح هذا البيت عدة أبيات لشعراء آخرين استشهاداً على وقوع مثل هذا القلب أو التقديم والتأخير

انه يحذف (ان) المصدرية قبل المضارع مثل قوله

يدرى بما بك قبل () تظهره من ذهنه ويجيب قبل () تسائل

ـ اشفق عند اتقاد فكرته عليه منها أخاف () يشتعل

ـ اقر جلدي بها عليّ فلا اقدر حتى الممات () انكرها

وتوقدت أنفاسنا حتى لقد أشفقت () تحترق العواذل بيننا

فيحذف (ان) و يبطل عملها ولكنه فى المثال الآتى يحذفها ويبقى عملها أى يجعلها تنصب المضارع على خلاف مذهب البصريين :

بيضاء يمنعها - (تكلم) دلها تيها و يمنعها الحيـاء (تميسا)

بدل ان تكلم وان تميس - وكذلك نراه يحذف نون مِن قبل الاسم المعرف بأل فيقول

نحن ركب (ملجن) في زى ناس فوق طير لهـا شخوص الجمـال

ندى الخزامي اذفر القرنفل محال (ملوحش) لم يحلل

ولديه ملعقيان والأدب المفا د و (ملحياة) و (ملمات) مناهل

بدل من الجن ومن الوحش ومن العقيان ومن الحياة ومن الممات

وأبو الطيب لا يعجزه الرد اذا سئل عن هذه الشواذ النحوية أو اللغوية(١) وكذلك أنصاره يجدون الأمثلة العديدة من الشعر القديم التى تبرر شذوذ صاحبهم - والمتنبي ممن اشتغلوا بحفظ اللغة واستقصاء غريبها - روى ابن خلكان « ان الشيخ أبا على الفارسى صاحب « الايضاح والتكملة » قال له يوما كم لنا من الجموع على وزن فِعلى فقال المتنبي في الحال حِجلى وظربى . قال الشيخ ابو على فطالعت كتب اللغة ثلاث ليالي على ان اجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أجد »

يعيب النقدة على المتأخرين استعمال بعض الفاظ لا يقصد منها الا حفظ الوزن في البيت - و يصادف هذا التأليف في منظومات النحو والفقه - الا ان هذا «الترقيع» - مثل « قد علم » و « فافهم » قد يغتفر في (الرملية) وغيرها من المتون العلمية المنظومة ولكنه حشو مستنكر يحسب على صاحبه في الشعر الفني - من ذلك قول المتنبي في كافور

---

(١) وله معان شعرية جميلة مبنية على اصطلاحات لغوية أو نحوية كقوله

امضى أرادته ف (سوف) له (قد) واستقرب الأقصى ف (ثم) له (هنا)

حولي بكل مكان منهمو خلق تخطي اذا جئت في استفهامها ب (من)

من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن (هل) ب (لم)

ولوكنت أدرى كم حياتي قسمتها وصيرّت ثانيها انتظارك (فاعلم)

ولعل أنصار السرقة لا يقولون ان أبا الطيب سرق (فاعـلم) هذه من الفية ابن مالك ! ؟ !

وقد أكثر المتنبي من استعمال (ذا) بمعنى هذا . كقوله

أريد من زمني (ذا) ان يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

عن (ذا) الذى حرم الليوث كماله ينسى الفريسـة خوفه بجماله

واذا طمى البحر المحيط فقـل له دع (ذا) فانك عاجز عن حاله

الذوق البدوي الجاف : ـ حب أبي الطيب للبدو جعله يصور صورا هى أشبه شىء بأقوال الجاهليين ولكنها في قصائد تغلب عليها رقة الحضارة وفيها من محسنات البديع وسهولة التعبير ما يجعل للانتقال صدمة في ذهن السامع فكما انه يجيء بالكلمة الغريبة في البيت السهل الالفاظ فانه يجيء بالابيات المستغربة المعني أو التركيب أو الالفاظ حيث لا ينتظر ورودها. انظر الى المطلع السهل الذي لعب فيه بالألفاظ وجاء فيه ببديع المتأخرين « صلة الهجر لى وهجر الوصال » . . . وفيها يقول

لا تلمني فانني أعشق العشاق فيها يا أعذل العذال ؟

فانه يخلط هذه الاقوال بمثل :

قف على الدمنتين بالدوّ من ريّـــا كخال في وجنة جنب خال

بطلول كأنهم نجوم في عراص كأنهن ليالى

ونؤي كأنهن عليهـن خدام خرس بسوق خدال

الى ان يقول

نحن ركب ملجن في زي ناس فوق طير لهـا شخوص الجمال

من بنات الجديل تمشي بنا في البيد مشى الأيام في الآجال

هذا تأليف بين منزعين قل ان يسلم فيها الشاعر من الزلل . ـ ولكن هذه طريقة لأبى الطيب وسنرى ما يشابهها عندما نتكلم على خلطه الفنون

انه يميل الي بعض الأفكار والتشابيه والأساليب البدوية فيجىء فى شعره بشىء

لا يوافق حالة الحضارة وآدابها وهو في ذلك أشبه بعلي بن الجهم حينما مدح الخليفة (ان صحت القصة) بقوله

انت كالكلب في حفاظك للود   وكالتيس في قراع الخطوب

ومن هذا القبيل ــ والشيء بالشيء يذكر ــ ما رواه لنا الاستاذ «ليتمان» مدرس مقارنة اللغات السامية بالجامعة المصرية قال : « وأنا رأيت رجلا في الرحبة من العرب اسمه « كلب الله » فضحكت لما سمعت هذا الاسم ولكن قالوا ان امه سمته بهذا الاسم لكي يكون أمينا لله كما يكون الكلب امينا لصاحبه »

ومثل هذه الاقوال ولو انها صادقة في ذاتها الا انها قذرة مستهجنة عند المتحضرين قال المتنبي في وصف حيوانات الصيد

يصلحن للاضحاك لا الاجلال   لها لحى سود بلا سبال
لم تغذ بالمسك ولا الغوالي   كل اثيث نبتها متفال
ترضى من الادهان (بالابوال)   ومن ذكي الطيب (بالدمال) (١)

وقال في المغلوبين ــ ومابين كاذتي المستغير   كما بين كاذتي (البائل)

وقال في وصف البرد وتجمد الثلج في انطاكية

ما المروج الخضر والحدائق   يشكو خلاها كثرة العوائق
اقام الثلج فيها كالمرافق   يعقد فوق السن ريق (الباصق)
رماني خساس الناس من صائب (استه)   وآخر قطن من يديه الجنادل
خف الله واستر ذا الجمال ببرقع   اذا لحت (حاضت) (٢) في الخدور العواتق
منذ احتبيت بانطاكية اعتدلت   حتى كأن ذوى الاوتار في هدن
ومذ مررت على اطوادها «قرعت»   من السجود فلا نبت على القنن

ورقة المتأدبين لا ترضى بذكر الابوال والدمال والبصاق والحيض والقرع مما يجب ان يكني عنه أو يعدل عنه الى غيره

---

(١) سبال : شوارب ــ متفال : خبيث الرائحة ــ الدمال . الزبل
(٢) هذ رواية أبي الفتح بن جني وفي رواية اخري (ذابت)

لأبي الطيب غلطات تعد من سوء التصرف في سياسة الكلام . ولكن مرجعها على ما أظن الى ذلك الطبع البدوي الجاف الذي لم تستأصله رقة الحضارة . عندما وفد علي كافور اخذ يبحث عن تعليل يحسن به السواد فأجاد في المرة الاولى حين قال

فجاءت بنا انسان عين زمانه   وخلت بياضا خلفها ومآقيا

ولكنه بعد ذلك جاء بالمخجل من مثل قوله

يفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء
انما الجلد ملبس وابيضاض النفس خير من ابيضاض القباء
من لبيض الملوك ان تبدل اللون بلون الاستاذ والسحناء ؟

فأنعم وأكرم بهذه الشمس السوداء ولون الاستاذ والسحناء !! واعيب من هذا واحق باللوم والمؤاخذة ذكره استمالة قلوب النساء في هذه القصيدة مع العلم بأن كافورا كان خصيا قال

انما يفخر الكريم ابو المسك بما يبتني من العلياء
لا بما تبتني الحواضر في الريف وما يطبي قلوب النساء

فكان الاولى به ان يسكت عن كل مايشير الي عيب صاحبه ولونه

قال يقارن بين سيف الدولة وكافور بعد أن فارق مصر

وما لاقني بلد بعدكم   ولا اعتضت من رب نعماي رب
ومن ركب (الثور) بعد (الجواد) انكر اظلافه والغبب

فقد شبه الملوك بالمطايا وركبهم !! — وفي رثاء النساء لايتحاشى من ذكر الجمال والدلال

صلاة الله خالقنا حنوط   على الوجه المكفن بالجمال
اتتهن المصيبة غافلات   فدمع الحزن في دمع الدلال

ومن مثل هذا قال الخوارزمي : « لو عزاني انسان في حرمتي بمثل هذا لألحقته بها وضربت عنقه على قبرها » (١)

(١) يتيمة الدهر ص ١٢١ ج ١

مثال اخير ـ سوء دفاعه عن نفسه في مجلس سيف الدولة كقوله :
« ويكره الله ما تأتون والكرم » ـ ويقول ابن رشيق عن هذه القصيدة « كلام في ذاته نهاية في الجودة غير انه من جهة الواجب والسياسة غاية في الرداءة . . . وليس هذا عتابا ولكنه سباب » (١)

***

الصناعات المعنوية

الجمع بين الاضداد ـ المقابلات والمكسيات ـ

يروى ان سيف الدولة اعترض على بيتي المتنبي :

وقفتَ وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الأبطال كلمي هزيمة ووجهك وضاء وثغرك باسم

بأن الاصح ان يكون الشطران الثانيان من البيتين الواحد مكان الآخر . فكان جواب المتنبي انه اراد أن يجمع بين الاضداد (٢)

فعشق ابي الطيب للجمع بين الاضداد قد أداه الي نوعين من التأليف . الجمع بين اللفظ وضده والجمع بين المعني وضده . ولا ينبغي ان ننسى ان شاعرنا هوصاحب القول المشهور « وبضدها تتبين الاشياء »

الألفاظ : المقابلات ـ اذا قال ابيض فلا بد ان يتبعه بأسود واذا قال جنة فهو لامحالة مردفها بجهنم حتي لكأن هذه المقابلة فرض حتم يأثم اذا تركها .

(فالليل) حين(قدمت) فيها (ابيض) (والصبح) منذ(رحلت)عنها (أسود)
وخفوق قلب لو رأيت لهيبه - يا « جنتي » لرأيت فيه « جهنما »
أبداً « تسترد » ما « تهب » الدنيا فياليت « جودها » كان « بخلا »
واذا اتتك مذمتي من « ناقص » فهي الشهادة لي بأني « كامل »

(١) العمدة ص ١٣٣ ح ٢
(٢) راجع هذه المناقشة الظريفة في الصبح المبنى ص ٦١ ـ ٦٣ ح ١

سبحان خالق نفسي كيف «لذتها» فيما النفوس تراه غاية «الألم»
كأن الحزن مشغوف بقلبي فساعة «هجرها» يجد «الوصالا»

والمتنبي يسير أحياناً على طريقته هذه في كل مفردات البيت

(أزورهم) (وسواد) (الليل) (يشفع لي) (وأنثني) (وبياض) (الصبح) (يغري بي)
ـ فما ترزق الأقدار ما أنت حارم ولا تحرم الأقدار ما أنت رازق
ولا تفتق الأيام ما أنت راتق ولا ترتق الأيام ما أنت فاتق

المعاني . العكسيات ـ يجيء الشاعر بالمعني المعروف المتداول ثم يتبعه بمعني ضده وأحياناً يجيء بالمعاني على عكس ما هو معروف عند الناس : المشهور أن الرأس أشرف اعضاء الانسان ولكنه يعطى هذه المكانة للأقدام

خير أعضائنا الرؤس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام

أمثلة أخرى قتلت نفوس العدى بالحد يد حتى قتلت بهن الحديدا
يإذا الذى يهب الكثير وعنده أني عليه بأخذه أتصدق
ـ اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم فالراحلون هم
ـ في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان
ـ فوق السماك وفوق ما طلبوا فاذا أرادوا غاية نزلوا

ونقول هنا أيضاً ألا يجوز ان يكون أبو الطيب قد اكتسب طريقة « العكسيات » من ابن الرومي صاحب القول المجوني المشهور

يستغفر الناس بأيديهمو وهن يستغفرن بالأرجل
فياله من عمل صالح ! يرفعه الله الي أسفل

***

خلط الفنون (الافتنان)

في علم البديع باب يسمي « الافتنان » موضوعه الجمع بين فنين مختلفين كالتهنئة والتعزية. وأبو الطيب يكثر من الجمع بين الفنون المتنافرة وقد استطاع في فلسفته أن يجيء بمحسنات نادرة بفضل التوفيق بين الأغراض المختلفة والمعانى المتنافرة وفي البيت

الواحد ترى الشطرة الاولى من كلام المجان والثانية من كلام الزهاد

وقد فضلت ان أسمي هذا النوع من التأليف بخاط الفنون لما في الخلط من معنى الاضطراب والخروج عن النظام المألوف . فقد يجيء شاعرنا في موضع الهول والعبرة وهو موقف الموت في الرثاء ويذكر جمال النساء المتفجعات كقوله في رثاء ابن سيف الدولة

تركت خـدود الغانيات وفوقها   دموع يذبن الحسن في الأعين النجل

وفى رثاء أم سيف الدولة

وأبرزت الخـدود مخبآت   يضمن النقس أمكنة الغوالى

أتتهن المصائب غافلات   فدمع الحزن في دمع الدلال

وهذا جميل في الوصف وتصوير الحزن وهو يداهم المترفات في قصور الملوك — أبو الطيب لا يقف في دائرة موضوعه بل تراه ينتقل من رأي الى رأى ومن فكرة الى أخرى ربما لا يكون بينهما أي اتصال . نراه يهجو ويذكر السوآت ويخمش وجه الأدب بل يريق ماء الحياء ثم ينتقل دفعة واحدة الى الفضائل والحكم ومكارم الاخلاق والعكس بالعكس ويتخالل ذلك شيء من الوصف لاتدرى كيف يجيء به عرضا — ولعل نجاح المتنبي كان من هذا التنقل الذي يريح السامع بتنويع المباحث . ولعل فضائل هذا العيب هي التى حققت قوله « ربما صحت الأجساد بالعلل »

« ** »

الصناعات اللفظية

ترك الجناس والتورية . يقول الاستاذ الاسكندرى عن المتنبي « ولكنه طرح الجناس والتورية الشائعين في زمانه جانبا »(١) — الا انه يميل نوعا ما الى الجناس الناقص أو المقلوب في مثل قوله

ولا يزع (الطِرف) عن مقدم   ولا يرجع (الطَرف) عن هائل

— أسائلها عن المتدير بها   فلا (تدري) ولا (تذرى) دموعا

— (منعّمة) (ممنّعة) رداح   يكلف لفظهـا الطير الوقوعا

(١) ص ٢٨٠

ـ يرد يداً عن ثوبها وهو (قادر) و يعصى الهوى عن طيفها هو (راقد)
ـ ولا أقيم على مال (اذل) به ولا (الذ) بما عرضي به درن
وله جناس تام في قوله
لولا العقول لكان (أدنى) ضيغم (أدنى) الى شرف من الانسان
أما التورية في شعره فهى أقل من القليل . من ذلك
يغادر كل ملتفت اليه ولبته (لثعلبه) (وجار) (١)
وأظهر من هذا قوله في رثاء التنوخي
وحفيف أجنحة الملائك حوله وعيون أهل (اللاذقية) (صور) (٢)
وانى لا أقصد بالأمثلة المتقدمة معارضة رأى الاستاذ فانه رأى وجيه خصوصا وان الامثلة قليلة بل نادرة وانما جئت بها مؤيدا للفكرة التي قدمتها في صدر هذا الباب وهى ان الشاعر مهما استقلت طريقته وقويت شخصيته لا يستطيع ان يتخلى عن الذوق الشائع في زمانه ولا ان يخرج عن مألوف أهل عصره

مناسبات الأسماء والالفاظ (التجنيس) . ـ قال الامام الكبير عبد القاهر الجرجاني في كتابه « أسرار البلاغة » عندما تكلم عن السجع والتجنيس ان أبا تمام قد «أسلم نفسه للتكلف و يرى أنه ان مر على اسم موضع يحتاج الي ذكره أو يتصل بقصة يذكرها فى شعره من دون ان يشتق منه تجنيسا أو يعمل فيه بديعا فقد باء بإثم وأخل بفرض حتم (٣) » ـ وهذا يشمل ما يسميه المتأخرون مراعاة النظير أو ذكر الشيء وما يناسبه ـ ولعل أبا الطيب قد اتخذ هذه الطريقة عن امامه . فقد كان يلعب بالالفاظ بل بحروف الالفاظ وذلك مما يدل على تعلق شاعرنا بالاختراعات اللفظية أو بسعيه وراء المعاني بعد ان يتمكن اللفظ من ذهنه و يتخذ له فيه مقرا أمينا . يقول لكافور

---

(١) الوجار: بيت الثعلب. — ولكن المقصود من الثعلب هنا ما يدخل من الرمح في السنان
(٢) اللاذقية وصور: من مدن الشام. — ولكن صور هنا جمع أصور أى مائل
(٣) ص ١٠ طبعة الترقي سنة ١٣١٩ ـ ١٣٢٠

جرى الخلف الافيك انت واحد   وأنك ليث والملوك ذئاب
وانك ان قو يست صحف قارىء   ذئاب ولم يخطىء فقال ذباب

وقال في أبي شجاع

علك الحمد حتى ما لمفتخر   فى الحمد (حاء) ولا (ميم) ولا (دال)

وقال في سيف الدولة

ان تدع « ياسيف ! » لتستعينه   يجبك قبل ان تتم (سينه)

ولكن البحث عن المعنى الذى يليق باللفظ قد يعيي الباحث وربما أوقعه في الخطأ وهذا ما أفسد المعنى على المتنبي فى قصيدته التى مدح بها « العجلى » : (دمع جرى فقضى فى الربع ما وجبا) ـ فانه ما زال فى اثر اللفظ حتى جعل الممدوح عجلا أو كاد

هند ما كان فى حاشية سيف الدولة جعل لفظ «سيف» مصرف جهده وجرى وراء كل معنى يؤديه فجاء « بالعجب العاجب والسحر» ناهيك بهذا اللفظ الذي وافق ما في طبعه من الشدة فضلا عما يختمر في قلبه من الأماني التى لا تتحقق الا باهراق الدماء فمن ذلك قوله

فلا تعجبا ان السيوف كثيرة   ولكن سيف الدولة اليوم واحد
له من كريم الطبع في الحرب منتضد   ومن عادة الاحسان والصفح غامد
ـ أتحسب بيض الهند أصلك أصلها   وانك منها ؟ ساء ما تتوهم
اذا نحن سميناك خلنا سيوفنا   من التيه في اغمادها تتبسم
ـ انظر اذا اجتمع السيفان في رهج   الى اختلافهما في الخلق والعمل
هذا المعد لريب الدهر منصلتا   أعد هذا لرأس الفارس البطل
ـ عيب عليك ترى بسيف في الوغى   ما يصنع الصمصام بالصمصام؟
ـ فأنت حسام الله والله ضارب   وأنت لواء الله والله عاقد
ـ لقد سل سيف الدولة المجد معلما   فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمه
على عاتق الملك الأغر نجاده   وفي كف جبار السماوات قائمه

وفي مطلع احدى قصائده

لكل امرىء من دهره ماتعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدي

وفي مطلع قصيدة اخرى يستعطف سيف الدولة

الا ما لسيف الدولة اليوم عاتبا ؟ فداه الورى! امضى السيوف مطاربا

وفي تعزيته في ابنه

عزاءك سيف الدولة المقتدي به فانك نصل والشدائد للنصل

مقيم من الهيجاء في كل منزل كأنك من كل الصوارم في أهل

وقال وهو يسايره وقد اشتد المطر

لعيني كل يوم منك حظ تحير منك في أمر عجاب

حمالة ذا الحسام على حسام وموقع ذا السحاب على سحاب

وفي الديوان قطعة عنوانها : « وروى الثعالبي في يتيمة الدهر لما افتتح سيف الدولة الشام وهزم عساكر الاخشيد محمد بن طغج عن صفين » ـ واسم سيف الدولة علي والموقعة في صفين حيث جرت حرب الاميرين الكبيرين علي ومعاوية رضي الله عنهما ـ وهذا مايؤيد ان ابا الطيب يجتهد في ان يبحث للفظ على معنى يناسبه

ياسيف دولة ذي الجلال ومن له خير الخلائق والانام سمي

او ماترى «صفين» حين اتيتها فانجاب عنها العسكر العربي

فكأنه جيش «ابن حرب» رعته حتى كأنك ياعلي « علي »

ولما قدم على كافور بمصر اتخذ كنية ابي المسك ذريعة المدح ولكنه لم يوفق في كلمة « مسك » بقدر ماوفق في كلمة « سيف »

وقد تطرق من المسك الى ذكر صفاته وملحقاته من طيب واريج وروح . قال « ابا كل طيب » ! لا ابا المسك وحده ! وكل سحاب لااخص الغواديا !

انما يفخر الكريم ابو المسك بما يبتني من العلياء

وبمسك يكني به ليس بالمسك ولكنه اريج الثناء

لا ينكر الحسن من دار تكون بها　　لأن ريحك روح من معانيها

ولما غضب عليه حول هذا الكنية وجعلها « ابا النتن » فقال :

ابا النتن قد قيدتني بمواعد　　مخافة نظم للفؤاد مروّع

اما كلمة كافور فقد وجد منها كلمة « كفر » فاستخدمها فى المدح عند ذكر المطايا

وكيف اكفر يا كافور نعمتها　　وقد بلغنك بى يا كل مطلوبى

وكذلك اتخذ كلمة « كفر » محورا يدير حوله اهاجيه في كافور فقال

وا كفر يا كافور حين تلوح لى　　ففارقت مذ فارقتك الشرك والكفرا

وقال فى بدر بن عمار

انت نقيض اسمه اذا اختلفت　　قواضب الهند والقنا الذبل

انت لعمرى (البدر) المنير ولكنـ　　ـك في حومة الوغى (زحل)

وقال في على بن منصور الحاجب

في رتبة « حجب » الورى عن نيلها　　و « علا » فسموه « علىّ الحاجبا »

وعن مدينة تدمر

وليس بغير « تدمر » مستغاث　　وتدمر كاسمها لهم « دمار »

وفي عضد الدولة ابن ركن الدولة

ياعضداً ربه به العاضد　　وسارياً يبعث القطا الهاجد

ليت ثنائى الذى اصوغ فدا　　من صيغ فيه فانه خالد

لويته « دملجاً » على « عضد»　　لدولة ركنها له والد

وقال في صباه يهجو القاضى الذهبى

لما نسبت فكنت ابناً لغير أب　　ثم امتحنت فلم ترجع الى أدب

سُميت بالذهبيّ اليوم تسمية　　مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب

فالصناعة هنا صناعة لفظية واشتقاق كلمات . وقال :

لاعبتُ بالخاتم انسانة　　كمثل بدر فى الدجي الناجم

وكلما حاولت اخذى له　　من البنان المترف الناعم

القته في فيها فقلت انظروا   قد أخفت الخاتم فى الخاتم!

فالمعنى الذي دارت عليه المداعبة انما هو معنى لفظى مبني على كلمة خاتم وبه اختم هذا الكتاب — على طريقة ابى الطيب فى التجنيس! —

* * *

(وبعد) فقد طال بنا السفر وآن لنا أن نلقى عصا الترحال ، حافظين في انفسنا أحسن الذكرى عن خيال من هذه الخيالات الفانية التى أحياها ذكرها الخالد ود ذكر الفتى عمره الثانى » كما يقول ذلك الشبح الذي أقلقناه كثيرا في هجعته وأزعجناه من رقدته : عفا الله عنا وعنه وتولانا واياه برحمته . آمين

والحمد لله
أولاً وآخرا

